طي الذاكرة

جرجي زيدان

الرحلات الثلاث
الآستانة - أوروبا - فلسطين



المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

الرحلات الثلاث

الآستانة - أوروبا - فلسطين

سلسلة «طي الذاكرة»

من «طي النسيان» إلى «طي الذاكرة»

بين الذاكرة والتاريخ مسافة زمنية ونفسية تفصل بين حالتين: حالة التذكر عبر استحضار الذاكرة صورًا وأفكارًا ونصوصًا من الماضي، وحالة النسيان حيث يطوي الزمن صفحته على الذاكرة فيقفل عليها، فكأن شيئًا لم يكن من ذكريات ونصوص وصور.

وإذ درج القول عن شيء نُسي إنه «طي النسيان»، أي إنه غاب عن الذاكرة أو غُيّب، فنفته هذه الأخيرة إلى عالمٍ مجهول، فإن «طي النسيان»، بهذا المعنى النفسي يبطن معنى اللاوعي؛ ولهذا فإن البحث، في المقابل، عن المنسي من الإصدارات العربية، يفصح عن جهدٍ واعٍ، أي عن وعي منقّبٍ في مجاهل الذاكرة، لاكتشاف معالم ما نسي أو كاد يُنسى ووضعه «طي الذاكرة» لا «طي النسيان»، أي لإعادة الوعي به في تاريخ تسلسل الأفكار العربية وتواصلها، وكي لا تنقطع أزمنة النهضة العربية بين مراحلها وكتبها.

خلال أزمنة النهضة العربية، وخلال ما شهده عمر المطبعة العربية، وهو ليس بالطويل، صدرت منشورات كثيرة، بعضها قُدّر له أن يكون له شأن في الثقافة العربية ولما يزل يصدر، وبعضها الآخر أدى دورًا في لحظة ما، لكن نُسي، وبعضها كان يمكن أن يؤدي دورًا، لكن لم يُنتبه له فأهملته المطبعة ونُسي أيضًا.

بناءً عليه، يُعلن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات عن اعتماد سلسلة «طي الذاكرة» في إصداراته، باحثًا عن المنسي والمفيد من الكتب، وناشرًا المتميز فيها، منذ بدأت المطبعة العربية بنشر بواكير كتب النهضة وحتى خمسينيات القرن العشرين وستينياته، أملًا بترميم الجسور المعرفية، وردم الهوة والثغرات بين عوالم الأفكار ومراحلها، وإعادة الوعي والاعتبار إلى ما نُسي منها أو كاد يُنسى.

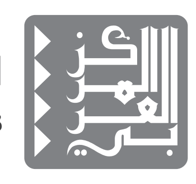
المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

ملاحظة: نلفت القارئ إلى أن المحرّر حافظ على النص كما ورد في الطبعة المعتمدة، ولم يتدخل إلّا في حال وقوع غلط طباعي أو نحوي. أمّا ما أضافه المحقّق من شروح وإيضاحات، فقد وضع في الهامش مشارًا إليه بحرف (م) أو علامة [ ] إذا كانت الإضافة في المتن.

الرحلات الثلاث
الآستانة - أوروبا - فلسطين

جرجي زيدان

تقديم
محمد علي فرحات


المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

الفهرسة في أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

زيدان، جرجي، 1861-1914

الرحلات الثلاث: الآستانة - أوروبا - فلسطين/جرجي زيدان؛ تقديم محمد علي فرحات.

320 ص.؛ 24 سم. - (سلسلة طي الذاكرة)

يشتمل على فهرس عام.

ISBN 978-614-445-154-0

1. الرحالة العرب. 2. تركيا - وصف ورحلات. 3. أوروبا - وصف ورحلات.
4. فلسطين - وصف ورحلات. 5. الرحلات. أ. فرحات، محمد علي. ب. العنوان. ج. السلسلة.

910.4

العنوان بالإنكليزية

The Three Journeys: Asitane, Europe and Palestine

by Jurji Zaydan

الناشر



شارع الطرفة - منطقة 70
وادي البنات - ص. ب: 10277 - الظعاين، قطـر
هاتف: 00974 40356888

جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 11 رياض الصلح بيروت 2180 1107 لبنان
هاتف: 8 991837 1 00961 فاكس: 1991839 00961
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

الطبعة الأولى عن المركز
بيروت، أيلول/سبتمبر 2017

المحتويات

الرحلة إلى فلسطين

1913

تقديم

يغلب على رحلات جرجي زيدان إلى أوروبا والآستانة وفلسطين مزاج الباحث عن معالم حضارية أكثر من مزاج كاتب اليوميات الحية، فيتحدث زيدان عما ترى عيناه وما يفسّره عقله، أكثر مما يتحدث عن أحواله الشخصية وانطباعاته خلال الرحلة. إنه يستكشف أكثر مما يتمتع، ويرى إنجازات الإنسان الحضارية أكثر من طبيعة تختلف عن طبيعة وطنه الثاني مصر.

يريد زيدان من تدوين رحلاته أن يحفّز القارئ على وعي إيجابيات الآخرين وكذلك سلبياتهم التي ينبغي تجنّبها، كما في رحلته إلى أوروبا. وهو يُعنى خلال مشاهداته بخلفيات الحدث السياسي والاجتماعي، كما في رحلتيه إلى الآستانة وفلسطين في مرحلة المتغيّرات التي تبلورت بعد الحرب العالمية الأولى في صورة انهيار السلطنة العثمانية وتجليات وطن لليهود في فلسطين.

يحدّد زيدان سلفًا الهدف من رحلته الأوروبية وهو النظر في ما يهم قرّاء العربية من أحوال تلك المدنية التي «أخذنا في تقليدها منذ قرن كامل، ونحن نتخبط في اختيار ما يلائم أحوالنا منها». ولا تفوته مقارنات أحوال التعليم في فرنسا، مثلًا، بالتعليم في مصر، ومع التعليم مظاهر العمران والأنظمة الحديثة وأحوال المرأة وأخلاقيات العمل. وهنا يبدو زيدان داعية توازن حضاري، فهو إذ يشيد بإيجابيات الحضارة الأوروبية، خصوصًا الفرنسية، لا يغفل عن إيجابيات في المجتمع الشرقي، المصري، تجب المحافظة عليها كجزء من الشخصية الحضارية، مقدمًا نفسه داعية تبادل حضاري لا استلاب. ومن وجوه التبادل كلامه على عائلات عربية (سورية) مقيمة في باريس، بينها تجار مع الشرق وأميركا، ورجال صناعة

ومال وكتّاب وصحافيون وموسيقيون ورسامون ومعلمون. وتأتي مقارنته بين لندن وباريس لمصلحة الأخيرة، مع تقدير للسياسة الاجتماعية في إنكلترا القائمة على قانون إلزامي للضمان الاجتماعي، وعلى تدرُّج ضريبي وإنفاق على الفقراء الذين تعتبر الحكومة نفسها وصية عليهم.

لكن كتابة زيدان عن الآستانة أكثر إسهابًا، فهو يصف المعالم الحضارية بالتفصيل، فنشهد معه مناظر البوسفور الآسرة والهضاب السبع للمدينة، والأبنية المتدرّجة على التلال وعند ضفّتي المضيق. وفي جولاته ينسب الكلام أحيانًا إلى دليل كان يصحبه: «قال مخبرنا». ويصف قصور الآستانة ومتاحفها وشوارعها، كونها عاصمة سلطنة تضم شعوبًا متنوعة، فيظهر التنوع في موجودات متاحفها: آثار وتحف من تخوم الصين إلى أواسط أوروبا، وجنوبًا من بلاد العرب وصولًا إلى شمال أفريقيا. ويطيب لزيدان التركيز على مسكن السلطان عبد الحميد في يلدز، واصفًا مجلسه يوم أُبلغ بالخلع عن العرش، وملاحظًا في مسكنه «آلات بيانو وخزانة أسلحة وساعات كثيرة حتى الهوس، وكذلك خزائن خاصة لحفظ تقارير الجواسيس».

رأى زيدان المرأة التركية من أرقى نساء الشرق، ملاحظًا جلوس الرجال والنساء إلى مائدة واحدة يجتمع حولها ضيوف أحيانًا، لكنه يتحدث أيضًا عن سوق لبيع الخادمات الجواري في عهد عبد الحميد، سعر الواحدة منهن بين 50 و500 جنيه وأكثرهن شركسيات وقوقازيات. ويُبدي إعجابه بأخلاق الأتراك وسلوكهم الراقي: «أتراك اليوم غير أتراك العصر العباسي الذين كانوا بعيدين عن العلم». ويراعي هنا الزمان والمكان، ولا يلصق بشعب ما صفة دائمة. ويرى أن آداب العثمانيين ذات أصول فارسية وعربية. ويقدّم صورة «عالمية» للآستانة من خلال جرائدها التي كانت في أثناء رحلته «تصدر بالتركية والعربية واليونانية والأرمنية والفرنسية والإنكليزية والألمانية. وهناك جرائد حرفها أرمني ولغتها تركية، وجرائد حرفها يوناني ولفظها تركي، وجرائد إسبانية بحروف عبرانية». وهنا يلاحظ زيدان أن عدد الجرائد «الإفرنجية» في القاهرة والإسكندرية أضعاف ما كانت في اسطنبول، وهذا دليل كثرة الأجانب في مصر.

على الصعيد السياسي يركّز على جمعية الاتحاد والترقي حتى يبدو بحق مناصرًا متحمّسًا لها، وهو يدافع عن «الأمة العثمانية» بقطع النظر عن العناصر والمذاهب، متميزًا بذلك عن النخب الشامية في مصر التي تدعم النهضة العربية وتناهض الحكم العثماني. وفي حين يعرض نقد النواب العرب للعصبية القومية لدى زملائهم الأتراك في مجلس المبعوثان، يبرر تلك العصبية بأنها تتجه إلى الدستور وليس إلى العرق التركي. وهو يدعو إلى تجاوز ما يسمّيه «سوء تفاهم» بين الأتراك والعرب بدأ مع عبد الحميد الذي نقم على الأتراك واستعان عليهم بالعرب، ثم تحوّل إلى الجامعة الإسلامية في ظل خلافته، وأدى ذلك، في نظر زيدان، إلى التباغض بين المسلمين وغير المسلمين في السلطنة العثمانية. وينسب زيدان سوء ظن الأتراك بالعرب إلى سبق هؤلاء في السعي الى الاستقلال الإداري، معتبرًا التباعد بين الأمتين من أهم العقبات في وجه الدستور العثماني. ويذهب في تبرير سياسة «الاتحاد والترقي» إلى تجميل الحكم العُرفي الذي عمّموه ويعتبره مثل الجراحة الضرورية للمريض. ويصل إلى الأسف لأن الأتراك لم يعمّموا لغتهم «فتعميمها كان سيُغني عن التعب في جمع العناصر العثمانية». ويؤكد أن العرب أقل العناصر العثمانية معرفة باللغة التركية لذلك انزعجوا من فرضها لغة رسمية في ما سُمِّي آنذاك بـ «التتريك». وتبدو آراء زيدان مناقضة لآراء النخب العربية في زمنه التي، وإن عارض بعضها سياسات السلطان عبد الحميد، رأت في غموض جمعية الاتحاد والترقي المسيطرة على الآستانة مبعث قلق للعرب وغيرهم. ولم يعش زيدان ليرى مسار الجمعية في إدارة السلطنة وصولًا إلى تفككها خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها.

في الرحلة إلى فلسطين تطغى الكتابة التاريخية عن المكان وجواره حيث ولدت التشكُّلات الأساسية للاجتماع اليهودي والمسيحي ثم الإسلامي. ويتناول زيدان ما يسميه ثورة اليهود على الروم أيام هرقل في فترة ظهور الإسلام، وقد حدثت ثورتهم هذه في أنطاكيا وصور وفلسطين، وكانوا عونًا للمسلمين على فتح مملكة الروم في بلاد الشام.

زار زيدان فلسطين قبل الحرب العالمية الأولى وصدور إعلان بلفور،

وتناول مشكلات اليهود في أوروبا حيث تتفاقم العنصرية ضدهم. وفي أثناء وصفه التفصيلي للقدس كان يعتبر «حائط المبكى»، أو حائط البُراق، جزءًا من هيكل سليمان، مشيرًا إلى وجود آثار في القدس بناها داود وسليمان، وهذا لم يؤكده سابقًا أو لاحقًا أي باحث يعتدُّ به في مجال الآثار. ولدى تناوله المعالم المسيحية في القدس وفلسطين يتحدث عن خصومات أمم وطوائف مسيحية على الحق في رعاية تلك المعالم. وهنا يشير إلى نضال الأرثوذكس العرب لنيل الاستقلال الكنسي عن الأرثوذكس اليونانيين، وهو نضال لم يحقق هدفه حتى أيامنا الحاضرة. ويعتبر زيدان المستعمرات اليهودية الأربعين (حتى وقت رحلته) حكومة يهودية ضمن حكومة عثمانية، ويلاحظ أن اليهود يشكّلون أكثرية سكان القدس، وهم في المدينة المقدّسة كما في سائر المدن والمستعمرات متقدّمون على غيرهم في مظاهر الحضارة، ووصل بهم الأمر الى تدريس العلوم باللغة العبرية التي طوّروها لتستطيع احتواء معارف العصر. ويدمج زيدان النخبة العربية في فلسطين بمثيلاتها في بلاد الشام من حيث نزعة النهضة والتحديث، والاندفاع إلى الهجرة الذي فرضه الواقع الاقتصادي والاجتماعي. ويفنّد أجناس أهل فلسطين عربًا وسوريين ويهودًا، ويقصد بالعرب القبائل التي لا تزال محافظة على أنسابها وعاداتها، وبالسوريين مَنْ تعرَّبَ من سكان فلسطين بعد الإسلام، مع بقايا قبائل عربية نزلت فلسطين عند الفتح أو بعده، وهم طبقتان: الأشراف والمنتسبون إلى بعض الأمراء والحكّام. ويذكر من الأشراف آل الحسيني والسعيد، ومن نسل الأمراء والحكّام آل عبد الهادي وجرار وطوقان. كما يذكر المسيحيين العرب الذين يرجعون بأنسابهم إلى الغساسنة، إلى جانب المستعربين من الإفرنج الذين واصلوا إقامتهم في فلسطين بعد الفتح الإسلامي. ويقسم يهود فلسطين إلى طبقتين: الوطنيون الذين بقوا في بلدهم بعد السبي، واليهود الغرباء الذين عادوا إلى فلسطين، وهم أكثر عددًا ويتكاثرون بفعل الدعوة الصهيونية.

في سياق رحلات زيدان، لابد من الإشارة إلى أنه لم ينشر ملاحظات شخصية دوّنها في دفتر خاص، عن رحلة بحرية رافقه فيها صديقه جبر ضومط (اللغوي المعروف وأستاذ العربية في زمنه) إلى فرنسا وبريطانيا ثم الى مصر، وهما انطلقا في الرحلة من بيروت التي عاد زيدان إليها بعد انتهاء عمله في

السودان، وأتمّ فيها كتابه الفلسفة اللغوية وإصداره. وتجدر الإشارة إلى أن دفتر الملاحظات الشخصية الذي حصل عليه جان دايه ونشره مع مقدمة في كتاب عنوانه جرجي زيدان - يوميات رحلة بحرية صدر عن دار فجر النهضة في بيروت. وهو دفتر صغير، في 55 صفحة مطبوعة. وقد لاحظ داية أنه يتضمن كلمات عاميّة وأغلاطًا في الكتابة، نتيجة العفوية والتعجُّل في التدوين. لكن العامل الشخصي يطغى على تلك المخطوطة بحيث تبدو مناقضة لكتابات زيدان عن رحلاته إلى أوروبا والآستانة وفلسطين.

نعيش مع زيدان وصديقه وقائع رحلتهما وما رأيا من السفينة في أثناء عبورها البحر المتوسط، والبحر الفاصل أوروبا عن جزيرة الإنكليز. ومشاهدات لهما في البلاد التي زاراها، مع تفصيلات طريفة عن مشكلات الانتقال من سفينة إلى أخرى في بورسعيد، وما يتخلل ذلك من وصف حركة الملاحة البحرية عند باب قناة السويس، وهي حركة سريعة اقتضاها وضع مصر حين كانت ملتقى الشرق والغرب، ومقصد نخب شرقية وغربية وجدت فيها ملجأ من أنظمة قامعة أو ثورات. ولبيان حيوية كتابة زيدان عن رحلته هذه إلى مالطا، علاوة على «شخصية» هذه الكتابة، نقتطف المقطع التالي كمثال، ولشيء من المقارنة بأسلوبه في الكتابة عن الرحلات الثلاث الأخرى:

«رأينا الدليل ينتظرنا فذهبنا معه ومشينا هنيهة في الشارع ثم سألناه إذا كان ثمة مكان يستحق الفرجة. قال جنينة خارج البلدة تبعد 4 أميال عنها فإذا شئتما توجهتما إليها في عربة. فاستحسنا أن لا نعود إلى الباخرة قبل أن نشاهدها، فاستأجرنا عربة تأخذنا وتعود بنا، فتوجّهنا إلى هذه الجنينة وإذا هي ليست من الغرابة بشيء إلا عند المالطيين الذين قلما تمتعوا بالجنائن لأن جزيرتهم الى حد ما قاحلة. وهذه الجنينة قد أقامتها الحكومة وجعلتها عمومية مباحة لكل من أراد الدخول إليها، وقد زرع فيها عدد وافر من أشجار الليمون الحامض وبعض أشجار الإكي دنيا وما شاكل. وعدنا إلى المدينة وقد بلغت الشمس الهاجرة، فجلسنا في أحد المحلات العمومية حيث شربنا شيئًا من المشروبات المنعشة كالليمونادة أو ما شاكل، وبعد أن بقينا هناك نحو نصف ساعة لم نعد نستطيع البقاء في البر، فحاولنا

العود إلى الباخرة التي كنا علمنا أنها لن تسافر قبل الساعة الخامسة من مساء ذلك اليوم (الأحد)، أي قبل الغروب بأكثر من ساعتين. فراقبنا الأسواق والشوارع أثناء عودتنا، فلاحظنا، أن الأهالي يحافظون على أيام الآحاد لأن معظم الدكاكين كان مقفلًا (إلا الحانات). ومن الأدلة على تمسكهم بالتقاليد الدينية كونهم أقاموا على زاوية كل شارع من الشوارع العامة تقريبًا تمثالًا منحوتًا لأحد الشهداء أو القديسين. وقد علمنا أن من كان غير مسيحي لا يستطيع السكنى في هذه الجزيرة. وهم يحتقرون الأتراك على الخصوص، ويؤيد ذلك كونهم كثيرًا ما يمثلون أحد قوادهم أو مشاهيرهم دائسًا على عمامة تركية (على ما يزعمون).

وبعد ذلك نزلنا المينا وركبنا القارب قاصدين الباخرة وبعد أن بلغناها ببضع ساعات أقلعت بنا قاصدة جبل طارق. وقد فاتني أن أول شيء عملته في مالطا عند وصولنا إليها إنما هو إرسال التحرير (رسالة) إلى سورية.

وفي مساء هذا اليوم أخذ الطقس في التغيُّر، فما بلغت الساعة العاشرة حتى صرنا نشعر بحركة الباخرة ما ينذر بالانزعاج فهرولتُ أطلب الرقاد. وفي الصباح التالي الاثنين 31 نوار نهضتُ وإذا البحر يزداد تهيُّجًا وصرت أشعر بدوخة خفيفة لم أستطع معها التجوُّل كالعادة فلزمت محلًا واحدًا.

ومرت الباخرة في هذا اليوم على بعض الجزر الصغيرة إحداها تدعى يالطا، ثم مرّت بجانب الساحل الشمالي لأفريقيا واستمرت بجانبه ماخرة مدة بضع ساعات والبحر لا يزال متحركًا كما كان. وعند المساء تغلّب عليّ وجع الرأس وطلبت الفراش عند الغروب وكنت أثناء هذا النهار أخذتُ في كتابة تحرير لوالدي على أمل إمكاني إرساله في بوسطة جبل طارق.

وفي صباح الثلثاء 1 حزيران سنة 86 نهضنا بصحة جيدة لكن رأسي كان لا يزال يؤلمني قليلًا. وعند الظهيرة أو قبلها بقليل ابتدأت جبال (أطلس) في شطوط أفريقيا الشمالية تظهر لنا. وبعد قليل صارت الباخرة تمخر على بضعة أميال منها ونحن ننظر إليها من الصالون. وبقيت هذه الجبال متجلية لدينا حتى الساعة 3 بعد الظهر تقريبًا. وفي صباح 2 حزيران أصبحنا على ريح هادئ والبحر ساكن، فسارت بنا (الباخرة) وهي لا تهتز كأنها قلعة أقيمت على راسخات الجبال. وعند

الظهيرة ظهرت لدينا جبال إسبانيا من جهة الشمال فتوسّمنا قرب الوصول إلى جبل طارق. وكان منظر هذه الجبال على غاية الجمال وهو مشع بالشمس الرقيقة، وقد تبين لنا أنها (الجبال) مؤلفة من سلسلتين الواحدة وراء الأخرى وبعض قممها مكسوّة بالثلج. وما زاد المنظر جمالًا عدد من المراكب بعضها شراعي وبعضها بخاري، كانت تتراءى لنا عن أبعاد مختلفة بين سائر شمالًا وبين سائر جنوبًا، ومنها كان سائرًا غربًا وبعضها شرقًا. كل ذلك كان غاية في الجمال والحسن حتى شخصت أبصار جميع من تأمله وتدبّره، والله عنوان الجمال.

وفي صباح 3 حزيران وصلنا بوغاز جبل طارق وشاهدنا القسم المبنية فيه الحصون الإنكليزية وإذ هو على غاية المناسبة للاستحكامات لأنه داخل في عرض البوغاز، وهو مرتفع وجميعه صخر واحد تقريبًا، وعلى وجهه الجنوبي الغربي قد أقام الإنكليز استحكاماتهم المبنية، وهذا البروز يكوّن مع ما وراءه من البوغاز مرفأ طبيعيًّا على هيئة نصف دائرة وهناك ترسو المراكب. أما استحكامات الإنكليز فكثيرة وعظيمة، فقد أقاموا على رأس هذا البروز قلعة، وجهزوها بما يمكن تجهيزه من الأسلحة والمدافع. وقد خرقوا، أو بالحري جعلوا، في هذا الجبل ثقوبًا عديدة، وجعلوا في كل منها مدفعًا من المدافع العظيمة القدر التي منها ما يبلغ وزنه 200 طن أي 800 قنطار، ووزن قنبلته نحو (طن) أربعة قناطير. والنتيجة أنك لا تلتفت إلى هذا البروز إلا وتراه مرصعًا بالمدافع ونعم الترصيع. أما علوّ هذا البروز فهو 1500 قدم إنكليزي، وقد أقام في هذا الجبل بعض الإسبانيول لكنهم تحت حماية الإنكليز.

رست بنا الباخرة من الصباح إلى الساعة الحادية عشرة قبل الظهر، وعند ذلك أقلعت بنا فدارت جنوبًا حيث خرجت من المرفأ الطبيعي، وسارت غربًا حتى انتهت إلى آخر البوغاز بعد ساعتين تقريبًا ثم انعطفت شمالًا قاصدة جزائر بريطانيا».

* * *

لا يزال معظم مؤلفات جرجي زيدان (1861-1914) متداولًا، وهي لم تدخل متحف النهضة العربية، ولم تنكفئ كمراجع عن مرحلة مضت وانقضت.

وتعمد «دار الهلال» في مصر التي أسسها زيدان وطوّرها ابنه إميل، إلى إعادة طبع تلك المؤلفات، ومعها دور نشر عربية تستجيب أيضًا طلب القرّاء وتستفيد من انقضاء فترة حقوق المؤلف. ولا فارق بين أنواع مؤلفات زيدان في الانتشار، فرواياته عن تاريخ الإسلام تتساوى ومؤلفاته الأخرى في تاريخ الحضارة العربية وفي آدابها وفي لغتها، لكن رحلاته لم تحظ باهتمام الناشرين كغيرها من الأعمال. ومن هنا، أهمية صدور كتاب الرحلات هذا.

زيدان كاتب شعبي، بمعنى الانتشار لا بمعنى قلة المسؤولية، وهو ذو تأثير في الأجيال العربية في القرن العشرين، خصوصًا في نظرته إلى التمدّن الإسلامي وفي رسمه أجواء الاجتماع العربي والإسلامي عبر رواياته التاريخية. ويعود انتشار هذه الروايات إلى أسباب ثلاثة، أولها صلتها بحكايات السمر والليالي عند العرب، وثانيها استجابتها ميل القرّاء إلى الكتابة الروائية بعد أن سقط الشعر العربي عن عرشه كفن أول للقول العربي، وثالثها كون هذه الروايات مقدمة لإلمامة كلية بالتاريخ العربي والإسلامي قد تجذب القارئ إلى التفصيلات في الكتب المختصة. وإذا كانت أعمال زيدان واسعة الانتشار، فإن سيرة حياته قليلة التداول، وهي تختصر بكونه لبنانيًّا متمصّرًا ومنشئًا لمجلة الهلال التي لا تزال تصدر، ومؤلفًا لأعمال مشهودة في البحث وفي الرواية التاريخيين.

خلال الحرب الأهلية اللبنانية لفتني جناح لجرجي زيدان في معرض «كتاب وشظية» الذي نظّمه المجلس الثقافي للبنان الجنوبي في الصالة الزجاجية لوزارة السياحة في بيروت، وكان يضم نماذج مؤلفات أبناء جنوب لبنان. وعرضتُ السؤال على منظّمي المعرض فقالوا إن جرجي زيدان يعود في أصله إلى قرية صغيرة في ضواحي بلدة تبنين في قضاء بنت جبيل. ولم أجد في المراجع المتاحة ولا في كتابات جرجي زيدان عن حياته ما يدعم ذلك إلا قوله «وأما أصل عائلتنا فليس له خبر مدوّن، لأن والدي برح بيت والده مع سائر العائلة أشبه بالهاربين، وهو طفل لا يعرف شيئًا، فلا ندري ما إذا كان لها خبر مدوّن في عين عنوب (قضاء عاليه حاليًا). ونشأ هو في بيروت أمّيًّا فقيرًا، وشغل بإعالة العائلة فلم يهتم بالبحث

عن أصول أرومتنا». ويروي زيدان أن جده هو زيدان يوسف مطر[1] الذي عمل مدبّرًا لأرزاق السيدة حبوس والدة الأمير مصطفى أرسلان في جهات عين عنوب، وأن زيدان هذا امتنع عن مرافقة السيدة حبوس عندما فرّت من وجه إبراهيم بن محمد علي باشا وجيوشه الزاحفة على لبنان، وما لبثت أن عادت إلى بلدتها بعد انسحاب الجيش المصري فانتقمت من زيدان الذي مات قبل أوانه، ورحل أبناؤه، ومنهم والد جرجي زيدان، إلى بيروت.

ولد جرجي زيدان في بيروت في 14 كانون الأول/ديسمبر 1861، أي في «اليوم الذي توفي فيه البرنس ألبرت زوج ملكة الإنكليز حسبما يذكر الوالد». وفي الخامسة أرسله والده إلى مدرسة صغيرة يعلّم فيها معلم منفرد وتقع في قبو واسع يجتمع فيه التلاميذ والتلميذات من صغار الحي، ومكان المدرسة في جوار جامعة القديس يوسف في بيروت. يقول زيدان: «كان القبو أشبه بالزريبة منه بالمدرسة، يجتمع فيه أبناء أهل الحي من سن الرابعة إلى العاشرة، ذكورًا وإناثًا، يجلسون على حصير أو حصر بسطها (المعلم) في أرض القبو ويجلس هو في صدر القاعة على طراحة، وبين يديه صندوق صغير «بشتختة» يضع عليه كتابه ودواته وأقلامه، ويجمع إلى يمينه عدة قضبان تختلف طولًا ودقة، يستخدم كلًّا منها في محله حسب سن الولد وجنسه وبعده منه أو قربه. وأذكر أني كنت أتعلم عنده القراءة في المزامير، وهو أول كتب القراءة يومئذ بعد الهجاء، فكنا نحفظ المزمور من كثرة تكرار قراءته ونحن لا نفهمه». والمدرسة الأولى لزيدان تستدعي إلى الذاكرة صورة الكتّاب كمدرسة أولى تقليدية في مصر، أجاد في وصفها طه حسين في كتابه الأيام.

انتقل زيدان بعد ذلك إلى مدرسة المعلم ظاهر خير الله الشويري حيث تعلم العربية والفرنسية والحساب، وأنهى دراسته الابتدائية وهو في الحادية عشرة. عند ذلك أصرّ والده على أن ينصرف إلى العمل، وأرسله إلى أحد الإسكافيين ليتعلم صناعة الأحذية، فأمضى سنتين حتى اعتلّت صحّته، فترك الإسكافي ليساعد أباه في المطعم الذي يملكه. وفي تلك الفترة تعرّف إلى أحد الزبائن وهو المعلم

---

(1) الراجح أن جرجي زيدان يعود في أصوله إلى آل مطر في حوران (م).

مسعود الطويل صاحب مدرسة ليلية تُعلّم الإنكليزية، فصادقه وتردد إلى المدرسة وأجهد نفسه حتى تعلّم الإنكليزية وهو في الخامسة عشرة وشرع يبحث عن طريقة لإكمال دروسه، فدرس على نفسه وحضّر لامتحان الدخول إلى كلية الطب في الكلية السورية الإنجيلية (الجامعة الأميركية في بيروت حاليًّا)، فكان له النجاح في عام 1881، كما نجح لاحقًا في امتحانات نهاية السنة الأولى.

هذا الطالب العصامي لم تمنعه عذابات الفقر من التمسك بالمبادئ القويمة وفي طليعتها حرية الفكر والمعتقد؛ ففي السنة الثانية من دراسته في كلية الطب طُرد مع مجموعة من زملائه لأنهم أضربوا احتجاجًا على إقصاء أحد الأساتذة، وهو الدكتور إدوين لويس، وكانت التُّهمة الموجهة إليه تعريف طلابه إلى نظرية داروين في النشوء والارتقاء التي تتعارض مع التوجهات الإنجيلية للقيّمين على الكلية السورية الإنجيلية. واللافت أن أحد أعمدة الكلية، الدكتور كورنيلوس فاندايك، استقال من الكلية التي شارك في تأسيسها تضامنًا مع حرية التعليم. وكان الطرد مفترقًا في حياة جرجي زيدان الذي سافر إلى مصر محاولًا الانتساب إلى كلية طب القصر العيني في القاهرة، فلم يتح له ذلك لأنه لم يحصل على منحة، ولم يمتلك مالًا لدفع الأقساط وتكلفة العيش، وبدلًا من ذلك انتسب إلى الماسونية.

انصرف زيدان في مصر عن تحصيل العلوم الطبية ليتولى تحرير جريدة الزمان، ثم التحق بالحملة الإنكليزية على السودان في عام 1884 مترجمًا، فجمع بعض المال وعاد إلى بيروت حيث تابع دروسًا في اللغات القديمة ووضع كتابه الفلسفة اللغوية. ومن بيروت سافر إلى فرنسا وإنكلترا ثم استقر في مصر محررًا في المقتطف، وواضعًا مجموعة من المؤلفات أبرزها تاريخ مصر الحديث ومختصر تاريخ ممالك آسيا وأفريقيا وتاريخ الماسونية، وتولى إدارة التدريس في المدرسة العبيدية في القاهرة حتى إصداره مجلة الهلال في عام 1892.

دعا زيدان إلى إنشاء جامعة مصرية، ولقيت دعوته صدى إيجابيًّا خلافًا لآراء كانت ترى أن التعليم الجامعي يجب أن يقتر على أوروبا. وألّف مصطفى كامل لجنة لتأسيس الجامعة اجتمعت في منزل سعد زغلول، واستمرّت في جهدها حتى افتتحت الجامعة المصرية رسميًّا في 21 كانون الأول/ديسمبر 1908، وورد في

برامجها التعليمية تدريس كتابين لزيدان هما تاريخ التمدُّن الإسلامي وتاريخ آداب اللغة العربية. وقد حال المحافظون المتشدّدون آنذاك دون أن يدرّس زيدان مادة كتابيه في الجامعة، لأنه غير مسلم، لكنهم وافقوا لاحقًا على التعاقد مع مستشرقين غير مسلمين للتدريس في الجامعة نفسها، وفي هذا الأمر مفارقة.

أمضى زيدان بين عامي 1892 و1914 ما تبقى من عمره مُكبًّا على تحرير الهلال وعلى تصانيفه التي نشرتها دار الهلال ومطبعتها، وكان يعمل بصمت ويراكم معرفة وإنتاجًا يصلان إلى القراء في ديار العرب والعالم، وابتعد عن تفصيلات السياسة اليومية التي تداولها الصحافيون اللبنانيون المتمصّرون، فقد اكتفى بصحافة المعرفة التي يعتبرها سبيلًا أساسًا إلى النهضة والتحرر من نير الأجنبي، وهو القائل: «إن الامتيازات الأجنبية كانت ضربة على البلاد المشرقية، إذ مدت الدول الغربية يدها بسبب تلك المعاهدات وراحت تعمل على تمزيق ثوب الدولة العثمانية بطريقة خفية وذكية، وهذه الامتيازات بدأت بعد الحملات الصليبية، وغايتها المبدئية تسهيل أعمال الأجانب في الشرق. وأقدمها كان في عهد السلطان محمد الفاتح عام 1454 بعد فتح القسطنطينية بسنة واحدة، ثم ازدادت توسعًا. وتشكلت في البلاد المحاكم المختلطة ابتداء من سنة 1876 لإفادة الأجانب فقط، وهي مجحفة بحق أبناء البلاد وبحق البلاد معًا من كل الجهات، لا سيما لإعفائها الأجانب من الضرائب». وحذّر زيدان مبكرًا من نمو المستعمرات اليهودية في فلسطين داعيًا إلى وقف بيع اليهود الأراضي، كما نبّه إلى مساوئ التعصب الديني في لبنان مؤكدًا أهمية جمع الكلمة ونبذ سيادة رجال الدين، لكنه كان يائسًا من إمكان تخلي اللبنانيين عن أمراء طوائفهم.

ترك جرجي زيدان، على الرغم من عمره القصير (53 سنة) عددًا كبيرًا من المؤلفات، إضافة إلى إصداره مجلة الهلال شهريًّا ما يزيد على عقدين من السنين. ويمكن تقسيم مؤلفاته إلى قسمين: الأبحاث ثم الروايات التاريخية.
الأبحاث هي: تاريخ العرب قبل الإسلام، طبقات الأمم، تاريخ التمدُّن الإسلامي (3 أجزاء)، تاريخ آداب اللغة العربية (4 أجزاء)، ثم اختصره في جزء واحد، مشاهير الشرق (جزءان)، تاريخ الماسونية العام، علم الفراسة الحديث،

ومقـالات جُمعـت بعـد وفـاة زيـدان في فـترات متفاوتـة[2]. الألفـاظ العربيـة والفلسـفة اللغويـة، اللغـة العربيـة كائـن حـي، أنسـاب العـرب القدمـاء، عجائـب الخلـق.

أما روايات زيدان التاريخية فعددها 22، وله أيضًا رواية غير تاريخية عنوانها جهاد المحبين نشرها في عام 1893. وأولى رواياته التاريخية هي المملوك الشارد نُشرت في عام 1891 في أثناء إدارته المدرسة العبيدية في القاهرة وقبل إصداره مجلة الهلال، وآخر رواية هي شجرة الدر الصادرة قبل وفاته بأشهر. إذًا، فإن تسلسل كتابة زيدان للروايات التاريخية لا يتعلق بتسلسل المراحل التي تتناولها، ولكن، مع صدور شجرة الدر اكتمل مشروعه في كتابة سلسلة روايات تاريخ الإسلام منذ دعوة النبي محمد (فتاة غسان) حتى الانقلاب على السلطان عبد الحميد (الانقلاب العثماني). وفي إطار غير متسلسل ألّف زيدان ونشر الروايات التالية في تاريخ الإسلام: محمد علي (1901)، استبداد المماليك (1893)، المملوك الشارد (1891)، أسير المهتدي (1893).

نُشر معظم رواياته حلقات في مجلة الهلال. يقول زيدان في مقدمة رواية أبو مسلم الخراساني: «ألفنا رواية أرمانوسة المصرية سنة 1895 ولاح لنا أن ننشرها ملحقة بـ الهلال على سبيل التجربة بأهلة السنة الرابعة. ولبثنا نترقب ما يكون من وقعها عند المطالعين. فرأينا من إقبالهم على الهلال في تلك السنة ما لم نعهده من قبل. ولم نبلغ منتصف تلك السنة حتى تضاعف عدد المشتركين ونفد ما كنا ادخرناه من أعداد الهلال للمجموعات في المستقبل... ناهيك بما جاءنا من كتب الأدباء يستحسنون هذه الخطة، ويحرضوننا على نشر الروايات التاريخية الإسلامية في الهلال. واقترح علينا أحد الأصدقاء أن نجعل تلك الروايات متسلسلة من أول ظهور الإسلام، فننشر التاريخ الإسلامي في روايات غرامية تشويقًا للمطالعين على نحو ما فعلناه في رواية أرمانوسة، فاستحسنّا هذا الرأي وعزمنا على العمل به. وبما أن رواية أرمانوسة المذكورة تشتمل على فتح مصر فهي لا تصلح أن تكون الحلقة الأولى من تلك السلسلة، فجعلناها الثانية،

(2) جاء في تقديم المجموعة الأولى: «هذه مجموعات مقالات لمؤسس الهلال رحمه الله تبحث في موضوعات اجتماعية وعمرانية وأدبية وأخلاقية تلذ مطالعتها لكل قارئ. وقد اختار هذه المقالات مؤسس الهلال نفسه، وكان عازمًا على إصدارها في كتاب فعاجلته المنية قبل أن يُتاح له ذلك».

وألفنا رواية فتاة غسان، ضمنّاها ظهور الإسلام وفتوح العراق والشام، وجعلناها الحلقة الأولى، ثم ألّفنا رواية عذراء قُريش وجعلناها الحلقة الثالثة من الخطة التي وضعناها لمجلة الهلال».

مع هذه الروايات تكرّس جرجي زيدان عَلَمًا في القصة التاريخية العربية الحديثة وأفسح في المجال لمحاولات تلته، خصوصًا عند كرم ملحم كرم (مؤلف دمعة يزيد، وصقر قريش) ونجيب محفوظ (في أعماله الأولى رادوبيس وعبث الأقدار وكفاح طيبة). لكن زيدان لم يكن أول من كتب القصة التاريخية في عصر النهضة إذ يُجمع الدارسون على أن سليم البستاني ابن المعلم بطرس البستاني هو الرائد في هذا المجال، فقد نشر ثلاث روايات تاريخية هي زنوبيا، بدور، الهيام في فتوح الشام. وكانت الأولى نُشرت مسلسلة في مجلته الجنان في عام 1871 وتدور حول الصراع بين ملكة تدمر والإمبراطورية الرومانية في القرن الثالث للميلاد، والرواية الثانية نُشرت في عام 1872 وموضوعها الحب بين عبد الرحمن الداخل وابنة عمه الأميرة الأموية بدور، والثالثة نُشرت سنة 1874 وتدور حول فتح المسلمين بلاد الشام.

كتب مصطفى لطفي المنفلوطي واصفًا شخصية زيدان: «كان خير ما يعجبني منه ترفّعه عن مجاراة المتكبّرين وتنزّله في كثير من مواقفه إلى منازل العامة ليحدّثهم بما يفهمون، لأنه كان من كتّاب المعاني لا من كتّاب الألفاظ، ولأنه كان يؤثر أن يتعلّم منه الجاهلون على أن يرضى عنه المتحذلقون». وعن جرجي زيدان صحافيًّا قال يوسف الخازن: «المزايا الصحافية التي امتاز بها زيدان وكانت السبب في هذا النجاح الباهر هي حسن الإدارة واختيار المباحث وسهولة الإنشاء. والإدارة تنطوي تحتها أمور كثيرة مادية وأدبية كضبط المواعيد وحسن الطباعة وإتقان الوجه التجاري وحفظ النسبة اللازمة بين واجبات الصحافي وأميال [ميول] الجمهور، فلا يجاريها مجاراة عمياء ولا يصدمها صدمة تبعد القراء عنه وتورثهم النفور. وتاريخ الهلال يدلُّكَ على أنه برع في هذا الوجه، فإن الهلال ما تأخر يومًا عن ميعاده ولا جاء سقيمًا في حروفه أو رثًا في ورقه، ولا وقع بينه وبين الرأي العام نفور، مع وعورة بعض المسالك التي سلكها ومحاولة بعض ذوي المآرب إيغار الصدور عليه».

في 22 تموز/يوليو 1914 توفِّيَ زيدان، قبيل منتصف الليل، واعتُبرت الوفاة مفاجأة إذ لم يسبقها مرض أو علامة، وكان لها وقع لدى المثقفين العرب فرثاه أدباء وشعراء في مصر ولبنان والمهجر، فقال فيه أحمد شوقي:

زيدان إني مع الدنيا كعهدك بـــي ... رضى الصديــق مقيل الحــاسد الـقالــي

وإن لقيت ابن انثــى لي عليه يــد ... جـحدت فـي جنب فضــل الله أفضالـــي

رثيتُ قبلك أحبابـًا فُجعـــتُ بهـــم ... ورحـــت مـــن فــرقة الأحــباب يُرثى لي

وماعلمت رفــيقًـا غيــر مؤتمـــــن ... كالموت للـــمرء فـــي حــلّ وتـــرحال

وقال خليل مطران:

لـحقتَ بـــمن أرختــَهم فكـأنكم ... لدات لـعهد لم تـفــرقـه أدهـــــرُ

لقد بتَّ منهم في المقام الذي بـه ... إذا ذكر الأفـــراد في الـخلق تــذكرُ

وقال حافظ إبراهيم راثيًا ومعتذرًا:

وفـي ذمـتـي لليـازجـي وديـعةٌ وأخـرى ... لـــزيـدان وقـــــد سبقـــــاني

فيا ليت شعري ما يقولان فـــي الــثـــرى ... إذا الـتقـيـا يـــومًـا وقـــد ذكــراني

وقد رميـا بالطـرف بيـــن جـــموعكـم ... ولم يــشهدا فــي المـشهدين مكــاني

أَيـجمـل بـي هــذا العـــقـوق وإنـــما ... على غـير هـذا العــهد قــد عــرفاني

وقال إيليا أبو ماضي:

ليبـكِ عليـك المــسلـمون فإنـــهـم ... أضـاعوا بـك محيي العـــصور الـــدواثرِ

وتبكِ النصارى فخـــرَها وعمـــيدها ... فمــا بعـــدك مـــن حجّـة لمفـاخـرِ

محمد علي فرحات

بيروت في 10 تموز/يوليو 2015

الرحلة إلى الآستانة

1909

الآستانة العليّة[1]

كثر اهتمام الناس بالآستانة وأحوالها على أثر الانقلاب العثماني وأفاضت الصحف في ذلك على اختلاف أغراضها وأحوالها وكان لـ الهلال نصيب من ذلك في سنته الماضية، فذكرنا تاريخ ذلك الانقلاب وما تقدّمه وما نتج عنه. ثم رأينا القول في ذلك لا يكون وافيًا إن لم نر مقر ذلك الانقلاب ونشاهد رجاله وندرس أحوالهم فرحلنا إلى الآستانة في أثناء عطلة الهلال» قضينا فيها بضعة أسابيع تفقدنا بها آثارها وتعرفنا إلى خيرة رجالها ودرسنا أحوالها الاجتماعية والأدبية والسياسية. ونحن باسطون في ما يلي خلاصة ما علمناه بعد الدرس والاختبار.

ونقسم الكلام في ذلك إلى أقسام:

1- موقع الآستانة الجغرافي

2- مناظرها الطبيعية.

3- آثارها التاريخية.

4- مشاهدها وقصورها.

5- متاحفها ومعارضها.

6- حالتها الاجتماعية.

(1) نشرت رحلات جرجي زيدان إلى الآستانة على حلقات في مجلة الهلال الشهرية خلال عامي 1909 و1910.

7- حالتها العلمية والأدبية.

8- حالتها السياسية. فنقول:

1- موقعها الجغرافي

الآستانة وهي القسطنطينية مدينة قسطنطين الكبيرة وكانت قبله تسمى بيزانطية فسماها باسمه وجعلها سنة 330م كرسي المملكة الرومانية الشرقية أو مملكة الروم في اصطلاح العرب. وقد خصها الله بموقع طبيعي لا مثيل له على سطح هذه الكرة لأنها موصلة بين القارتين ووسط بين البحرين تمنعها المضائق وتصونها البواغيز. وتقسم إلى الآستانة المدينة الكبرى وإلى الضواحي.

والآستانة ثلاثة أقسام اثنان في أوربا [أوروبا] والثالث في آسيا، كلها تتجاذب للمعانقة فتحول بينها المياه. أو هي ثلاث مدن برية تفصل بينها ثلاثة أبحر، فالأقسام البرية هي إستامبول في الجنوب، وبك أوغلي أو بيرا في الشمال، وكلاهما في أوربا، واسكودار في الشرق وهي في آسيا، يفصل بينها البوسفور في الشمال الشرقي ومرمرا أو الدردنيل في الجنوب وقرن الذهب في الغرب الشمالي - تلك هي أقسامها اليوم.

أما في زمن الروم فلم يكن عامرًا منها إلا إستامبول، وهي البلد الذي فتحه العثمانيون وجعلوه مقر حكومتهم ولا تزال إلى الآن مقر رجال الدولة، فيها أبنية الحكومة والجوامع والمساجد والمدارس، وهي تعد إسلامية لأن أكثر سكانها من المسلمين ولذلك فأكثر الآثار التاريخية فيها. وكانت بيرا عند الفتح ضاحية يقيم فيها بعض الأجانب إذا نزلوا الآستانة، ثم عمرت فصارت بلدًا أكثر سكانه من الإفرنج ونحوهم. ووصل بين إستامبول وبيرا جسران، أحدهما جسر غلطه القديم وهو أقربهما إلى البوسفور، وثانيهما الجسر الجديد إلى غربيّه.

أما اسكودار فإنها بلد إسلامي تركي يتفاءل به الأتراك خيرًا لأنهم نزلوه قبل الفتح ومنه انتقلوا إلى أوربا ومدوا سلطانهم فيها. ونختص إستامبول بالوصف هنا لأنها تشتمل على أهم المشاهد والآثار التي سيدور الكلام عليها في ما يلي:

إستامبول

هي مثلثة الشكل رأسها في الشرق وقاعدتها في الغرب يحدها قرن الذهب من الشمال الشرقي وبحر مرمرا من الجنوب وقاعدتها سورٌ موصل بين المائل بما يشبه مدينة الخرطوم. ومما يهمنا ذكره من أجزائها السور القديم فإنه يبتدئ في الشمال بإيوان سراي وينتهي في الجنوب بالأبراج السبعة، وسيأتي ذكره.

وترى في طرف إستامبول من الشرق بناءً يسمى ضربخانة وبجانبه كانت سراي إمبراطور الروم وإلى غربيها جامع أيا صوفيا وكان قبل الفتح كنيسة على اسم القديسة صوفيا. وترى خارج السور في الشمال الغربي مكانًا اسمه أيوب، أصله قبر [أبي] أيوب الأنصاري الذي قتل في حصار القسطنطينية على عهد بني أمية، لأن العرب ما فتئوا منذ الإسلام يحاولون إخراج الروم من القسطنطينية كما أخرجوهم من العراق والشام ومصر، وأول من باشر ذلك منهم معاوية بن أبي سفيان في خلافة عثمان بن عفان ثم حاصرها يزيد بن معاوية وكان في جملة المحاصِرين أبو أيوب الأنصاري كما سيأتي، ثم حاصرها غيره وغيره من قواد المسلمين ولم يفز بفتحها إلا العثمانيون، ففتحها السلطان محمد الثاني سنة 1453م، وقد فَصّلنا ذلك في السنة السادسة من الهلال.

ضواحي الآستانة

أهم ضواحيها واقع على شاطئ البحر وهي قسمان: شمالي وجنوبي. والشمالي على ضفاف البوسفور، والجنوبي في جنوبيها مما يطول شرحه فنقدم أهمها وهو البوسفور.

البوسفور: يمتد من الآستانة شمالًا إلى البحر الأسود على مسافة 27 كيلومترًا فهو موصل بين البحر الأسود في الشمال وبحر الدردنيل في الجنوب، وعرضه عند مدخله نحو كيلومتر ونصف، وأضيق المسافات فيه عند روملي حصار وأناطول حصار نحو 500 متر، وأوسعها عند بيوك دره فإن المسافة بين الشاطئين هناك 3.500 متر. وهو عبارة عن قرى متقاربة تمتد على ضفتي البوسفور شرقًا وغربًا.

وهذه أسماء القرى بعد الآستانة شمالًا إلى البحر الأسود على الشاطئين:

على شاطئ أوربا	على شاطئ آسيا
قباطاش	كوسكنجق
بشكطاش	كوشك جاملجه
أورته كوي	بكلربكي كوي
كور چشمه	چنكل كوي
ارناوط كوي	واني كوي
ببك	قنديللي
روملي حصار	أناطول حصار
بوياجي كوي	قانلجة
أميرجيان	چبوقلي
ستانيا	باشا بغچه
بكي كوي	انجير كوي
طرابيا - كيريج بورنو	بيكوس
بيوك دره	يالي كوي
مزار بورنو أوصاري ير	بك قوز
بكي محله	أناطول قواق
روملي قواق	

أما في الجنوب فهناك عدة قرى، بعضها على شاطئ أوربا وراء سور إستامبول والبعض الآخر على شاطئ آسيا بعد اسكودار. وهذه أشهرها على شاطئ إستامبول وعلى شاطئ آسيا بعد اسكودار:

على شاطئ أوربا	على شاطئ آسيا
قوم قبو	حيدر باشا
يكي قبو	قاضي كوي
بساماتا	مودا
ماقري كوي	فنربورنو
سان ستفانو	مال تبه

ووراء هذه القرى بضع جزر تعرف بجزر الأمراء أشهرها برنكبو وخالكي، وهناك خط آخر بحريٌّ تكتنفه القرى على الجانبين، نعني خليج قرن الذهب، وهو يعدُّ من الآستانة نفسها وليس من ضواحيها. طول هذا الخليج نحو 11 كيلومترًا ومتوسط عرضه نحو 400 متر ويختلف عمقه بين مترين و40 مترًا، والمحطات على ضفتيه متقاربة بعضها من جهة بيرا والبعض الآخر من جهة إستامبول. وهذه أهمها:

من جهة إستامبول	من جهة بيرا
جوبالي	غلطه
أياقبو	قاسم باشا
الفنار	اينالي قواق
بلاطه	خاص كوي
إيوان سراي	بيري باشا
أيوب	خليجي أوغلو

وينتهي قرن الذهب في طرفه الغربي بمحلة تعرف بالكاغدخانة هي من أجمل منتزهات الآستانة. ويقدرون سكان الآستانة وضواحيها بنحو 1.200.000 نفس، ونظنهم أكثر من ذلك.

2- مناظرها الطبيعية

يعلم القارئ مما تقدم أن الآستانة كثيرة الشواطئ، وربما زاد طول هذه الشواطئ فيها على مائة وخمسين كيلومترًا يدخل فيها ضفاف البوسفور وشواطئ قرن الذهب والدردنيل والجزائر. وجميع هذه الشواطئ عامرة بالقصور والبساتين والفنادق، لأنها عبارة عن قرى متواصلة العمارة - وأن البلد ليكون فيه كيلومتران أو بضعة كيلومترات من الشاطئ فيقيم أهله عليه الأبنية الفخيمة ويعدون ذلك نعمة عليهم، فكيف ببلد فيه 150 كيلومترًا من الشواطئ الآهلة؟

ثم إن هذه الشواطئ عبارة عن سلسلة تلال أو هضاب بينها الأودية. حتى الآستانة نفسها فإنها مؤلفة من هضاب تكسوها القصور والجوامع والشوارع، إذا أطلَّ عليها القادم بالبحر رأى تلك الأبنية تتدرَّج صعودًا من الشاطئ إلى قمم الهضاب، وتتخللها الحدائق، فإستامبول مثلًا مؤلّفة من سبع هضاب متصلة العمارة ممتدَّة على شاطئ قرن الذهب لا تظهر جليًّا إلا للمتأمل:

أولها: تشرف على الدردنيل وعليها الآن بناية الطوبخانة والسراي القديمة (طوب قبو) وجامع أيا صوفيا، وجامع السلطان أحمد.

وعلى الهضبة الثانية: جامع نوري عثمانية.

وعلى الثالثة: سراي السر عسكرية، وجامع السلطان سليمان أو السليمانية.

وعلى الرابعة: جامع السلطان محمد الفاتح أو المحمدية.

وعلى الخامسة: جامع السلطان سليم أو السليمية، وحي الأروام المعروف بالفنار وفيه بطركخانة الروم.

وعلى السادسة: أبنية سراي تكفور عند محطة بلاطه.

وعلى السابعة: جامع أيوب وغيره.

وبين هذه الأبنية البارزة القصور والمنازل والأسواق والبساتين وغيرها متلاصقة أو متقاربة تظهر للناظر إليها من البحر كأنها معرض منضد بعضه فوق بعض بشكل أمفيتياتر [صالة متدرجة المقاعد].

واعتبرْ ذلك ببيرا تجاه إستامبول على قرن الذهب، فإنها مؤلّفة من تلال متقاربة، وهكذا أيضًا ضفتا البوسفور وشواطئ الدردنيل فإنها عبارة عن تلال متحاذية على الشاطئ يختلف طول قاعدة كل منها من نصف كيلومتر إلى كيلومترين أو أكثر أو أقل، وعلوها من مائة متر إلى ألف متر. أجملها على ضفاف البوسفور، فإنك ترى القرية من قراها أشبه بمعرض من الخمائل والقصور تتدرَّج بعضها وراءَ بعض من الشاطئ إلى قمة التل، وبينها بساتين بعضها مع الشجر القديم كالسنديان والصنوبر والدلب ونحوها، تقادم عهدها وأهملها الإنسان فنمت على الفطرة بلا تعهد ولا تقليم فتشبكت أغصانها وتعانقت أفنانها ثم جاء الإنسان فابتنى بينها قصورًا متفرقة أو بيوتًا صغيرة من الخشب سقوفها من القرميد، وإنما عمدوا إلى الخشب دون الحجر لأنه أقل كلفة وأبعد عن خطر الزلازل فوقعوا بذلك في خطر الحريق.

فالمتوغل في البوسفور على الباخرة يرى أنه في بحيرة تحيط بها الهضاب المكسوة بالخمائل والحدائق بينها الأبنية مختلفة الألوان والأشكال مما يشرح الصدر ويطلق عنان الخيال.

وأجمل ما شاهدناه من مناظرها قبيل الغروب انعكاس أشعة الشمس على زجاج النوافذ من منازل الشاطئ الآسيوي لامعة تبهر النظر كأنها منعكسة عن ألماس ترصعت به تلك المنازل، ثم احمرت فخيل لنا أن النار شبت في الغرف حتى كاد لسان لهيبها يندلع من الشبابيك، مما يستوقف النظر، فإذا غربت الشمس وخيم الظلام ارتسمت السماء على صفحات الماء. والجالس في أي منزل من منازل تلك القرى، سواء كان على الشاطئ قرب الماء أو في سفح الهضبة أو على قمتها، فإنه يشرف على المياه والبواخر تسبح فيها ويرى وراءها التلال المكسوة بالأشجار والأبنية.

ذلك شأن ضفاف البوسفور وغيرها من شواطئ الآستانة وضواحيها. وإذا أوغلت في البر وراءها لا يقع نظرك إلا على وادٍ خصيب أو غابة غضة أو جبل مكسوّ بالأشجار الكثيفة، بينها ينابيع باردة مثل ينابيع لبنان تجري صافية كالزلال. وقد أقيمت هناك أماكن النزهة يقصدها الناس يقضون عندها الساعات والأيام كما يفعل المصطافون بلبنان في خروجهم إلى الينابيع المشهورة كعين الرمانة وعين حمانا ونبع العسل ونبع اللبن وغيرها، وإن كانت هذه أشد برودة من ينابيع الآستانة

إلا أن هذه أجمل منظرًا وأكثر خضرة لأن معظمها يجري في جبال تكسوها أشجار هائلة الكبر، قد تعانقت أغصانها وتكاثفت أوراقها حتى تحجب أشعة الشمس، لكنها لا تضيق الصدر لأنها عالية وبين جذوعها منفرجات. وقد تعاظم جرمها لقدم عهدها ويندر أن تكون للإنسان يد في إصلاحها. وهذه الينابيع كثيرة بعضها في شاطئ الأناطول والبعض الآخر في جهات الروملي. وأشهر المياه في الروملي نبع الكاغدخانة في آخر قرن الذهب وهو منتزه جميل عبارة عن عشرات من الأفدنة مكسوة بالأشجار والأعشاب، وتجري فيها المياه فيقصدها الناس زرافات ووحدانًا في فصل الربيع. وچرچر صو نبع كثير الشبه بموقعه وبرودته بعين الرمانة بلبنان.

وبالقرب منه نبع خونكار (خونكار صو) وهو أعلى كثيرًا من چرچر لا يمكن الصعود إليه بالمركبات ويصعب تسلقه على الدواب. ماؤُه بارد ولذيذ، ذكرنا بعين حمانا في عيناب لكنه أكثر خضرة وشجرًا، وقس عليه كستنه صو في ذلك الجوار وماء فلوريا وراء سان ستفانو وغيرهما.

ومن الينابيع المشهورة في شاطئ آسيا (كوك صو) وقد وصفها شوقي بقصيدته التي مطلعها «تحية شاعر يا ماءَ جكسو»، ومنها عين وراء اسكودار يحملون منها الماء بالبراميل إلى الأطراف يبيعونها، وهم يحملون الماء على هذه الصورة من سائر الينابيع.

وتسهيلًا للتمتع بالطبيعة والانتقال بين الشواطئ تألفت في الآستانة شركتان للبواخر، إحداهما الشركة الخيرية تنقل الناس بين الآستانة وضفاف البوسفور، والأخرى اسمها الشركة المخصوصة تمخر في قرن الذهب والدردنيل إلى جزائر الأمراء. تحمل السفينة مائة إنسان أو أكثر تنقلهم بين المدينة والقرى أو بين القرى بعضها إلى بعض، وبينها سفن تنقل المركبات بخيولها فتقترب من الشاطئ ولها باب واسع تدخل فيه المركبة وقد تسع ثلاث مركبات أو أكثر بخيولها وتنقلها بين الشواطئ. تخترق تلك السفن البحر هادئة والهواء يهب عليلًا والعين تتمتع بمنظر الشواطئ على ما قدمناه، ومهما يكن من حرارة الطقس في أشد أيام الحر فإن البوسفور لا يبرح هواؤه منعشًا، وتفضل الصيفية [الاصطياف] فيه على معظم مصائف العالم.

فترى أن الطبيعة وهبت الآستانة وضواحيها هبات يعز مثالها في مشارق الأرض ومغاربها ولكن الإنسان لم يحسن استخدام تلك الهبة، فبين [فبينما] ترى منازل الآستانة متراصة بعضها وراء بعض تشرف على البحر وعلى ما جاورها من المنازل، ترى شوارع المدينة ودروبها تكاد تكون خرابًا لتقلقل بلاطها وقلة العناية في إصلاحها فضلًا عن ضيقها. كأن حكام العصر الماضي لم يكن يهمهم إلا ما يخصهم أو يؤول إلى منافعهم الشخصية، لأنك ترى منازلهم على أتم نظام وحدائقهم على أجمل ترتيب يتعهدون أشجارها بالمقراض على أحسن هندام ويرصفون الطرق بين المساكب بالحصى الملوَّنة على شكل الفسيفساء. وكانوا ينفقون الملايين على بناء منازلهم ومنتزهاتهم ويضنون بالقروش على الأماكن العمومية. ولكن الآمال معقودة بالحكومة الدستورية أن تعوّض ما فات.

3- آثارها التاريخية

إن أكثر آثار الآستانة التاريخية في إستامبول، وأهمها المساجد وهي عديدة يزيد عددها على 480 جامعًا، منها 89 كانت كنائس حوّلها العثمانيون بعد الفتح إلى مساجد، أشهرها جامع أيا صوفيا الواقع على الهضبة الأولى من هضاب إستامبول.

كان هذا الجامع قبل الفتح كنيسة باسم القديسة صوفيا، بناها قسطنطين الكبير سنة 360م ووسعها ابنه قونستانس واحترق بعضها سنة 404م على عهد أركاديوس ورممها ثيودسيوس، ثم احترقت برمتها على زمن يوستنيان الأول فأعاد بناءها ثانية على الشكل الباقي إلى اليوم. وبذل يوستنيان جهده في جعلها أجمل كنيسة في عصره، فلم يدَّخر وسعًا في تذهيبها وانتقاء أحسن الأساطين من الرخام وغيره، حملوا إليه بعضها من رومية والبعض الآخر من أفسس وغيرهما، وفيها أساطين من أنقاض الهياكل الوثنية القديمة في أثينا وبعلبك وديلوس ومصر. وقد تولى يوستنيان مراقبة البناء بنفسه وكان يكافئ العملة [العمال] بما ينهض هممهم ويستحث قرائحهم. واصطنع قراميد القبة في رودس من تراب خفيف جدًّا، فلم تكن تزن القرميدة منه عشر قرميدة من سواه وقد طبع على كل قرميدة هذه العبارة باليونانية «الله أسسها وهو يعينها».

وبلغت النفقات عليها قبل أن يرتفع البناء مترًا واحدًا عن الأرض 452 قنطارًا من الذهب. وفرغ من البناء سنة 548م بعد قضاء 16 سنة في إتمامه، فاحتفل الإمبراطور بتدشينه احتفالًا شائقًا فرَّق فيه الأعطية والحسنات أربعة عشر يومًا وقال يومئذٍ: «المجد لله لأنه جعلني أهلًا لإتمام هذا العمل العظيم فقد غلبتك يا سليمان».

فلما فتح العثمانيون الآستانة سنة 1453 دخلها محمد الفاتح على جواده حتى إذا بلغ هذه الكنيسة وطئ صحنها ووحَّد، فصارت معبدًا للمسلمين من ذلك الحين، وبنى فيها منارة وبنى غيره بعده سائر المنائر فصارت أربعًا. ولو أردنا وصف هذا الجامع لاستغرق ذلك شرحًا كبيرًا يضيق هذا المكان عنه فنقتصر على خلاصته، وذلك أن مساحته 76 مترًا في 70، فهو مربع تقريبًا، وعلى قمته قبة عالية قطر دائرتها 32 مترًا وارتفاعها عن الأرض 65 مترًا، وفيها 40 نافذة، والقبة قائمة على أربعة أقواس كبيرة مرتكزة على أعمدة ضخمة، بعضها مطوق بالحديد خوفًا من تشققه بينها أربعة أعمدة مجلوبة في الأصل من أفسس وثمانية أخرى من بعلبك، وأخرى من مصر. وجملة الأعمدة نحو 107 أعمدة من الرخام الملوّن عليها تيجانها مزخرفة بالنقوش.

وكان على جدران المسجد وهو كنيسة صور لبعض القديسين أو الملائكة، وقد محوا بعضها وغطوا البعض الآخر بستائر عليها آيات مطرّزة. وهناك صورة كروبين لم يبقَ ظاهرًا منها إلا الأجنحة وقد تغطت الرؤوس بالستارة. وجدران الجامع مصفحة بالمرمر والرخام، وعلى باطن القبة الكبرى كتابة بالذهب طول الحرف منها تسعة أمتار، تبدأ بالآية ﴿بسم الله الرحمن الرحيم اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، ويتدلى من القبة ثريا كبيرة فيها المصابيح الكثيرة. وقد صُدِّرَ الجامع بالمحراب، وقد نقش بالذهب في أعلاه آيات تنقش في أكثر المساجد مع تغيير قليل، ففي المحراب ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾، وتحت «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّه أَحَدا﴾، ثم ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، ثم: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾، وبين يدي المحراب شمعتان ضخمتان على قواعد ثابتة. وإلى جانبي المحراب من الأعلى

«الله» «محمد»، ووراءَ ذلك أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ والحسن والحسين، وإلى يسار المحراب المقصورة التي كان السلاطين يقفون فيها للصلاة، وإلى اليمين المنبر، يصعد إليه بسلم مذهب. وللجامع مكتبة نفيسة.

وبجواره مدفن السلطان سليم الثاني وأولاده، قتلهم مراد الثاني لما تولى الملك. وقبور مراد هذا و19 من أولاده، قتلهم أخوهم محمد الثالث لمَّا تولى.

جامع القعرية

موقعه عند باب أدرنة من أبواب السور في طرف إستامبول الغربي، ويسميه الإفرنج جامع القهرية أو القاهرية، لكن الأتراك يضبطون لفظه بالعين (القعرية).

وكان في أصل بنائه كنيسة هي أقدم كنائس القسطنطينية، فقد ذكرت سنة 290م ثم تهدمت غير مرة وأعيد بناؤها أخيرًا في القرن الحادي عشر للميلاد، ولما دخل الأتراك القسطنطينية بعد الفتح جعلوها جامعًا عرف بجامع القعرية، وهو بناءٌ صغير لا أهمية لهُ إلا من حيث قدمهِ، وبما على سقوفه وجدرانه من الصور النصرانية المتقنة مرسومة بالفسيفساء الملوَّنة، وهي عديدة أكثرها في سقوف رواقه، لا يزال معظمها محفوظًا بأشكاله وألوانه كأنه رسم بالأمس إلا ما أفسده الحريق.

دخلنا هذا الجامع من بابه الخارجي إلى الرواق وهممنا بالدخول إلى صحنه إذ لم يبد لنا في الرواق لأول وهلة ما يستلفت النظر لأن بناءَه في غاية البساطة، فاستوقفنا قَيّمُهُ وأشار بإصبعه إلى السقف فبهرنا ما شاهدناه هناك من الصور المدهشة بألوانها الزاهية ورسومها المتقنة. والسقف عبارة عن قبب أقواسها متداخلة، في كل قبة صورة أو غير صورة بالحجم الطبيعي تمثل السيد المسيح أو بعض أعماله أو بعض حوادث الكتاب المقدس، منها صورة ولادة المسيح في بيت لحم، وصور تمثل ظهور ملاك الرب ليوسف، وإحصاء سكان بيت لحم، ووقوف مريم بين يدي أليصابات. وأخذ يوسف مريم العذراء إلى بيت لحم، ووقوف المجوس بين يدي هيرودس. وهيرودس يخاطب رئيس الكهنة والكتبة. وأمر هيرودس بقتل الأولاد. وسجود المجوس للمسيح. وبكاء الأمهات. وفرار

أليصابات إلى المغارة يتبعها جندي. ورجوع المسيح إلى الناصرة. ورحلتهُ إلى أورشليم والمسيح بين الكهنة، ويوحنا يعمّد، ومجيء المسيح ليتعمد. وتجربة الشيطان له، والعرس في قانا الجليل، وكسر الخبز، ويسوع والسامرية، وشفاء المفلوج، وشفاء الأبرص. وصور كثيرين من القديسين والأنبياء في دوائر حول المسيح والعذراء. وصورة المسيح جالسًا وبين يديه ثيودوروس المتوخى ساجدًا يقدم له الكنيسة أو مثالًا منها، وشفاء اليد اليابسة وغيره، وشفاء الأعمى والأطرش، وشفاء حماة بطرس، وبشارة الملاك لحنة، والتقاء يواكيم وحنة بباب الهيكل، وولادة العذراء. والعذراء بين والديها، والعذراء يباركها الكهنة. ومجيء العذراء إلى الهيكل، ونحو ذلك. وأكثر هذه الصور لا يزال واضحًا، وما فسد منها لم يفسده المسلمون وإنما أضرَّ به الحريق أو الزلزال، حتى داخل المسجد فقد رأينا صورًا على جدرانه غطاها المسلمون بما يشبه أجنحة النوافذ تفاديًا من ظهورها وقت الصلاة ولم يمحوها، مما يدلُّ على رغبتهم في تجنب أذاها.

جامع السليمانية

بناه السلطان سليمان القانوني [وهو] واقع بجانب السر عسكرية، ويشغل معظم الهضبة الثالثة من هضاب إستامبول كما تقدم، وله ملحقات من المدارس والمنائر والتكيات والأضرحة والمكاتب والحمامات. وهو من أتقن أبنية الآستانة وأفخمها. هندسهُ سنان الشهير سنة 1550-1566، ونقلت أهم أحجاره من كنيسة خلكيدونية وكنيسة السراي الكبرى. وهو أفخم أبنية العاصمة ويظهر لأهلها من كل ناحية لعلوه وإشرافه، وهو نحو جامع أيا صوفيا في السعة. دخلناه وتهيبنا من ضخامته وعلوه وعظم عضائده، فإن قبته قطرها 26 مترًا قائمة على أربع عضائد سماقية اللون مربعة الشكل، طول كل ضلع منها 9 أمتار وعلوها 20 مترًا، وبين كل عضادتين في الجانبين عمودان مستديران من الجرانيت تيجانها مذهبة، وداخل الجامع لونهُ سماويٌّ.

محرابه منحوت من الرخام، في أعلاه الآية ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ وقد تدلى إلى كل من جانبيه طبق شبه الجرس الكبير مذهب، وتحت الطبقين على الأرض شمعتان طول الواحدة خمسة أمتار ومحيطها متر ونصف،

قائمتان على مشمعتين مشدودتين إلى الحائط بأمراس. وإلى جانبي المحراب أسطوانتان من الجرانيت المجزع، فيها نقش كالميازيب. وإلى يمين المحراب المنبر، منحوت من الرخام هو ودرابزينه [وسُورُهُ] وبابه قطعة واحدة وقد طليت أفاريزه [أطرافه] بالذهب، ونقش على عتبة بابه نقشًا [نقش] من الطرز العربي المعروف بالمقرنص تحته آية التوحيد. والحائط حول المحراب مبطن بالقيشاني الثمين، وقد كتبت فيه بالقيشاني الملون دائرتان هما معًا سورة الفاتحة. وفوق ذلك النوافذ، عليها الزجاج الملون قطعًا صغيرة بغاية الإتقان والزخرفة، وفيها كتابات دينية. وفوق المنبر قبة مستطيلة مذهبة تشبه منبر المدينة. وفوق المحراب من اليمين اسم الجلالة منقوش بالذهب وإلى اليسار اسم محمد، وإلى كل من الجانبين وراء ذلك أسماء الصحابة كالعادة وآيات عديدة. وتتدلى من القبة في وسط الجامع ثريا كمثرية الشكل حولها دائرة تتعلق بها المصابيح.

وبالجملة فإن جامع السليمانية هذا آية في الضخامة والإتقان وقد استوقفت فخامته نظرنا أكثر من سائر المساجد وبجانبه ضريح السلطان سليمان القانوني بانيه.

جامع أبي أيوب

ويسميه بعضهم السلطان أيوب غلطًا فإنه مقام أبي أيوب الأنصاري أحد كبار الصحابة، نزل النبي في داره يوم جاء المدينة وكان قد دخلها على ناقته فأمسك بها بعضهم وطلب إليه النزول عند أهله أو غيرهم فقال: «دعوا الناقة فإنها مأمورة» فبركت على باب أبي أيوب، ونزل النبي عنده حتى بنى المسجد.

والمشهور أن أبا أيوب جاء لغزو القسطنطينية مع يزيد بن معاوية سنة 51هـ فمات خارج سورها ودفن هناك. وما زال قبره مهملًا حتى حان الفتح العثماني فبنى محمد الفاتح على قبره مقامًا وبجانبه جامعًا، وجعل أن لا يتولى سلطان عثماني إلا تقلد سيف عثمان رسميًّا في جامع أبي أيوب.

وهو واقع في أواخر قرن الذهب، لا يظهر من بعيد لأنه قائم في بقعة منبسطة تحدق بها الأشجار والمنازل فلا يراه الزائر حتى يصل إليه.

دخلنا من بابه الخارجي إلى ساحة مكشوفة في وسطها بركة أو ميضة، وفي بعض جوانبها شجرة دلب مات جذعها لقدم عهدها ونمت بجانبه شجرة أخرى توكأت على ذلك الجذع وانفرش جذعها عليه واتخذ شكله. وقرأنا على عتبة هذا الباب من الداخل: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾، فمشينا في تلك الساحة خطوات فأصبنا إلى يميننا بابًا يؤدي إلى صحن المسجد فولجناه وقد كتب على بابه ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا﴾، وفي يمين ذلك الصحن باب الجامع وعليه: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وفي وسط الصحن شجرتان من الدلب هائلتا الكبر، وإلى اليسار شبابيك محدبة من نحاس قد نقش في وسط أحدها: «لا إله إلا الله الملك الحق المبين محمد رسول الله صادق الوعد الأمين»، وهذا الشباك من شبابيك مقام أبي أيوب. ومدخل المقام من باب خاص في الساحة الخارجية سنعود إليه.

أما الجامع فبابه إلى يمين الداخل كما تقدم. في صدره محراب قد نقش فوقه بشكل دائرة هذه الآية: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، وتحتها مربع مستطيل فيه قوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾، وإلى يمين المحراب المنبر يصعد إليه بسلم مثل سائر المنابر وهو مصنوع من رخام مذهب، وقبة الجامع قائمة على ستة أعمدة محيط كل منها 4 أمتار بينها أربعة أعمدة صغار، وفي هذا المسجد يتقلد السلاطين سيف عثمان.

مقام أبي أيوب

وأما المقام فبابه الخاص في آخر الساحة الخارجية إلى اليمين، أي بعد باب الجامع الخارجي. دخلنا منه إلى دهليز طويل مبطن بالقيشاني الجميل وله نوافذ عليها ستائر من الحرير. ينتهي الدهليز بغرفة مبطنة بالقيشاني، وعلى جدرانها إطارات فيها ألواح عليها آيات قرآنية وأحاديث بخطوط جميلة. وفي هذه الغرفة حجرة هي جزءٌ منها فيها مقام أبي أيوب، أي قبره، دخلناها من باب في الغرفة بجانبه شباك مذهب، وقد نقش على عتبة الباب من الخارج بحرف كبير «دعوا الناقة فإنها مأمورة فبركت على باب أبي أيوب»، فرأينا في وسطها الضريح يحف به سور من شبك الفضة أعلى من قامة الإنسان، فيه نقوش يقرأ في أحدها «السلطان سليم

الثالث سنة 1207»، ويجلل الضريح غطاء من المخمل الأسود المطرز بالذهب وعليه آيات وأدعية. وحول الضريح وراء الشبك الفضة وعند قاعدته مساندُ من الخشب عليها مصاحف خطية، كل منها ملفوف بجوخ أخضر. وفي بعض جوانب الحجرة المذكورة بئر يستقى منها. وجدران هذه الحجرة مبطنة بالقيشاني أيضًا وعليها ألواح فيها آيات وأحاديث.

ورأينا في الغرفة الخارجية المؤدية إلى الحجرة آثارًا تستحق الذكر غير الآيات والأحاديث، منها أثر قدم النبي على بلاطة محفوظة في كوة خصوصية. وبجانبها إطار صغير مذهب يشتمل على صفيحة من زجاج تحتها ورقة شجر مجففة وقد كتب فوقها بالتركية أنها من شجرة في مكة غرسها النبي بيده.

جامع السلطان أحمد

بناه السلطان أحمد المتوفى سنة 1026هـ بالقرب من أتميدان الذي قتل فيه الإنكشارية، ويمتاز عن سائر المساجد بكثرة مآذنه فإنها ست، وسائر المساجد لا تزيد منائرها على أربع. دخلنا إليه بعد المرور بخلاء يحيط بثلاث من جهاته، ثم صعدنا على سلم كالهرم المدرج إلى صحن، في إحدى جهاته إلى اليمين مصطبة من الرخام الكبير، بينها رخامات يزيد طول بعضها على خمسة أمتار أو ستة. في وسط ذلك الصحن حنفية أو ميضة، وتحفّ به من الجهات الثلاث الباقية قناطر كالقباب الصغيرة قائمة على 26 عمودًا. ثم دخلنا إلى المسجد من باب يخترق المصطبة، قرأنا على عتبته في الأعلى اسم السلطان أحمد وأجداده منقوشة بالذهب. وفوق الباب قبة من الرخام على الشكل المقرنص مثل أكثر أبواب مساجد الآستانة. والمسجد من الداخل قبة واحدة، مثل سائر جوامع الآستانة، قائمة على أربعة أعمدة أو عضائد مستديرة من رخام أبيض، محيط كل عضادة منها 32 مترًا، وحول تيجان هذه العضائد في الأعلى كتابة منقوشة بالذهب، هي واحدة فوق كل عضادة تبدأ بقوله: قال الله - تبارك وتعالى - ﴿لمسجدٌ أسس على التقوى..﴾ إلخ. والمسافة بين كل عضادتين 24 مترًا، ومساحة الجامع كلّه نحو مساحة السليمانية. وإذا امتاز جامع السليمانية بالفخامة والمتانة فإن هذا يمتاز بالزخرفة واللطافة وجمال الهندسة، لأن محيطه من الأسفل عبارة عن

رواق من قباب صغيرة قائمة على أساطين لطيفة من الرخام المجزع، بينها أعمدة رخام أبيض ضخمة، وقد تبطن هذا الرواق بالقيشاني الأزرق. وكذلك أعلاه بين الشبابيك إلى حدود السقف تحت القبة. وفوق ذلك إلى أعلى القبة مدهون بألوان تشبه القيشاني، فيظهر باطن الجامع لأول وهلة أنه مبطن بالقيشاني الأزرق كله أعلاه وأسفله.

والمحراب في الصدر رخام مذهب، وبجانبه شمعتان أقل ضخامة من شمعتي محراب السليمانية، وأبواب الجامع وشبابيكه كلها من الرخام الأبيض، والمنبر رخام مذهب، بابه قطعة واحدة عليها سورة التوحيد وهو يشبه منبر مكة. وفي أعلى المحراب الآية ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾، تحتها الآية:﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾، وبجانب المحراب في الحائط قطعة من حجر مجزع، يتوهم الناظر إليها لأول وهلة أنها صورة ملونة تشبه مقطوع جذع الشجرة، فإذا تفرس فيها وجدها حجرًا مصقولًا وهو نادر المثال، وفوقه شكل مسدس هو كتابة كوفية فيها أسماء الصحابة، وبجانبه صورة كبيرة بالزيت تمثل الكعبة ضمن إطار مذهب، وقد كتب في أسفلها أنها رسم معمار زاده سنة 1321 وهي في غاية الإتقان. ولا يدرك مقدار ما أنفق في تزيين باطن هذا الجامع إلا من يعرف قيمة القيشاني الثمين فضلًا عن الرخام والذهب وغيره.

وهناك جوامع أخرى أغضينا عن وصفها فرارًا من التطويل واكتفاء بما تقدم على سبيل المثال. إنما نذكر أننا رأينا بباب جامع نوري عثمانية الخارجي مدخل [مدخلًا] يؤدي إلى طلعة تنتهي بأعلى الجامع إلى المقصورة التي يجلس فيها السلاطين لحضور الصلاة. قال مخبرنا إن السلاطين كانوا يدخلون من هناك على خيولهم حتى يبلغوا إلى الطبقة العليا فيتحولون ويسيرون على أقدامهم إلى المقصورة.

سبيل السلطان أحمد

في الآستانة سبل كثيـــرة، اختصصـــنا هــذا بالذكـــر لأنـــه أفخــمها. بناه السلطان أحمد في ساحة بين جامع أيا صوفيا وباب سراي طوب قــبو، هو مبنـــى بشكل مربع

من الرخام الأبيض وفوقه قبة مستديرة الأركان تستطيل حافاتها حوله على شكل الطنف، في غاية الزخرفة والإتقان، وعلى جهاتها الأربع نقوش مذهبة، في وسطها أشعار منقوشة بالذهب بخط جميل هي قصيدة باللغة التركية نظمها شاعر السلطان أحمد، في جملتها بيت التاريخ جاء فيه اسم هذا السلطان ويقال إنهُ هو نفسه وضعه وهو:

تاريخي سلطان أحمدك جاري زبان لوله دن آج بســمـــليله ايـــــج صـــولى

خان أحمد ايله دعا

وهذه خاتمة القصيدة بالتركية، نقلناها عن أحد جدران السبيل حرفيًّا وأكثر ألفاظها عربي بحيث يمكن للعرب فهمها بتفسير بعض الألفاظ التركية.

ومن الأعمدة التاريخية عمود أركاديوس وعمود مارسيان وعمود ثيودسيوس، أغضينا عن وصفها.

ومن الآثار التاريخية سراي طوب قبو على الهضبة الأولى من هضاب إستامبول، وكانت قصرًا لإمبراطور الروم ثم جعلها السلاطين العثمانيون مقرًا لهم إلى عهد غير بعيد، وسيأتي الكلام عليها بفصل خاص بين المتاحف لأن فيها تحف آل عثمان ومجوهراتهم.

4- مشاهدها

أهم مشاهد الآستانة القصور السلطانية وهي كثيرة نكتفي بأشهرها:

قصر طولمه بغجه

واقع في محلة بشكطاش على ضفة البوسفور، وهو مقرُّ جلالة السلطان الآن، بناه السلطان عبد المجيد سنة 1853 وأتمّه السلطان عبد العزيز، أنفق في ذلك بضعة ملايين من الجنيهات، وهو عدة أقسام مبنية بالرخام الأبيض المجلوب من مرمرا، وقد نزل الذهب في نوافذه وأبوابه.

ويعدُّ قصر طولمه بغجه من عجائب الأبنية في العالم بما يحويه من الأساطين المنقوشة والرخام المحفور والنقوش الجميلة المزخرفة، بما يشبه قصر فنيس [البندقية] القديم. وبين يدي هذا القصر من ناحية البوسفور رصيف من الرخام طوله نحو 600 متر تتخلله مماش تؤدي إلى الشاطئ. ويحدُّ الرصيف أساطين ضخمة عليها أقواس مذهبة بنقوش بارزة، وأبواب القصر بيضاء مذهبة. في بعض أطرافه برج للساعة يبدو للناظر عن بعد، وبجانبه مسجد خاص يسمى جامع الوالدة يصلي فيه السلطان. وفي سقوف طولمه بغجه نقوش مذهبة تدل على ما أنفق في سبيلها من الأموال، يقال إن الذي تولى نقشها ساشان الفرنساوي، وفيها من الثريات أو منائر البللور عدد كبير، شمعات الواحدة منها 250 شمعة، وألواح من البللور مساحة الواحد 30 مترًا مربعًا، ومواقد الاستدفاء من البورسلين المذهب. وفيه معرض للصور القديمة جميل وثمين، وأمّا الصالون فإنه من أفخم ما جادت به قرائح البشر وفيه يحتفل العثمانيون كل عام بتقبيل يدي جلالة السلطان في عيد الأضحى، فضلًا عن قاعة الرقص وغيرها من القاعات الواسعة والحمام ومعرض الصور الحديثة والمصنوعات الجميلة.

ويقال على الجملة إن الناقد يرى في بناء هذا القصر بذخًا وسخاءً، أكثر مما يرى نحافة ودقة بخلاف قصر چراغان.

قصر چراغان

هو أجمل قصور السلطنة، بناه السلطان عبد العزيز سنة 1874 بين بشكطاش وأورته كوي على ضفة البوسفور، ويمتاز بجماله ودقة الصناعة في نقشه وهندسته، وفيه كان يقيم السلطان مراد محجورًا عليه في زمن السلطان عبد الحميد، ولم يكن يجرؤ أحد على المرور بجانبه والتطلع إليه خوفًا من التهمة. وقد جعلته الحكومة الآن مجتمعًا لمجلس النواب، وسيجتمع به للمرة الأولى في أول [أولى] جلساته للعام المقبل [1910].

وهناك قصور سلطانية أشهرها قصر بكار بك على شاطئ البوسفور من جهة آسيا بناه عبد العزيز سنة 1865 وسراي تكفور في إستامبول، وغيرها. وقد آن لنا

أن نتقدم إلى وصف سـراي يلدز، فإنها أشهـرها جمـيعًا وأصـبح النـاس يتشوقون لمعرفـة مخبآتهـا وتحفـها بعـد هـذا الانـقلاب [الانـقلاب العثماني على السلطان عبد الحميد في عام 1908].

سراي يلدز

ليست هذه السراي قصرًا واحدًا فخيمًا كما يتبادر إلى الذهن وإنما هي عدة قصور، قد لا يرى في أحدها فخامة ما يراه في قصر طولمه بغجه أو الجمال الذي يراه في قصر چراغان. وإنما هي هضبة كبيرة واقعة وراء محطة أورته كوي فوق قصر چراغان تكتنفها الأودية، وقد أنشئت فيها الحدائق والبساتين والبحيرات وبُنيت فيها قصور تتفاوت قدرًا وجمالًا، وهي عديدة ومتفرقة بين الخمائل والغابات على غير نظام. وليس في وصف هذه القصور كثير مما يدهش القارئ، ولكن العبرة بما هنالك من المخبآت الغريبة التي تواترت الأقوال بشأنها واختلفت الروايات عنها، وقد أتيح لنا دخول تلك القصور في فرصة مناسبة فاستطلعنا أحوالها، وإليك خلاصة ذلك.

إن البقعة التي أقاموا فيها قصور يلدز واسعة تزيد سعتها على مساحة بلد كبير، أكثرها غابات كثيفة الأشجار، بينها حدائق غنّاء وبحيرات تجري فيها القوارب، وتقسم بجملتها إلى قسمين كبيرين:

(1) الحديقة الداخلية

(2) الحديقة الخارجية.

وليلدز باب خارجي كبير تدخله المركبات إلى بقعة فيها طريقان أحدهما إلى اليسار يؤدي إلى باب الحديقة الداخلية والآخر إلى اليمين يؤدي إلى طريق الحديقة الخارجية، وفي كل من الحديقتين قصور وأبنية سيأتي ذكرها.

الحديقة الداخلية ومسارح الطير

فالحديقة الداخلية عبارة عن بستان كبيـر مـحاط بسـور عـال أشـبه بأسوار الحصـون منـه بالـحدائق، يفصلـه عن الحديقة الخارجية. يُدخل إلـى الحديقة الداخلية

من باب كبير مذهب هو باب السراي المؤدي إلى أهم القصور الداخلية. وهي قصر المابين الصغير، مسكن السلطان المخلوع [السلطان عبد الحميد] وقصر جيت وقصر مالطة وقصر جهان نما ومعرض الحيوان. فهذه القصور متقاربة، كل منها يستطرق إلى الحديقة الداخلية. وفي الحديقة المذكورة بحيرات تجري فيها القوارب، ومسارح للطير هي عشرات من الغرف المتقنة مصنوعة من الخشب المزخرف ملاصقة لجدار الحديقة الشرقي. ولها واجهات من الزجاج وشبابيك من الأسلاك، وبعض الغرف كلها من الزجاج. يسرح فيها الحمام، كل نوع في غرفة أو بضع غرف متقاربة، وبينها الحمام الأبيض والأسود والمرقّط وذات العرف الطويل أو الذيل العريض، على اختلاف الأجناس. ولها في مسارحها مجالس تأوي إليها وتبيض أو تفقص فيها على أبدع نظام. وتلي مسارح الحمام غرف لتربية الأزهار الشتوية التي يضرُّ بها البرد مصنوعة من الزجاج المضبوط التماسًا للدفء. وتلي ذلك أقفاص فيها بنات آوى أو بعض الكلاب الضخمة. وفي بعض جوانب هذه الحديقة اسطبلات فيها مواقف للخيل، في كل موقف اسم الجواد الذي كان يقف فيه.

وفي وسط هذه الحديقة مسارح للحمام غير ما في أطرافها، كأن السلطان المخلوع كان مولعًا بمعاشرة هذا الطير الوديع ولعًا كثيرًا، وذلك من جملة غرائب أطواره وتناقضها. وأكثر أشجار هذه الحديقة الصفصاف والدلب والسرو والخروع والحور والتوت. وفي غربيها أقفاص للعصافير من الكنار والحسون ونحوهما، وفي جنوبها مسارح للطاووس وأمثاله من الطيور الجميلة، وأخرى لطيور الماء تسبح في بحيرات صغيرة. وفي الحديقة بالقرب من القصور طرقات مرصفة بالأسفلت، عليها نقوش بشكل حدوة الفرس التي يتفاءل الناس بها.

قصر جهان نما

وفي هذه الحديقة قصر جهان نما، وهو صغير لكنه في غاية الإتقان، يشرف على البوسفور إشرافًا واسعًا. يصعد إليه بسلم من الرخام إلى دار مفروشة بالبسط تستطرق إلى غرفتين جانبيتين، وعلى الجدران صور زيتية متقنة بينها صورة الجامع الحميدي وصور بعض أجزاء الحديقة الداخلية، من جملتها صورة جزء من البحيرة

على ضفتها الأنوار والأشجار. وجدران الغرف وسقوفها ملونة ألوانًا زاهية أكثرها الأحمر. وقد طليت الأبواب والأفاريز بالذهب وأرخيت عليها الستائر الحريرية من كرانيش مذهبة. وخرجنا من باب في صدر الدار إلى شرفة أشرفنا منها على البوسفور وما يحف به من الخمائل والمنازل. وفوق هذه الطبقة طبقة أخرى في مثل تفصيلها فرشها من المخمل العنابي، وفي دارها نظارتان مقربتان (تلسكوب) كل منهما مرتكزة على طاولة يُنظر بهما إلى البوسفور وما يليه.

وفوق هذه الطبقة السقف القرميدي بشكل الزاوية، وأكثر سقوف الآستانة بهذا الشكل، يستطرق إليه بسلم سري وفيه غرف صغيرة مقفلة كأنها مخابئ سرية.

قصر جيت

سُمي بذلك لأنه مبطن بالأنسجة، بابه خارج باب الحديقة الداخلية لكنه يعدُّ منها لأن بناءه من جملة أبنيتها، وقد يدخل إليه منها بباب آخر سيأتي ذكره. والقصر المذكور مؤلف من عدة غرف كبيرة مبطنة جدرانها بالأطلس كل غرفة بلون خاص ونقش خاص. فيمتاز هذا القصر بذلك وبما علق على جدرانه من الخرائط الجغرافية البارزة تمثل فيها البلاد تمثيلًا مجسمًا، بما بها من الجبال والأودية والبحور، وكلها من صنع مهندسين عثمانيين اسم كل منهم على الخريطة التي رسمها. وفي كل غرفة بضع خرائط موضوعة في إطارات ثمينة ومعلقة على الجدران، ربما زاد عددها كلها على خمسين خريطة، في جملتها خريطة البوسفور وخرائط الروملي والأناطول والآستانة والبحر الأسود. وأهمها خريطة تمثل الكعبة وما جاورها بغاية الإتقان موضوعة في القاعة الكبرى (الصالون).

ولهذه القاعة مزية، فضلًا عن كبرها وكثرة ما فيها من الخرائط المتقنة والثريات، أن في جدارها الأيسر بابًا سريًّا إذا أقفل اختفى وهو يستطرق إلى المابين الصغير. كان السلطان المخلوع إذا أراد مقابلة أحد هناك خرج إليه من ذلك الباب بدلًا من مروره بباب الحديقة الداخلية إلى الخارج حتى يدخل من باب هذا القصر. ورأينا في بعض الغرف خزائن من خشب أسود منزلة بالذهب.

ومن جملة أبنية يلدز معرض الحيوانات، فيه أنواع من الطيور وغيرها محنطة لا شيء من الغرابة فيها. وكذلك قصر چادر وقصر مالطة فنكتفي بالإشارة إليها ونعمد إلى تفصيل ما شاهدناه في المابين الصغير مسكن السلطان المخلوع، فإنه أدعى إلى الاهتمام.

المابين الصغير أو مسكن عبد الحميد

هو أول قصر يستقبله الداخل من باب الحديقة الداخلية إلى يمينه، وليس هو بالقصر الفخيم. يُرقى إليه على بضع درجات بسيطة، ومدخله باب اعتيادي يؤدي إلى فسحة صغيرة ومنها إلى الدهاليز والغرف على غير نظام. ولم نستطع تمييز هندسة ذلك البناء لكثرة ما فيه من الدهاليز والمماشي والغرف المستطرقة بعضها إلى بعض. ولذلك، فلا نقدر أن نرسمه للقارئ، فنكتفي بذكر أهم ما شاهدناه فيه.

أول شيء استلفت انتباهنا عند دخولنا منضدة صغيرة من الرخام في الفسحة، عليها زجاجة فيها ماء كالدواء. قال الرجل المولج بشرح ما نراه إن الذين أتوا لتبليغ عبد الحميد الخلع وجدوا هذه الزجاجة هناك، وعلموا بعد ذلك أنها تحوي عقارًا مقويًا للقلب لأنه أصيب بصدمة عصبية في ذلك اليوم على أثر ما أصابه من الفشل والخوف، فوصفوه له.

وهناك غرفة واسعة فيها مائدة كبيرة هي غرفة الطعام، في أرضها سجادة واحدة نقشها مثل نقش السقف تمامًا وفيها خزائن (بوفيه) وموقد للتدفئة. وهذه المواقد لا تخلو منها غرفة في الآستانة لشدة البرد في فصل الشتاء، ولكنها تختلف قيمة باختلاف المادة المصنوعة منها، وهي هنا من البورلسين الأبيض المذهب وعليها حرف (H). ومن جميل ما في هذه الغرفة أن أحد البوفيين آلة موسيقية كالبيانو دقيق الصنعة، أهداها الإمبراطور غليوم لصديقه السلطان عبد الحميد. ولما بلَّغوه خبر الخلع كان جالسًا على كرسي في هذه الغرفة.

ومن جملة ذلك القصر غرفة فيها طاولة للكتابة، عليها أوراق ومحابر وأقلام كأنها محل الشغل أو المكتب، شاهدنا فيها خزانة قصيرة أشار دليلنا إليها وقال: «في هذه الخزانة وجدوا أوراق علي كمال» وهي التقارير التي قدمها إلى

عبد الحميد ضد جمعية الاتحاد والترقي. ورأينا هناك كرسيًّا وطاولة من زجاج خالص قال: «إن عبد الحميد كان يجلس على هذا الكرسي إذا اشتدت كهربائية الجو وتكاثرت الصواعق، لعلمه أن الزجاج موصل رديء للكهربائية فيأمن أن يصاب بالصاعقة!».

ورأينا في غرفة أخرى خزانة وجهها من بلور صاف وهي مملوءة بالأسلحة النارية، بينها أنواع من المسدسات المتقنة وفيها المذهب والمرصع على اختلاف الأحجام من الكبير الذي لا تحيط به اليد إلى الصغير الذي يسعه الجيب، وفيها بعض الخناجر ونحوها، وقد ترتبت هذه الأسلحة في تلك الخزانة ترتيبًا هندسيًّا جميلًا.

ورأينا كثيرًا من خزائن الحديد لوضع النقود، وكثيرًا من أصناف البيانو، وفي كل غرفة ترمومتر وبارومتر وساعة. والساعات كثيرة جدًّا، كأن عبد الحميد كان مولعًا باقتنائها إلى حد الهوس، فإنك لا تجد طاولة أو موقفًا أو موقدًا أو كونسولًا إلا وعليه ساعة دقاقة، ومنها الفضة والذهب والبورسلين. وفي هذا البناء حمام من الرخام كثير الإتقان، جرنه وحنفياته مذهبة.

وقد أدهشتنا بنوع خاص كثرة الخزائن في الدهاليز وغيرها، فإنها تعدُّ بالعشرات من الخشب أو المعدن، وفيها البسيط والمذهب والمطعّم وكلها مقفلة. وفي هذه الخزائن كان عبد الحميد يحفظ تقارير الجواسيس، وقد استخرجها رجال الدستور بعد خلعه وأخذوا يتفحصونها.

وكثيرًا ما كنا نسمع أن عبد الحميد لا ينام يومين متوالين في غرفة واحدة أو هو يخفي محل نومه عن كل إنسان، ولم نكن نتصور ذلك، فتبين لنا بعد مشاهدة هذا البناء أنه لم يكن ينام على الأسرّة وإنما كان رقادهُ على مقاعد مستطيلة (كنابيه) في كل غرفة واحدة منها. وهي من نوع المقاعد التي يستخدمها الإفرنج في غرف النوم ويسمونها (شيزلون)، فكان يتوسد أحد هذه المقاعد ويتغطى بحرام أو نحوه فلا يمكن الاهتداء إلى مكانه.

ورأينا غرفة كبيرة مقطوعة بحاجز من زجاج، بحيث يتكوّن بذلك القطع

حجرة صغيرة داخل تلك الغرفة الكبيرة بابها من زجاج. وفي هذه الحجرة آلات النجارة وأدواتها من البنك إلى الفارة فالمنشار فالشاكوش فالإزميل. بل هناك أصناف من المناشير والأزاميل والشواكيش والمناقير على اختلاف الأحجام والأشكال، بين ما قبضته من الخشب أو العاج أو الأبنوس أو نحوه. وعلى البنك قطع من الخشب كأنه كان قد بدأ يحفرها. ويظهر من مجمل هذه الحجرة أنه كان يشتغل فيها بالحفر واصطناع الأدوات الصغيرة كالعلب والبراويز ونحوها. وفي هذه الغرفة وجدوا أوراقًا مالية قيمتها 500.000 جنيه.

وكان المتواتر على الألسنة أن عبد الحميد إذا خرج للسلاملك أو للصلاة تدرَّع خوفًا على حياته، وكنا نستبعد ذلك حتى شاهدنا درعه في بعض الغرف، وهي عبارة عن دراعة (صدرية) لها صدر وظهر، كلاهما من فولاذ بشكل صفيحة مقوسة وقد كسيتا بنسيج من الكتان الأبيض كان يلبسهما تحت أثوابه.

وأغرب ما رأيناهُ في بعض الغرف صورة زيتية معلقة بالحائط طولها نحو متر وعرضها 70 سنتيمترًا، قد أرخي عليها سترٌ، أزحناه فإذا هي تمثل قاربًا بجانب الشاطئ قد وقف فيه نحو عشرة رجال عليهم ألبسة سوداء وقبعات سوداء يقرب شكلها مما يلبسه الرهبان اليسوعيون، وفي يدي كل منهم آلة موسيقية من الناي أو العود أو المزمار يضربون ويعزفون وهم في حال عربدة أو سكر، وبين أيديهم على الشاطئ نحو عشر نساء عاريات يرقصن أو يتخالعن مما يخل بالأدب. قال الدليل: «إن هذه الصورة أهداها بعض المتملقين إلى عبد الحميد يمثل فيها مدحت باشا ورجاله الأحرار تمثيلًا يحقّر دعواهم، يريد أنهم يتظاهرون بطلب الحرية والدستور تمويهًا على العقول، وهم بالحقيقة يريدون الخروج عن الآداب الدينية والاقتداء بالنصارى في خلاعتهم وسكرهم، ويا حبذا لو عرفنا صاحب هذه الهدية النفيسة!».

ولم نشاهد في هذا المابين شيئًا من التحف أو المجوهرات لأنهم نقلوها في جملة ما نقلوه من النقود التي وجدوها، لكننا رأينا تمثالًا طوله نصف متر يمثل سفينة بخارية تدور بدولابين جانبيين، وهو مصنوع من الذهب ومرصع بالأحجار الكريمة، فوقه علم عثماني هلاله من ألماس وأرضه من الميناء الحمراء، وحبال السفينة مرصعة بأحجار مختلفة الألوان والأقدار.

وأرشدنا الدليل إلى الغرفة التي كان يستقبل بها تحسين باشا الباشكاتب أو غيره من الخاصة، وهي بسيطة، وفي صدرها لوحة عليها كتابة بالذهب هذا نصها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، وبجانبها لوحة أخرى عليها: «أمان يا رسول الله».

وبالجملة إن غرف المابين الصغير كلها مفروشة بالسجاد الثمين وسقوفها مزخرفة ومذهبة، ومنه يُستطرق إلى دار الحريم، وهي مقفلة لا يُؤذن في الدخول إليها، ولكنهم أرونا الباب الموصل إليها، فإذا هو مرآة واحدة، جعله عبد الحميد كذلك حتى إذا أراد الدخول فيه كان على بيّنة ممن قد يكون وراءه من لص أو غيره.

المابين الكبير

أما الحديقة الخارجية ففيها قصور أهمها قصر المابين الكبير وقصر مراسم والقصر الجديد (بكي كوشك)، فالمابين الكبير واقع خارج باب الحديقة الداخلية بالقرب من مدخل يلدز الخارجي ويشرف على الجامع الحميدي، وهو مؤلف من قاعات كبيرة لاجتماع الوكلاء أو الوزراء أو السفراء، في وسطه أكبر القاعات ربما زادت مساحتها على 30 مترًا أو 25 مترًا في 25، وفي وسطها ساعة كبيرة من الفضة قائمة على قاعدة مربعة ولها أربع مين [أوجه]، واحدة للساعات وأخرى للترمومتر والثالثة للبارومتر والرابعة لأوجه القمر. أرضها مكسوّة بسجادة واحدة، وهي تستطرق إلى سائر غرف القصر، ولكل غرفة فرش خاص، بلون خاص. إحداها تسمى سرداب فاخرة الرياش وفيها سجاد ثمين وأعمدة من المرمر المذهب. وإحدى الغرف مرصفة بالخشب المطعم بالعاج، وفي إحداها موقد أعمدته من زجاج أحمر. ويُصعد إلى الطبقة العليا بسلم أعمدة درابزينه من الزجاج، ودرجات السلم من الخشب المطعم.

وفي الطبقة العليا عدة كونسولات كبيرة رخامها من المرمر المجزع، وفي صدر القاعة الكبرى، إلى كل من جانبي الباب المستطرق إلى الغرف الأخرى، صورة زيتية على طول الحائط وفي قفا هذا الحائط، من الجانب الآخر صورتان أخريان وهذه الصور زيتية جميلة إحداها تمثل عبد العزيز والأخرى السلطان محمود والاثنتان الباقيتان تمثلان السلطان عبد المجيد راكبًا وراجلًا. وهناك غرفة

المائدة فيها بوفيان مذهبان ضخمان، وحنفية من رخام مذهب للغسل على شكل جميل. ولهذا المابين نوافذ تشرف على الجامع الحميدي وعلى الطريق المؤدي إليه من المابين الصغير، فكان الأعيان والسفراء يجلسون يوم السلاملك في القاعات المطلة على ذلك الطريق ليتمكنوا من رؤية الموكب الشاهاني، وأكثرهم يقفون في حديقة هذا القصر بالجهة المطلة على الطريق أو صحن الجامع.

قصر مراسم

هو أفخم قصور يلدز، بناه عبد الحميد احتفاءً بزيارة إمبراطور ألمانيا منذ بضع عشرة سنة وأنفق عليه نحو مليوني جنيه، وهو واقع في الحديقة الخارجية، يُتصل إليه من وراء سور الحديقة الداخلية مسافة طويلة تمرُّ في أثنائها وإلى يسارك السور وإلى يمينك شبه غابة من الأشجار الباسقة المتعانقة تمثل الطبيعة في أبسط أحوالها، كأنها نامية في برية لا يد للإنسان فيها.

فإذا بلغت إلى القصر رأيت بين يديه حديقة منظمة الطرقات أشجارها هندسية الأشكال، كأن البستاني يتعهدها بالمقراض صباح مساء. فسرنا في هذه الحديقة إلى باب مراسم وهو فخيم، صعدنا إليه على درجات من الرخام إلى فسحة، ومنها إلى سلم أعمدةُ درابزينه مذهبة يؤدي إلى فسحة يمتد منها إلى كل من الجانبين دهليز إلى جانبيه غرف، ربما بلغ عددها 40 غرفة وأهمها إلى اليمين. وفي هذه الغرف الرياش الثمين من السجاد الجميل والستائر المزركشة والمواقد المذهبة والمرايات الكبيرة والساعات على اختلاف أشكالها وأقدارها، بينها ساعة على شكل الطير موضوعة على خزانة من الخشب الأسود مُنزَّل بالذهب. وفي بعض الغرف خزائن صغيرة أو هي مواقف للكتب، في بعضها كتاب «الجغرافية العمومية» لأليزه ركلي في اللغة الفرنساوية 19 مجلدًا ضخمًا، تجليدها أحمر مذهب جميل.

وفي غرفة أخرى كتاب «تاريخ تمدن أوربا» للعالم الفرنساوي جيزو، وفي غرفة أخرى مؤلفات بلوتارخس. غير ما على الجدران من الرسوم، في جملتها صور بعض الجوامع أو بعض أجزائها، وفي إحدى الغرف تمثال غليوم الثاني.

وأفخم غرف قصر مراسم الصالون فإن مساحته 30 مترًا في 15، في أرضه سجادة جميلة كلها قطعة واحدة لونها ذهبي فاتح وسقفها منقوش نقشًا مذهبًا في غاية الجمال. وعلى النوافذ ستائر من الحرير الثقيل تتدلى من (كرانيش) مقوسة الشكل ومذهبة الحواشي. أقبلنا على هذا الصالون من بابه الأصلي فرأينا الحائط إلى يسارنا، عليه المواقد بعضها داخل في الحائط والبعض الآخر بارز وهو من البورسلين الجميل. وبين هذه المواقد أبواب يُستطرق بها إلى غرف أخرى من ذلك القصر. وعلى المواقد شمعدانات من الذهب وبجانب كل شمعدان ساعة، وبين الأبواب وفوقها صور زيتية جميلة مرسومة على الحائط. ورأينا إلى اليمين الجدار المطل على الحديقة، وفيه الستائر وفوقها الكرانيش المذهبة كما تقدم. واستقبلنا في صدر القاعة ثلاث نوافذ، ورأينا زاويتي القاعة أمامنا خارجتين، تتألف من كل منهما غرفة صغيرة مستديرة في وسطها طاولة وعلى نوافذها الستائر.

وفي أرض القاعة المذكورة، إلى كل من طرفيها، طاولة مفضضة عليها سن فيل، وهي أكبر سن معروفة إلى اليوم، والسنّان قُدِّمَتَا هدية لعبد الحميد من راتب باشا والي الحجاز. طول كل منهما متران إلا ربع، وقد زركشتا بالفضة بأشكال الأفيال، ووضعتا في طرفي القاعة متقابلتين يتدلى من رأس كل منهما شبه الطبق من الفضة أو كالقنديل. وتتدلى من السقف ثلاث ثريات كبيرة، الوسطى أكبرها.

الجامع الحميدي

بناه عبد الحميد ليصلي فيه، وهو على مقربة من المابين الكبير إلى يسار باب يلدز الخارجي، وهو محاط بسور من الدرابزين الحديد يحيط بساحة مكشوفة، فيها أطلق الأرمني قنبلته، وبجانب باب الدرابزين الخارجي برج فيه ساعة كبيرة ذات أربعة أوجه. فقطعنا الساحة المكشوفة إلى باب الجامع وقد كتب عليه بماء الذهب ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾، فدخلنا إلى دهليز أوصلنا إلى باب آخر يطل على المسجد، وفوق هذا الباب منقوش ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾، والداخل من هذا الباب يستقبل المحراب إلى يمينه وقد كتب بجانبه: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾، وسقف الجامع قبة قائمة على أربعة أساطين مكسوة بالخشب، وفي دائر الجدران من الأعلى أسماء الجلالة

والنبي والصحابة هكذا: «الله ومحمد في الصدر، وأبو بكر وعثمان وحسن وسعد إلى اليمين، وعمر وعليّ وحسين إلى اليسار»، وفوق الباب مقصورتان عليهما الشعريات، وهما مذهبتان. وفي الجدارين إلى الجانبين شعريات للنساء وفي أعلى القبة كتابة بالكوفي فيها «﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، وحول الجدار قرب السقف آيات مذهبة.

وكان عبد الحميد يركب يوم الجمعة للصلاة في موكبه الحافل بين باب المابين وباب الجامع والمسافة لا تزيد على كيلومتر، فيمشي بين يديه الوزراء والمشيرون ينكسون رؤوسهم تخشعًا وتهيبًا، وهو وراءهم يسوق مركبته بيده. ويمشي إلى جانبي المركبة جماعة الياوران والسرياور، فيقبض بعضهم على عجلات المركبة يوازنون حركتها خوفًا من أن يجمح الجوادان فيلحق بالخليفة أذى، أو هم يتبركون بتسيير الخليفة إلى الجامع أو يتملقون إليه نفاقًا ورياءً.

سرايات الحكومة

ومن قبيل القصور الفخيمة في الآستانة سرايات الحكومة، وأجملها سراي السر عسكرية قرب جامع بايزيد، وبينهما ساحة إتميدان (غير أتميدان) كانوا يشنقون فيها الارتجاعيين. والسراي قائمة في ميدان واسع يُستعرض فيه الجند، قد كتب على بابه في الوسط «دائرة أمور عسكرية» وإلى اليسار ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾، وإلى اليمين: ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾. وفي بعض جوانب ميدان السر عسكرية برج شاهق كالمنارة الكبيرة، يرصدون منه الآستانة وينتبهون منه للحريق إذا وقع. والسراي واسعة الأطراف طولها 430 مترًا وعرضها 280 مترًا، وقائمة على هضبة تشرف على سائر أجزاء الآستانة.

ومنها الباب العالي، ويراد به أهم نظارات الحكومة، دخلنا إليه من باب كبير مصنوع من الرخام وفوقه الطغراء، يقال له باب همايون.

وفي الباب العالي سراي الصدارة العظمى ونظارة الداخلية والخارجية والنافعة (الأشغال العمومية). وأما سائر النظارات، فنظارة الخاصة بقرب سراي طولمه بغجه، ونظارة البحرية في قرن الذهب. وهناك الترسانة لتصليح السفن وهي كبيرة جدًّا، ونظارة الحربية في السر عسكرية، ونظارة العدلية في ميدان أيا صوفيا

وقد صارت لمجلس النواب، ونظارة المالية في ميدان بايزيد، ونظارة المعارف بالقرب من جامع محمود باشا.

وسنأتي على متاحف الآستانة ومعارضها وسائر أحوالها.

5- متاحفها ومعارضها

ليس في الآستانة متاحف تستحق الذكر بالقياس على متاحف العالم المتمدن، لحداثة عهدها بالتنقيب عن الآثار والاحتفاظ بها، ولكنها تمتاز بآثار فيها لا وجود لها في سواها، وبمخزن في سراي طوب قبو فيه تحف وجواهر لا مثيل لها في العالم، وليس هو من قبيل المتاحف المعروضة للناس، لكننا وفقنا إلى رؤيته فأحببنا نشرهُ للقراء.

فإذا عددناه متحفًا كانت المتاحف والمعارض في الآستانة خمسة، وهي:

1- المتحف العثماني.

2- متحف چينلي.

3- متحف طوب قبو.

4- معرض السلاح.

5- معرض الإنكشارية.

(1) المتحف العثماني

واقع في مكان السراي القديمة قرب سوق جشمة، أنشأوه سنة 1885 وزادوا عليه قاعتين فرغوا من بنائهما في العام الماضي [أي عام 1908]. وقد عرضوا فيه ما اجتمع عندهم من الآثار التي عثروا عليها في صيدا وسائر فينيقية والأناطول وغيرها من آثار الحثيين والآشوريين والمصريين واليونانيين، وفيها قطع لا مثيل لها في العالم، أهمها ناووس كبير من الرخام يسمونه ناووس الإسكندر أو قبره، وجدوه في صيدا سنة 1885 وحملوه إلى الآستانة، وعيون العالم شاخصة إليه لما فيه من دقة الصناعة.

يسمونه ناووس الإسكندر، لأن على ظاهره نقوشًا تمثل معركة الإسكندر الكبير مع داريوس في أربلاء [أربيل]، وليس هو قبره لأن الإسكندر لم يدفن في صيدا، فلعله مدفن أحد قواده أو رجال دولته. وقفنا عند هذا الناووس طويلًا وقد أخذ جماله بعقلنا، ولو وقفنا أيامًا ونحن نتأمل نقشه ما مللنا الوقوف ولا اكتفينا من التأمل. وهو قطعة واحدة من الرخام الأبيض طولها نحو ثلاثة أمتار فوقها غطاء من الرخام، وكلاهما منقوش بدقة ولباقة.

وقد أدهشنا فيه على الخصوص النقش الممثل لواقعة أربلاء فإن فيه عشرات من الفرسان والأفراس لكل منها موقف خاص وهيئة خاصة، يراد بها حالة من الأحوال التي يقتضيها النزال من الهجوم والدفاع والغضب والخوف وغيرها. ويمتاز رجال الإسكندر بألبستهم وقيافاتهم عن رجال داريوس. فاليونانيون على رؤوسهم الخوذ، والفرس عليهم شبه الخمار وألبستهم كالدراعات القصيرة. وإنك ليبهرك ما تراه من الملامح الواضحة في كل رجل وفي كل فرس مع صغر تلك الصور. فترى الظافر وقد شهر الحسام بيده وبدت أمارات الظفر على وجهه ويكاد الشرر يتطاير من عينيه، وبين يديه المغلوب على أمره وقد بان الفشل في سحنته، وتجد المصاب بنبل في صدره أو جنبه قد تجعّدت أسرّته وبانت علامات التألم في جبينه وعينيه. والظفر في مجمل الصورة بجانب الإسكندر، فترى بعض رجال داريوس قد وقعوا عن أفراسهم وداستهم سنابك الخيل وآخرون طُعنوا وهم على خيولهم، وقد استفرس اليونان وما فيهم إلا من شَهَرَ الحسام أو أَوتر القوس، ويظهر لك وهو يصوب السهم أنه يسدّده تسديدًا واضحًا.

ناهيك بمواقف الأفراس بين قائم على رجليه وقد انتفخ منخراه وحملقت عيناه حتى لتتوهم أنك تسمع صهيله وتخاف أن يزلّ حافره فيقع فارسه عنه، على أنك تتحقق ثبوت ذلك الفارس مما تتوسمه في ساقه من الجهد الظاهر بانقباض عضلاتها حتى توترت العروق وبرزت.

ورأينا في بعض جوانب الناووس صورة تمثل خروج القوم للصيد وقد أطلقوا كلابهم وفهودهم وأرسلوا أفراسهم، فوثب أسد على أحد الفرسان حتى أنشب براثنه بكتف الفرس وأغرس نابيه بصدره. وقفنا عند هذا المنظر ساعة ونحن نتفرس بما على وجه الفرس من مظاهر الألم والغضب، وكأنه يحاول

النهوض على قدميه لعله يفلت من براثن الأسد. والأسد قد كشّر حتى بانت أنيابه، وقد أنشبت في صدر الفرس فمزقت الجلد وبان اللحم من تحته. وفي وجه الأسد وعينيه ملامح الظافر الكاسر، وترى أظافره قد مَزّقت كتف الجواد، وكأنك ترى اللحم يقطر دمًا من خلال الجلد الممزق.

ورأينا على جانب آخر من الناووس صورًا أخرى، بعضها يمثل امرأة حزينة ضاع ابنها أو قتل زوجها وتكاد تسمع صوت نحيبها. والظاهر أن تلك النقوش كانت في أول أمرها أقرب إلى تمثيل الطبيعة بقدرٍ أو أسلاك من ذهب أو نحوها، مثلوا بها أزمّة الخيل وأوتار الأقواس وقنا الرماح وقد ذهبت لطول عهدها. ويظهر أيضًا أن بعض تلك الصور كان ملونًا بألوان تقرّبه من الطبيعة كالأحمر يمثل الدم في الجروح ونحو ذلك. وبالجملة أن هذا الناووس أعجوبة من أعاجيب الإتقان الفني، ولا نظن الصناعة بلغت إلى أتقن من ذلك من أقدم أزمانها إلى الآن.

وفي المتحف ما عدا ذلك كثير من الآثار البيزنطية والفارسية والفينيقية والرومانية لا بأس بها، لكنها لا تُذكر في جانب ناووس الإسكندر. وهناك تماثيل حثّية وجدوها في زنجرلي، وناووس من رخام أسود فينيقي عليه كتابة هيروغليفية، يقال إنه كان فيه جثة مدفونة سنة 2006 ق.م. وفي الطبقة العليا من المتحف صوَر دينية مسيحية مرسومة بالفسيفساء (موزايك) بينها صور قديسين عليها كتابة يونانية. ورأينا في إحدى الغرف العليا عالمًا أثريًّا يحل رموز بعض القرميدات الآشورية وعليها كتابة بالحرف المسماري، قرأ لنا بعضها فإذا هي صكوك وعقود وقوائم حساب.

(2) متحف چينلي

هو تجاه المتحف العثماني وأقدم منه واجهته مغطاة بالفسيفساء الزرقاء، وقد كتب عليه أن محمد الفاتح بناه بعد الفتح سنة (860هـ) ثم أصلحه مراد الثالث. ولعله كان مبنيًّا وأدخل الفاتح تغييرًا في بنائه. وهو مؤلف من طبقتين ويحتوي على آثار إسلامية أكثرها عثماني، في جملتها صورة خير الدين باشا (بربروسا) على حجر. وكثير من أجنحة الأبواب الإسلامية والسجاد الثمين والأدوات التاريخية، بينها كرسي كان يجلس عليه السلطان سليم الثالث كثير الشبه بكراسي

هذه الأيام الاعتيادية ظهره مكسو بالمخمل الأحمر. وكرسي آخر لمحمد الفاتح أكبر من ذاك مكسوّ بالمخمل، وحول قوائمه شراريب القصب، وله ذراعان يستند الجالس عليهما.

ورأينا كثيرًا من الأدوات الفلكية كالإسطرلاب والكرة، وفيها كرة من نحاس عليها رسم الأرض يقال إنها من عهد السلاجقة. وركاب للخيل من الذهب وصورة السلطان سليم الثالث بالزيت، وهي في اعتبارنا أول صورة حقيقية لسلاطين آل عثمان لأنهم لم يكونوا يأذنون بتصويرهم من قبل، ومصباح من البللور عليه أشعار منقوشة بالمينا من زمن السلطان محمود الثاني.

(3) متحف طوب قبو

ونريد به مستودع التحف والجواهر المخزنة في سراي طوب قبو. وهي عبارة عما بقي من تحف الفرس والعرب والروم والأتراك تجمعت بتوالي الأجيال من الغنائم والهدايا. وكانت هذه التحف محفوظة في صناديق بسراي طوب قبو فأمر السلطان عبد العزيز بإخراجها وترتيبها، فوضعوها في واجهات من زجاج بالبناء الذي كان يقيم فيه إمبراطور الروم قبل الفتح العثماني وهو من جملة تلك السراي. حبسوها هناك وأقفلوا عليها بالأختام فلا يسمح برؤيتها ولا دخول تلك السراي إلا بإذن خاص من جلالة السلطان.

وقد صدرت لنا الإرادة السنية بذلك، بناء على التماس رئيس مجلس المبعوثان، فتفرغنا لدرسها يومًا مخصوصًا وإليك خلاصة ذلك الدرس.

سراي طوب قبو

واقعة بجانب جامع أيا صوفيا والضربخانة، على الهضبة الأولى من هضاب إستامبول. وهي عدة أبنية وقصور يتصل إليها من جهات مختلفة، ونحن واصفوها كما دخلناها. دخلناها من الباب المواجه لسبيل السلطان أحمد، وإذا أعدتّ النظر على صورة ذلك السبيل كما نشرت في الهلال رأيت الباب في طرفها إلى اليسار، وهو أول أبوابها من هذه الجهة ويقال له «باب همايون». دخلنا فيه إلى بقعة مسورة أشبه بطريق خربة فيها أشجار ضخمة من السرو. وإلى يسار المدخل بلصق السور

بضعة قبور حجارتها حمراء، بينها قبر قسطنطين الذي غلبه العثمانيون. ووراء ذلك إلى اليسار باب متحف السلاح، وسنعود إليه.

اجتزنا تلك البقعة وطولها نحو 400 متر إلى باب آخر هو الأوسط ويسمى «أورته قبو»، قد كتب على عتبته العليا «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وعلى جدرانه من الداخل أسلحة عثمانية قديمة بينها بلطات وبنادق قد نزل فيها الذهب على أشكال مختلفة منها على البلطات «هو الفتّاح». دخلنا هذا الباب إلى ساحة أخرى أشبه ببستان مهمل، فيه أشجار ضخمة أكثرها من السرو طولها إلى الباب الثالث نحو 300 متر. في آخرها إلى اليسار بناء يممنا نحوه فوجدناه غرفة كبيرة مملوءة بالأوراق المتراكمة، هي سجلات الحكومة متروكة بلا نظام تشبه الدفترخانة لكن بدون ترتيب. وقد أصاب الحريق بعض أطرافها، ولا يظهر أن الحكومة تحتاج إلى شيء منها. وتأملنا هذه القاعة فإذا هي قبة كبيرة اسمها «قبة آلتي» كان يجتمع فيها الوزراء. وفي أعلى الحائط المقابل شبه شباك بارز من النحاس كان يجلس السلطان فيه ليشرف على أعمال الوزراء وهم مجتمعون.

ومن أدلة احترام هذه القاعة في عهد السلاطين القدماء أن الوزير كان بعد دخوله باب «أورته قبو» يتجه نحو هذه القبة، وقبل الوصول إليها بمائة متر يسجد عند مصطبة مستديرة في وسطها سروة ضخمة سجودَ الاحترام، ثم يمشي خمسين مترًا ويسجد عند مصطبة أخرى مثلها، ويسجد المرة الثالثة عند بابها ثم يدخل.

وتنتهي هذه الساحة بالباب الثالث واسمه «أقالر قبوسي» أي باب الخصيان البيض. وبين يديه مغرس العلم في حفرة خاصة بذلك. وهو باب فخيم نقش فوقه: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وفي قفا هذا الباب من الداخل أسماء السلاطين مكتوبة بالذهب وبينها طرتان. ويُتّصل من هذا الباب إلى أبنية كثيرة وقصور جميلة، أولها مما يلي الباب بناية يسمونها «العرض» كان السلطان يجلس في قاعة منها كبيرة لمقابلة من يأتيه لعرض شيء. صعدنا إلى تلك القاعة فوجدنا في صدرها مجلسًا كالسرير طوله نحو أربعة أمتار، كان يجلس السلطان في صدره على مقعد ثمين ويجلس العارضون بين يديه جثوًا. وفي الحائط بجانب السرير حنفية ينطلق منها الماء بشدة وله خرير قويّ، فكانوا يطلقونه وهم مجتمعون حتى يمنع مَنْ بالباب من الخدم أو غيرهم من سماع المداولة.

وقد أبدلوا هذه الطريقة من التكتم بعدئذ باحتياط آخر. وذلك أنهم استخدموا في أمثال هذه الأحوال خدمًا صمًّا.

وبالقرب من هذا البناء بناء آخر فيه مكتبة نفيسة كُتبها مرتبة في خزائن، وكلها خطية ومجلدة تجليدًا عربيًّا على كل كتاب اسمه واسم مؤلفه، وهي مقسمة حسب الفنون والمواضيع، وعدد مجلداتها نحو 3000 مجلد.

تحف آل عثمان

وبعد هذا البناء نحو اليمين قصر قسطنطين، وهو السراي القديمة التي كان إمبراطور الروم يسكنها وفيها التحف التي نحن في صددها. فلما أشرفنا عليها تقدم رئيس الخصيان المنوط به أمرها ففضَّ ختمًا كان على بابها بعد أن تفرّس فيه وتحقق سلامته وأذن بدخولنا، فاستوقف نظرنا لأول وهلة لمعان الجواهر، وبهرنا ما لقيناهُ في ذلك المكان من التحف التي لا مثيل لها في العالم. ولا يسع المقام شرح كل ما حواه ذلك المعرض، فنأتي بأهم ما فيه كما رأيناه.

فالمعرض المذكور مؤلّف من ثلاث غرف كبيرة فوقها ثلاث غرف مثلها حول جدرانها وفي وسطها الخزائن والمواقف مسيجة بصفائح الزجاج، وفيها التحف متراكمة أو متراصة لكثرتها وضيق المكان عنها. ولو أريد عرضها كما يفعل الإفرنج في متاحفهم لاقتضى لها بضع عشرة غرفة مثل هذه. وأهم تلك التحف:

(1) عرش إسماعيل شاه: إنه أول ما استلفت انتباهنا عند دخولنا المعرض، وهو كرسيٌّ يتألق بالجواهر قائم في وسط الغرفة الأولى ضمن خزانة من الزجاج. هو عرش إسماعيل شاه ملك الفرس غنمهُ منه السلطان سليم الفاتح سنة 1514م وكان قد حمل عليه حتى حصره في تبريز ففرَّ منها إسماعيل شاه وغادر معسكره بما فيه من النساء والمجوهرات والتحف والأموال، فاستولى عليها السلطان سليم والعرش المذكور في جملتها. واستعاض الفرس بعده بعرش فتح علي شاه، ثم عرش الطاووس، وكلاهما مرصع بالجواهر الثمينة.

وعرش إسماعيل هذا كرسي من الذهب الخالص له أربع قوائم، وقد رصّع هو وقوائمه باللؤلؤ والألماس والزمرد. شكله إهليلجي، طوله نحو متر ونصف

وعرضه نصف لك. وظهره بشكل المثلث في وسطه، ثم يمتد إلى الجانبين ويلتف قليلًا نحو الأمام بحيث لا يبقى من المحيط إلا مكان يدخل منه الشاه. وكان يصعد إليه فوق كرسي صغير لهُ أربع قوائم محجرة أيضًا، فإذا صعد الشاه إليه قعد الأربعاء [أي متربعًا]. وهو يسع رجلًا آخر يجلس معه.

كنار هذا العرش وقوائمه مصنوعة من الذهب، وقد رصعت باللؤلؤ صفوفًا، اللؤلؤة بإزاء اللؤلؤة في حبال متعددة، واللؤلؤة بحجم العدسة الكبيرة لكنها كروية. فاللؤلؤ المذكور مصوغ على الذهب في صفوف مزدوجة، الزوج الأول منها عند حافة الكرسي من الأعلى يظهر في الصورة عند التأمل، والزوجان الآخران في الأسفل حول القاعدة. وبين هذين الزوجين صف من الألماس والزمرد والياقوت. وبين القاعدة والحافة العليا مربعات منحرفة من حبال اللؤلؤ أو هي شبكة من تلك الحبال. وفي المربعات المذكورة بالوسط والمثلثات على الجانبين حجارة كبيرة من الياقوت والزمرد والألماس. وبين الشبكة المذكورة والصفين حول القاعدة زوج رابع من حبال اللؤلؤ، يتصل بالزوج العلوي عند طرف هذا الكنار بالأمام. غير ما على الطرّاحة من التطريز على دائرها. واعتبر ذلك بالقوائم، فإنها مرصعة بحبال من اللؤلؤ بينها حجارة الألماس والياقوت والزمرد، فإذا حسبنا طول هذه الحبال على الكرسيين الكبير والصغير ربما بلغ طولها خمسين مترًا أو ستين.

فاعتبرْ كَمْ في المتر الواحد من هذا الحَبّ وهو متلاصق الواحدة بإزاء الأخرى وكم قيمة اللؤْلؤَة بحجم العدسة الكبيرة إذا تكورت. وأضف إلى ذلك الأحجار الأخرى في الأخلية بين اللؤلؤ والذهب المصنوع الكرسي منه، تتضح لك قيمة هذا الكرسي المالية فضلًا عن قيمته التاريخية.

(2) الأبسطة المرصعة: ذكر المؤرخون في جملة ما غنمه العرب من المدائن بعد فتحها «بساطًا طوله ستون ذراعًا وعرضه ستون ذراعًا فيه طرق كالصور وفيه فصوص كالأنهار وأرضها مذهبة وخلال ذلك فصوص كالدر ...إلخ»، وذكروا لأم الخليفة المستعين بساطًا عليه صورة كل حيوان من جميع الأجناس، كل طائر من ذهب وأعينها يواقيت وجواهر. وكنا إذا قرأنا ذلك وقفنا ننظر في ما يشتمل عليه من المبالغة، فأصبحنا بعد أن شاهدنا أبسطة آل عثمان في سراي «طوب قبو» لا نستغرب شيئًا من هذا القبيل.

رأينا ثلاثة أبسطة من الحرير معلقة بالحائط داخل خزائن من الزجاج اثنان منها سكريّا اللون والثالث زهريّهُ (بمبه)، طول كل منها متران وأكبرها عرضه متر ونصف، وهي مطرزة باللؤلؤ تطريزًا جميلًا على أشكال هندسية أو طبيعية، كما تطرز الستائر بالزوايا والمربعات والمثمنات أو الدوائر والأقواس. لما وقع نظرنا على هذا التطريز حسبناه لأول وهلة زركشة بالحرير على شكل الأغباني. ولما تفرسناه وجدناه تطريزًا باللؤلؤ الجميل المتناسب بحجم اللؤلؤ على عرش إسماعيل شاه. وفي البساط الأكبر عدة صفائح من ذهب بحجم الكف، بينها صفائح أصغر منها بشكل الكواكب متفرقة، وكل منها مرصع بالزمرد والياقوت والألماس، بينها زمردات بحجم اللوزة. وفي وسط البساط الزهري اللون بقعة مستديرة قطرها 25 سنتيمترًا وقد طرزت على شكل جميل بلؤلؤ كبير، حجم اللؤلؤة منه نحو البندقة، وعدد اللؤلؤ الداخل في هذه البقعة 69 لؤلؤة.

(3) درع مرصعة: هي درع مراد الرابع كاملة بالخوذة والصدرة والزندين والركبتين والكفين والكتفين والساقين. مصنوعة من الفولاذ المذهب صنعًا متقنًا، وقد رصع كتفاها وكمّاها وساعداها ومنطقتها بالألماس. وفي وسط المنطقة ألماسةٌ كبيرة تختطف البصر. وهناك أدراع كثيرة مرصعة لسلاطين لا نعرف أسماءهم.

(4) ألبسة السلاطين: رأينا في إحدى الغرف العليا أثواب السلاطين الرسمية، من محمد الفاتح إلى السلطان محمود الثاني، ملبسة على أعمدة قائمة، فتظهر كأنها على السلاطين وفوقها العمائم بدون رؤوس. وعلى كل عمامة ما كان عليها من الحلي والمجوهرات التي كان صاحبها يزينها به في حياته، يختلف شكلها باختلاف السلاطين. وحول خصر كل سلطان المنطقة التي كان يتمنطق بها وفيها خنجره. فالسلاطين المعروضة ثيابهم هناك 24 سلطانًا هذه أسماؤهم: محمد الفاتح (الثاني)، بايزيد، سليم الأول، سليمان الأول، سليم الثاني، مراد الثالث، محمد الثالث، أحمد الأول، مصطفى الأول، عثمان الثاني، مراد الرابع، إبراهيم الأول، محمد الرابع، سليمان الثاني، أحمد الثاني، مصطفى الثاني، أحمد الثالث، محمود الأول، عثمان الثالث، مصطفى الثالث، عبد الحميد الأول، سليم الثالث، مصطفى الرابع، محمود الثاني.

ولا يخفى ما في عرض أثواب هؤلاء السلاطين على هذه الصورة من الفائدة التاريخية، فيخيل للواقف أنه يرى جندًا من السلاطين، وإذا قابل بين أشكالها ظهرت الفروق التي حدثت بين الملابس بتوالي الأجيال. على أن الفرق كان قليلًا إلا في الأزمنة الأخيرة، فثوب كل سلطان جبة تحتها فراجية أو قفطان من نسيج الأسطوفا، وحول الخصر منطقة، وعلى الأكتاف فوق الجبة العمامة. وكانت العمامة في أكثر هذه المدة كروية الشكل كما ترى في ثياب السلطان سليمان.

وإنما يختلف السلاطين بألوان ألبستهم وبما على عمائمهم أو على خناجرهم من الحلى. فالسلطان محمد الثاني، أولهم، كان ثوبه زهري اللون، مخططه بلا فاصل واضح بين الألوان، وعلى قبضة خنجره ثلاث زمردات في غاية الصفاء والجمال بيضية الشكل، طول الواحدة 4 سنتيمترات، مصفوفة صفًّا واحدًا على طول القبضة مما يبهر النظر. وعلى عمامته حلي يشبه الريشة مرصع بالألماس والزمرد، وفي جملة ذلك زمردة أكبر من زمردات الخنجر. وعلى عمامة بايزيد طرة محجرة، وعلى عمامة السلطان سليم ريشة محجرة، وكذلك السلطان سليمان.

وبدأ شكل العمامة يتغير من السلطان محمد الرابع، وفي وسط طرة هذا السلطان زمردة كبيرة. وفي طرة سليمان الثاني زمردتان كبيرتان أكبر من زمردات خنجر السلطان محمد وياقوتة حمراء مساحتها ثمانية سنتيمترات في سبعة وفوقها لؤلؤتان كل منهما بقدر اللوزة. وإليك صورة عبد الحميد الأول وصورة سليم الثالث وعلى عمامتيهما ما يقرب من ذلك.

(5) تمثالان من اللؤلؤ: رأينا على أحد الرفوف تمثالين صغيرين من الذهب يمثلان ملكًا من ملوك فارس وخادمه، طول الواحد نحو 12 سنتيمترًا، صدر أحدهما لؤلؤة واحدة كبيرة، وفخذا الآخر لؤْلؤَتان. واللؤلؤ إذا كبر تضاعفت قيمته كثيرًا كما لا يخفى.

(6) تواليت محجرة: التواليت في اصطلاح الإفرنج مرآة تتحرك بين ذراعين قائمين على قاعدة لها أدراج. ويضعونها على طاولة لترى المرأة وجهها فيها وهي واقفة. فشاهدنا مثل هذه التواليت بين تحف آل عثمان قطر مرآتها 40 سنتيمترًا، وطول الطاولة الموضوعة عليها نحو متر، والطاولة بما عليها مرصعة بالألماس

في كل أجزائها، على إطار المرآة والقائمتين والقاعدة، وفي وجوه الأدراج وسطح الطاولة وقوائمها. وكل ما يظهر من هذه التواليت مرصع بالألماس مما يبهر النظر، وهي هدية من الإمبراطورة كاترينة لبلطجي باشا في أثناء حرب الدولة العلية والروس على عهد السلطان أحمد الثالث المتوفى سنة 1702.

(7) عرش السلطان أحمد الثالث: مصنوع من الباغة، وهو مخصوص ليوم عرفة، ومرصع بالزمرد والصدف، وفي صدره زمردتان كبيرتان، بينهما ياقوتة وزمردة فوقها دائرة من ذهب منقوش.

(8) ثلاث زمردات: إحداها بحجم الكف وزنها كيلوغرام ونصف ولكنها ليست تامة الصفاء. والزمردة الثانية كروية الشكل أصغر من هذه. والثالثة إهليلجية الشكل، وهما كبيرتان أيضًا وليس فيهما صفاء زمردات خنجر محمد الفاتح.

(9) أدوات مختلفة: شاهدنا هناك طشتًا وإبريقًا من الذهب، منزل فيهما مينا أزرق ومرصعين بالألماس والياقوت والزمرد، ومواعين كبيرة (سلطانيات) بعضها مملوء زمردًا والبعض الآخر ياقوتًا، وصحونًا فيها معالق محجرة وأباريق محجرة، ولؤلؤة مفردة بقدر البيضة الصغيرة. وشيشة (نرجيلة) مصنوعة صنعًا متقنًا بحركة ميكانيكية سرية. حول قرصها تحت الرأس صفيحة عليها تماثيل من الذهب والفضة، إذا دخن بها مدخن تحركت التماثيل حركات رقص أو نحوها. ورأينا مراوح محجرة وسرج فرس ركاباه من الذهب محجران بالألماس والياقوت، والسرج نفسه محجر بالزمرد والمرجان، وسرجًا آخر من الذهب مرصعًا وجكمجة (علبة) مصفحة بالكهرباء [يقصد الكهرمان] بأجمل صنع، وصورتي السلطان محمود الثاني والسلطان عبد المجيد بالحجم الطبيعي، وسيف السلطان بايزيد وسيف محمد الفاتح مرصعين ومنزلين بالذهب. وعشرات من الصحون الصينية قالوا لنا إنها من صحون الدولة العباسية عليها نقوش عربية. وهي من الآثار الثمينة بالنظر إلى مادتها، فضلًا عن قيمتها التاريخية. واستلفت انتباهَنا بنوع خاص أمواسٌ وصوان، لكل سلطان صينية وموسى، هو الموسى الذي اختتن به، ولكنها من الذهب مرصعة بالألماس. ناهيك بما هنالك من الطاسات المرصعة والمنزلة بالميناء. وكرة من الذهب مرصعة بالألماس. وساعة شمسية حديثة.

وشاهدنا سيف قسطنطين صاحب القسطنطينية لم يبقَ منه إلا النصل مجردًا، وعدة مفاتيح مذهبة هي مفاتيح القلاع، شكلها جميل.

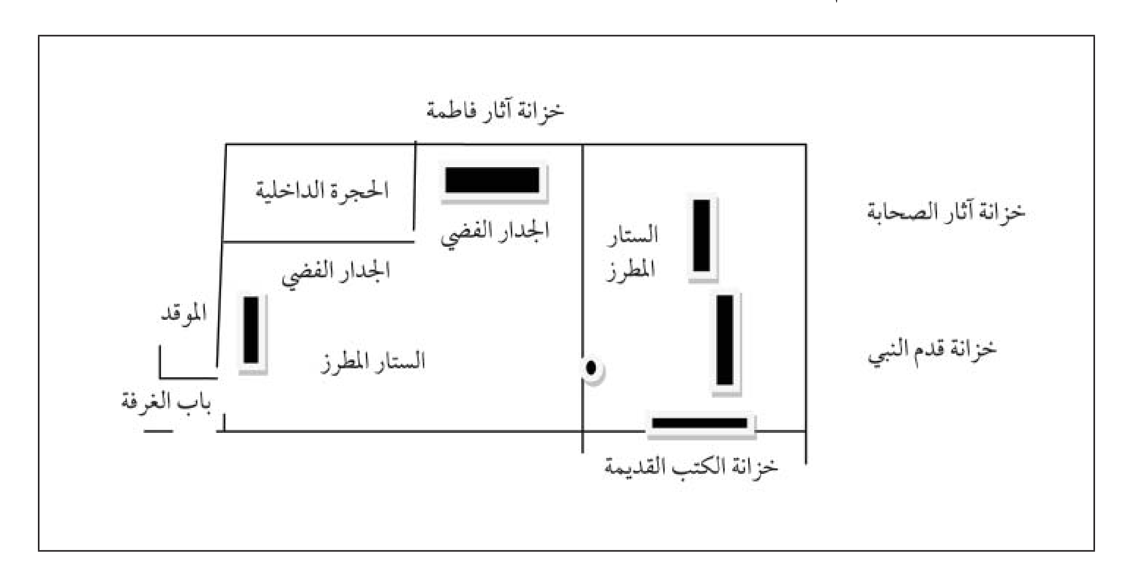
ورأينا بين المعروضات طاسة صغيرة (سلطانية) فيها سبحة السلطان عبد الحميد التي ردّدت ذكرها الصحف وقدروها بمبلغ 75.000 جنيه، وهي من اللؤلؤ النظيف، حبّاتها بحجم بذرة الزيتون، لكنها لا تذكر بجانب ما تقدم ذكره من التحف. وشاهدنا عدة ساعات مختلفة الأحجام من آثار عبد الحميد، ونيشان الشفقة من زمن عبد العزيز مرصعًا ومروحة مرصعة، وطاقم فناجين قهوة من الذهب كسرچفت مرصعًا بالألماس. وعددًا كبيرًا من البنادق المنزلة بالذهب والعاج، وأعلامًا من أذناب الخيل كان يمتاز بها الوزراء في القديم. ومن أغرب ما رأيناه هناك صور زيتية يزيد عددها على عشرين صورة بحجم النصف أو إلى الكتفين فقط. قالوا إنها صور خلفاء بني العباس وهي مرسومة بالألوان الزيتية ولكنها طبعًا مبنية على الخيال. وهناك أصناف من الصيني لا تعدُّ ولا تحصى. وبين هذه التحف مجموعتان من النقود الذهبية العثمانية مرتبتان في خزانتين منصوبتين في وسط غرفتين. على أن لذلك البناء نفسه قيمة تاريخية خصوصية لأنه مسكن إمبراطور القسطنطينية، ومنه أخذ.

ويقال بالإجمال أن تحف آل عثمان لا مثيل لها في دولة من الدول المتمدنة على ما نعلم. ولعل الحكومة العثمانية تعنى بترتيبها وعرضها، وتجعل لها دليلًا يذكر فيه تفصيل كل قطعة وأصلها وتاريخها ورسمها، وتتقاضى على رؤيتها رسمًا فتكون الفائدة مزدوجة، وبلغنا أنها تهتم بذلك الآن.

الآثار النبوية

دلنا الخبراء هناك على مكانين في طوب قبو يحتويان على الآثار النبوية الشريفة، أحدهما بجانب المكتبة التي تقدم ذكرها كان مقفلًا، والآخر في قاعة كبيرة يقدسونها كالمساجد ويسمونها «خزنة همايون» يحيط بها رواق مفروش بالحصر. جدارها مبطن من خارج ومن داخل بالقيشاني الثمين، وقد علقوا على ظاهرها مئات من البنادق مكسوة بالنسيج الأحمر ومرتبة صفوفًا أفقية بينها مسافات متناسبة. ويقال إن السلطان سليمًا حملها إلى هناك من حروبه في الآفاق.

دخلنا تلك القاعة باحترام وتهيب فرأينا مساحتها تزيد على عشرين مترًا في عشرة أمتار، أرضها مفروشة بالسجاد وفي أكثر أطرافها مقاعد ثمينة، وفي سقفها مصابيح مذهبة. مشينا إلى منتصفها فأومأ إلينا القيّم أن نتحول نحو اليسار فتحولنا إلى باب عليه ستارتان كثيفتان وبجانبه علم أخضر ملفوف قبّله الجميع. ثم أشار الرجل بهدوء وسكينة أن ندخل فدخلنا من ذلك الباب إلى الغرفة التي فيها الآثار النبوية. وهي مربعة الشكل مساحتها نحو عشرة أمتار بعشرة وقد قسمت إلى ثلاثة أقسام الواحد داخل الآخر.



تصوّر غرفة مربعة بابها في الجزء الجنوبي من جدارها الغربي، إذا دخلتها كان الجدار الشرقي أمامك والزاوية الغربية الشمالية إلى يسارك. فهذه الزاوية قد أغلقت بحائطين من الفضة المخرمة يقابلان جانبيها، بحيث يتكون من ذلك حجرة مسقوفة بقبّة من الفضة. والحجرة المذكورة مساحتها ثلاثة أمتار في مثلها. جداراها الشرقي والجنوبي من الفضة كما تقدم، علوهما ثلاثة أمتار أو أكثر. وقد تدلى عليهما من الظاهر ستارتان قصيرتان من الأطلس المطرز لا تحجبان نظر الواقف. وقد طرز على إحداهما «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي وكفى بالله شهيدًا محمد رسول الله».

وفي هذه الحجرة ثلاث دكك، اثنتان ملاصقتان للجدار الغربي، طول الواحدة منهما متر وبعض المتر، وفوق كل منهما صندوق محلّى بمخمل أخضر

مزركش. في أحدهما العلم النبوي وفي الآخر البردة، لا يفتحان إلا بحضور جلالة السلطان مرة في السنة، والدكة الثالثة ملاصقة لجدار الفضة الجنوبي ليس عليها شيء. وباب الحجرة في جدارها الشرقي، إذا وقفت به وقفة الداخل استقبلت الدكتين أمامك وعليهما الصندوقان المذكوران. فالسلطان يدخل من هذا الباب للتبرك من ذينك الأثرين. أما باقي الآثار النبوية، ففي المكان الذي تقدم ذكره بجوار المكتبة.

ويقطع الغرفة وراء الجدارين الفضة وعلى بضعة أمتار منهما، ستارتان على موازاة ذينك الجدارين. إذا أرخيتا تألف منهما، ومن الجدارين حجرة خارجية بشكل الزواية، تشتمل على الحجرة الداخلية المربعة الحاوية للآثار النبوية. والستارتان المشار إليهما من الأطلس الأخضر، عليهما طراز من الذهب فيه آيات وأحاديث في أجمل ما يكون. وهما تتدليان من عارضتين أفقيتين يتكون عند ملتقاهما زاوية مرتكزة على عمود من الفضة. والقسم الباقي من الغرفة الكبرى بين هاتين الستارتين والجدارين الشرقي والجنوبي فراغ بشكل الزاوية. فتكون الغرفة مقسومة على الصورة التي رسمناها كما علقت بذهننا.

وقد شاهدنا على بعض جدران الغرفة وجدران الحجرة قطعًا من ستارة الكعبة مختلفة الحجم، معلقة هنا وهناك وعليها طرازها المعلوم. وفي جدار الغرفة الشمالي بين الستارة والحجرة الداخلية خزانة رأيناها مقفلة، وعلى قفلها ختم أحمر لا يجوز فضّه. وأخبرنا حارس الآثار أن في هذه الخزانة مخلفات السيدة فاطمة الزهراء بنت النبي، وفيها مشطها وسواكها ومكحلتها ومرآتها، وقد أقفلها السلطان عبد المجيد وختم عليها منذ نصف قرن ولا تزال مقفلة من ذلك الحين.

وفي الجدار الشرقي خزانتان فتحوهما لنا. في إحداهما مخلفات بعض الصحابة والأئمة موضوعة في علب أو صرر على رفوف، وكل علبة أو صرة مكسوة بالجوخ الأخضر، وفي كل منها أثر من الآثار، بينها علبة فيها فراجية أبي حنيفة النعمان، وأخرى مخلفات الإمام علي أو غيره من كبار الصحابة، ونصوص أصلية لأهم العقود والعهود الإسلامية.

وفي الخزانة الأخرى آثار أخرى، شاهدنا بينها رفًّا عليه علبة من الذهب الخالص يأخذ لمعانها بالبصر مفتوحة وفي داخلها رسم قدم النبي، منقوش في رخامة من المرمر بالحجم الطبيعي. وبين الخزانتين لوحة معلقة على الحائط، وقد كتب فيها القرآن على أشكال هندسية بخط دقيق لكنه واضح جميل.

وهناك خزانة أخرى فيها كتب قديمة من رقوق أو جلود، في جملتها قرآن أخرجوه لنا باحترام ووقار، وهو مكتوب بالكوفية على رقوق قد تهرأت من تقادم عهدها، وحجم هذا المصحف نحو 35 سنتيمترًا في 25، قلّبه لنا الحارس وأرانا صفحاته حتى أتى إلى صحيفة عليها أثر الدم فقال: «هذا مصحف عثمان الذي كتبه بيده وكان يوم قتل يقرأ في هذه الصحيفة فلما شجوا رأسه سقط الدم عليها كما ترونه». وقال: «إن عثمان كتب بيده أربعة مصاحف ثلاثة منها موجودة هنا والرابع ضائع»، وهذا الاعتقاد شائع هناك لكنه يفتقر إلى إثبات وليس هذا محل تحقيقه.

وقرأنا على جدران الغرفة نقوشًا من آيات وأحاديث وأشعار، في جملتها بيت منقوش فوق عتبة الباب هو مطلع البردة:

أَمِنْ تذكّر جيران بذي سلم   مزجت دمعًا جرى من مقلة بدمِ

ورأينا في الحائط الغربي بجانب الباب بين الستارة والحجرة موقدًا تشعل فيه النار للاستدفاء في الشتاء، وهو مصنوع من البورسلين المذهب.

وفي الزاوية الشرقية الشمالية عمود العلم النبوي مشدود إلى الحائط. ومن الآثار الثمينة هناك ميزاب الكعبة من خشب الصندق أو العود ومنزل بالذهب. نقله إلى هنا السلطان مراد الرابع وجدد ميزابًا سواه، وهو الذي بنى هذه الغرفة وما يجاورها.

وبجانب هذه الغرفة مكتبة دخلنا إليها من باب قريب فإذا هي صغيرة وفيها كتب في الخزائن على غير نظام، ولكنها مبطنة بالقيشاني مثل سائر ذلك البناء، وسطحها قبة مبطنة برقوق الغزلان، عليها رسوم ونقوش مذهبة وآيات وقد تهرأ بعضها فتقطع وأزيح من مكانه، فتحقق لنا أنه رق.

وأرونا بجانب خزنة همايون عند مدخلها الخارجي غرفةً فيها مجالس، قالوا إنهم يسمونها «سنة أوطه سي» كانوا يختنون فيها أولاد السلاطين. وفي إحدى نوافذها شبه مغطس من رخام كانوا يغسلون به الأطفال بعد الختان.

قصر بغداد

هو أجمل قصور سراي طوب قبو وأقربها إلى البحر بجانب البناء الذي فيه خزنة همايون. سمّي قصر بغداد لأن السلطان مراد نقله من بغداد، ولعله نقل أجزاءه والتحف التي زخرفه بها. وإنما المتواتر أنه نقله برمته بعد النصر الذي أوتيه هناك. وهو بناء جمع بين إتقان الصناعة وجمال الشكل وحسن الموقع. أجمل ما فيه قاعة كبيرة مكسوة بالقيشاني من الظاهر والداخل، لها رواق قائم على أساطين مزخرفة، والقاعة المذكورة كثيرة النوافذ والمجالس تعلوها قبة مبطنة برقوق الغزلان عليها رسوم مذهبة. وشاهدنا فيها مقعدًا قديم العهد يشبه المقاعد الإفرنجية، عليه كساء من الأطلس المطرز وقد تهرأ من طول المكث. ويقال إنه من جملة بقايا إمبراطور الروم.

وفي هذا القصر كان يجلس السلطان عبد الحميد إذا جاء لزيارة الخرقة الشريفة، وربما جلس في الرواق وأطلّ منه على البوسفور، فإنه منظر يستوقف الخاطر ويشرح الصدر.

(4) معرض السلاح في كنيسة ايريني

ايريني إمبراطورة رومانية تولت عرش القسطنطينية في أواخر القرن الثامن للميلاد وإليها تنسب هذه الكنيسة. ويقال إن قسطنطين الكبير بناها قرب القصر الإمبراطوري في تلك الجوار فاحترقت في أيام يوستنيان فأعاد بناءها ثم تهدمت بزلزال في القرن الثامن فأعيد بناؤها. ولما فتح العثمانيون القسطنطينية لم يحولوها إلى جامع لكنهم جعلوها مخزنًا للسلاح. وهي الآن إلى يسار الداخل في الباب الخارجي من أبواب سراي طوب قبو. دخلناها من باب كبير إلى دهليز منحدر، أرضه مرصفة ببلاط ضخم متداخل. طوله نحو خمسين مترًا ينتهي إلى صحن الكنيسة في اليسار وهي هائلة السعة، ربما يبلغ طولها مائة متر في خمسين: في

صدرها مكان الهيكل بشكل نصف قبة، في أعلاه رسم الصليب، وفيه مقاعد تتدرج علوًا من الأرض على شكل أمفيتياتر علقوا عليه الأدراع والأتراس. والكنيسة ملأى بالقوائم والمواقف في أرضها، وقد وضعوا عليها البنادق وضعًا متناسقًا، فضلًا عما علقوه من البنادق والبلطات في جدرانها، وهناك كثير من الخوذ والأدراع على اختلاف الأشكال. وقد استلفت انتباهنا في هذه الكنيسة دهليز في صدرها مبني وراء الهيكل بشكل نصف دائرة، له بابان أحدهما إلى يمين الهيكل والآخر إلى يساره، وقد بني بشكل هندسي يسهل به انتقال الصوت وتجمّعه. فالواقف في أحد هذين البابين إذا تكلم همسًا سمعه الواقف بالباب الآخر واضحًا كأنه يتكلم في أذنه، وبين البابين نحو 25 مترًا، ويساعد ذلك على مخابرة الكهنة في أثناء خدمة القداس إذا احتاجوا إلى شيء، بدون أن يستلفتوا سمع الحاضرين. وفي كنيسة القديس بولس في لندن اليوم حيلة مثل هذه.

سلسلة قرن الذهب

ووراء صحن الكنيسة غربًا إلى يمين المنحدر من الدهليز خلاء الكنيسة الخارجي وفيه بعض الأنصاب والقبور، وأهم ما شاهدناه فيها السلسلة التي نصبها الروم في عرض قرن الذهب عند مدخله ليمنعوا سفن الأعداء من دخوله. وقد ذكرنا خبر هذه السلسلة في تاريخ فتح القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح في الهلال العددان 17 و18 من السنة السادسة، بعد أن فصلنا حصون هذه المدينة برًا وبحرًا وجهاد العثمانيين في فتحها عبثًا. قلنا: «ومما زاد المدينة امتناعًا إقفال ميناها عند قرن الذهب بالسلسلة الضخمة مع سهر سفن الروم هناك ليمنعوا دوارع العثمانيين من الدخول، فأيقن السلطان أن المدينة لا تؤخذ إلا إذا هوجمت من البر والبحر معًا، وكاد العثمانيون ييأسون من الفتح، فارتأى السلطان محمد الفاتح رأيًا يكاد يعد تنفيذه من المعجزات وذلك أنه لما رأى المدينة ممتنعة بأسوارها من جهة البر وبدوارعها من جهة البحر وأنها لا تؤخذ إلا إذا هوجمت من البر والبحر معًا وإن دوارعه ممنوعة عن قرن الذهب بالسلسلة الحديدية تخفرها الحامية من السفن القوية، عمد إلى نقل عمارته من البوسفور إلى قرن الذهب عن طريق البر إلى غلطه. ولا يخفى ما يحتاج إليه هذا المشروع من الهمة والإقدام لأن المسافة

بين مرسى سفنهم في البوسفور والمكان الذي عزموا على نقلها إليه في قرن الذهب لا يقل طولها عن ستة أميال على ما رواه همر (وقال جبن عشرة) فضلًا عن وعورة الطريق وفيها المرتفعات والمنخفضات والغابات من الشجر الغض مما لا يتيسر جر السفن عليه والناس يحملونها. فاقتضت همة هذا الرجل العظيم أن يبني في تلك المسافة رصيفًا من ألواح الخشب متحاذية يدهن سطحها بالشحم تسهيلًا لانزلاق السفن عليها وشرعوا في العمل في أول الليل فرفعوا السفن إلى الشاطئ فوق ذلك الرصيف وجروها فوق الأخشاب على محادل من الخشب إذا تدحرجت بينها وبين الرصيف سهلت انزلاقها، فقضوا تلك الليلة في جهاد وهم يحذرون أن تعلم بهم حامية المينا، فلم يصبح الصباح إلا وقد سبحت العمارة العثمانية في قرن الذهب ورجال الحامية لا يعلمون».

فهذه السلسلة رأيناها في حجرة بجوار كنيسة ايريني وقد تراكمت مثل التل الكبير وهي من الحديد المطرق. حلقاتها مستطيلة إهليلجية الشكل، ربما بلغ طول الحلقة منها نصف متر وثخن حديدها مثل زند الشاب النحيف، وأثر التطريق ظاهر في الحديد رغم ما يكسوه من الصدأ. وطول هذه السلسلة نحو خمسمائة متر، فإذا اعتبرنا طول الحلقة 50 سنتيمترًا غير ما يضيع في تداخلها كان عدد الحلقات جميعًا 1.000 حلقة. وقد وقفنا عند هذه السلسلة حينًا ونحن نتذكر ونعتبر. وشاهدنا هناك أسلابًا مجرية اكتسبها العثمانيون في حروبهم.

وأرونا في غرفة أخرى طبولًا عثمانية تختلف عن طبول هذه الأيام كانت الدولة تستخدمها في أدوارها الأولى، والطبل شبه الحلة من النحاس مكسو بالجلد، وقد شُدّ إلى فتحته جلد أو رق يضرب عليه، نحو الطبول السودانية التي استعملها الدراويش في زمن المهدي. رأينا عشرات من هذه الطبول هناك تختلف أحجامها من قدر الحلة الاعتيادية إلى ما يبلغ ارتفاعه إلى أعلى صدر الرجل، ولهذه الأحجام المختلفة معنى في اصطلاحهم، فقد كان لكل قائد طبل يختلف حجمه باختلاف رتبته ومنصبه، وكلما علت رتبته كبر طبله.

وخارج هذه الكنيسة وبالقرب من بابها بضعة أضرحة عليها رخام أحمر قالوا إن أحدها قبر ملك الروم الذي فتحت القسطنطينية في أيامه، وقد أشرنا إلى ذلك

قبلًا، وهو الإمبراطور باليولوغس، وكانوا قد وجدوا جثته يوم الفتح بين القتلى وعرفوها من رسم النسر المزركش بالقصب على درع القدم فأمر السلطان محمد بدفنها بالإكرام فدفنوها في ذلك الجوار.

وقبل الخروج من سراي طوب قبو تعرفنا إلى كبار حفظتها من الخصيان، وهم طائفتان: البيض والسود. ويسمون البيض منهم «آقالر» والسود «طواشية» وهم رتب وطبقات، منهم البلطجي والزلفلي وغيرهم. وقد وعوا في صدورهم أسرار السلاطين ودخائل القصور. وهم على جانب عظيم من دماثة الخلق ولين الجانب.

(5) معرض الإنكشارية

لهُ بناء خاص يطل على أتميدان صعدنا فيه إلى قاعة كبيرة هي المعرض كله. وما هو إلا أصنام مثّلوا بها الإنكشارية وغيرهم من رجال الدولة الذين عاصروهم على اختلاف رتبهم وأحوالهم، من العسكري الصغير إلى الآغا الكبير ومن القاضي إلى الوزير وغيرهم، بملابسهم وأشكالهم. فاصطنعوا لهم وجوهًا طلوها بالألوان حتى تشبه أوجه الآدميين وألبسوها العمامة أو القاووق وزينوها بالشعر على الشاربين أو الذقن حسب الاقتضاء. واصطنعوا الأيدي أيضًا على هذا الشكل لأنها تظهر لا يكسوها اللباس. وأما سائر البدن فمكسو بالثياب على اختلاف الأنسجة والألوان، وفيها الجبة والقفطان والسراويل، كل واحد حسب رتبته وموقفه.

ورتبوا أولئك الأشخاص جماعات تتألف كل منها من بضعة رجال يمثلون جلسة من جلسات الإنكشارية أو الوزراء أو القضاة أو غيرهم، فلا يشك الناظر لأول وهلة أنه يرى أناسًا حقيقيين وربما أجفل من رؤية بعضهم لعظم هيبتهم وضخامتهم. ويقال بالإجمال إن تماثيل هؤلاء الناس أكبر من الحجم الطبيعي قليلًا، وربما تعمدوا تكبيرها ليراها الناظر عن بعد فتبدوا بالحجم الطبيعي، والجماعات 15، كل منها يمثل مجلسًا وهي:

1- سبعة أشخاص فيهم خادم الحرم وقزم بعمامته المستديرة المضحكة وجماعة من كبار الموظفين.

2- ضابط ورئيس فرقة وطباخ وسقّا.

3- ناظر البحرية والتشريفاتي والقبطان باشي، وبضعة من البحرية على اختلاف الفرق.

4- آغا الإنكشارية ونائبه وصاحب السجل ورئيس الحرس وغيرهم.

5- ناظر النافعة وكاتب السياسة وسكرتير الباب العالي وساع وقواص وخادم وجاويش.

6- ناظر الداخلية والباشكاتب، وضابط يمشي أمام الصدر الأعظم وسائر الوزراء، وضابط يتقدم الاحتفال، وصاحب البريد.

7- رئيس العلماء وقاضي الروملي وشيخ الإسلام وقاضي إستامبول وقاضي مكة ورئيس المدرسة وكبير الفقهاء والمؤذن ورئيس الفراشين.

8- الصدر الأعظم وقيم القصر ورئيس حرس القصر ورئيس المنفذين لأوامر الصدر.

9- ناظر الرسائل السلطانية ومدير الإسطبل ورئيس التشريفات وبعض أتباعهم.

10- موظفون مختلفون، فيهم صاحب الفلق وكاشف السرقات.

11- معاون رئيس مخازن الأسلحة وقائد بعض فرق الحرس ودار السلاح وجاويش وملازم.

12- مراقب بيت المال وصاحب الأوراق وصاحب دار الضرب وغيرهم.

13- ملازم رئيس الحرس ووكيل الخراج وأنفار من حملة البنادق.

14- قارئ الحكم بالإعدام ورئيس مكتب.

15- رئيس بلوك وغيره من الضباط على زمن السلطان سليم الثالث وقد أدخل في ملابسهم بعض التغيير.

وجملة الأشخاص الممثلين في ذلك المعرض 91 شخصًا على اختلاف الرتب والأحوال، وكل واحد منهم بلبسه الخاص برتبته ووظيفته على اختلاف الألوان والأنسجة فترى أشكالًا من العمائم والسراويل والنعال والجبب والقواويق والفرو وغيره.

6- حالتها الاجتماعية

سكانها

زارت لادي [الليدي] وورتلي مونتاغ الآستانة ثم كتبت تصف تعدد الأمم فيها فقالت: «إني أقيم في بلد كأنه برج بابل لكثرة اللغات الشائعة فيه. فإن أهل بيرا يتكلمون التركية واليونانية والعبرانية والأرمنية والعربية والفارسية والروسية والفلاخية والألمانية والنمساوية والإيطالية والفرنساوية والمجرية والإنكليزية. وأغرب من ذلك أن عشرًا من هذه اللغات يتكلمها أهل منزلي لأن سُيّاسي عرب وخدمي فرنساويون وإنكليز وألمان وحاضنتي أرمنية وجواريّ روسيات وبعض خدمي يونان وخادم مائدتي إيطاليّ وحرسي أتراك».

ذلك ما قالته لادي مونتاغ منذ قرن وبعض القرن وهو ينطبق على حال الآستانة اليوم، ولعلها أكثر طوائف ولغات مما كانت عليه يومئذ لتزايد المواصلات بتعدد وسائل النقل في القرن الماضي. ونحن لا نستغرب هذا الاختلاط كما استغربته الكاتبة المشار إليها لأن مصر أكثر أممًا وأجناسًا من سائر البلاد. وقد رأينا اللادي مونتاغ أغفلت ذكر اللغة الإسبانية وهي كثيرة الشيوع اليوم بين اليهود هناك، لأن أكثرهم نازحون من إسبانيا ويتفاهمون بلغتها فضلًا عن اللغة العبرانية.

على أن تعدد الأجناس في الآستانة طبيعي فيها لوقوعها بين قارتين وبحرين، يقصدها الناس للارتزاق أو السياحة من أقدم أزمانها، فقد كان سكانها القدماء من اليونان ولما دخلت في حوزة الدولة الرومانية وصارت عاصمة أحد شطريها نزح إليها الرومان ومن دخل في سلطانهم من الأمم في آسيا وأفريقيا وأوربا. ثم دخلت في حوزة الأتراك فأتوا إليها بمن دخل في جندهم من أصناف الناس ومن كان في حوزتهم من الأمم الشرقية وغيرها.

فالنظر في سكان الآستانة على اختلاف عناصرهم يضيق عنه المقام، فنقتصر على أهمها وهم الأتراك واليونان والأرمن واليهود والعرب والألبان والإفرنج، وكل أمة تختص بعمل من الأعمال ويغلب أن تنفرد بحي من أحياء المدينة تتجاور فيه. فالأتراك يقيمون على الغالب في إستامبول وهم سواد سكانها. واليونان يقيم أكثرهم في محلة الفنار من أحياء إستامبول على قرن الذهب، ومنهم جماعات متفرقة في سائر أحيائها بجوار الكنائس وفي بيرا. وللأرمن حيان خاصان بهم أحدهما على بحر مرمرا والآخر على الميناء. وكانوا كثارًا قبل أن يذبحهم عبد الحميد منذ بضع عشرة سنة. واليهود أكثرهم من الإسبان ويسكنون بلاطه وخاص كوي وغيرهما في قرن الذهب. والفرنج، ونريد بهم الأوروبيين على الإجمال، يقيمون في بيرا ويقيم معهم العرب وغيرهم من الأجانب.

وأما تعداد هذه الأمم ونسبة بعضها إلى بعض فيصعب تحقيقه لأنهم لم يحصوا سكان الآستانة من عهد بعيد. ولكن يقال بالإجمال أن خمسَيْ سكانها من الأتراك والخمس الثالث من اليونان والخمس الرابع أكثره من الأرمن والباقي من سائر الملل.

الأتراك في الآستانة

الأتراك كلهم مسلمون وإذا قالوا «تركي» يعنون «مسلم» إلا نادرًا فكل تركي مسلم ولا يعكس. والأتراك من أهل الآستانة هم أهل الدولة وموظفو الحكومة، يوجهون آمالهم إلى خدمة الحكومة من نعومة أظفارهم وقلما يشتغلون بعمل آخر من تجارة أو صناعة. فالولد وهو في المدرسة يعدُّ نفسه لبعض الوظائف على نسبة اقتداره ووسائطه. وهو يفضل الانتظام في سلك كتاب الديوان بدون راتب على أن يكون كاتبًا في محل تجاري براتب حسن، ورواتب صغار الكتاب في الحكومة العثمانية تختلف عن مثلها في مصر فإن الكاتب المصري لا يقلُّ راتبه عن أربعة جنيهات ولكنه في الآستانة يبدأ بأربعين غرشًا في الشهر.

وربما كان طالب هذه الوظيفة من أبناء الأعيان وهم في غنى عن خدمة الحكومة. وتعلق الأتراك بوظائف الحكومة العثمانية يشبه تعلق المصريين

بوظائف حكومتهم. وقد تركوا التجارة وسائر الأعمال للنازحين إليهم، ولا يزيد الموظفون الأجانب في الحكومة العثمانية عن واحد في المائة.

والطبقة الراقية من الأتراك مثل أرقى طبقات الهيئة الاجتماعية في أوربا ومعظمهم من الأحرار وقد تثقفوا في الغالب على الطرز الفرنساوي، وأكثرهم يحسنون التكلم بالفرنساوية ويعرفون آداب الفرنساويين ويقلدونهم بأخلاقهم وآدابهم وعاداتهم. واللغة الفرنساوية أكثر اللغات الأجنبية شيوعًا في الطبقة الراقية هناك، على نحو ما نعلمه من أحوال تلك الطبقة في سوريا ومصر، وخصوصًا قبل الاحتلال الإنكليزي.

وفي الآستانة طائفة من الأتراك النازحين إليها من الأناطول قد يتعاطون التجارة أو الصناعة وفيهم جماعة كبيرة من الشيالين والنوتية. وكبار الأتراك أهل ثروة وجاه وترف وتوسع في العيش يقيمون في المنازل الفسيحة، ينفقون في رياشها الأموال الطائلة ويكثرون من الخدم والجواري. لأن منزل التركي المسلم عبارة عن منزلين، أحدهما للرجال والآخر للحريم ولكل منهما خدمة خاصة. ومن عادة وجهاء الأتراك أن يتناسل الخدم في منازلهم ويعنون في تربية أبنائهم وإن لم يكن لهم نفع منهم. وربما ارتقى الخادم فاتخذ من يخدمه، وكلهم في منزل ذلك الوجيه. وهذه العادة من بقايا أزمنة الرخاء الشرقي القديم.

سائر العناصر فيها

واليونان (ويسمونهم أروام) يتعاطون كل عمل وخصوصًا التجارة وفيهم التاجر الكبير والبائع الصغير مثل شأنهم في مصر. فمنهم تجار المجوهرات والألبسة ونحوها، ومنهم أصحاب البقالة والخمارة والسمانة، ولهم القهوات والبارات ولا مطمع لهم بخدمة الحكومة. واليهود يشتغلون في الآستانة مثل اشتغالهم حيثما حلُّوا، فمنهم الصيارف وباعة الخردوات قليلها وكثيرها، وقلما يتعاطون صناعة.

والأرمن جمعوا بين أعمال الأروام واليهود. يشبهون الأروام في تنوع أعمالهم ويشبهون اليهود باقتدارهم المالي، وهم أهل نشاط وسعي وذكاء، ومنهم

كبار الصيارف وأصحاب البنوك وكبار التجار ويتعاطون سائر التجارات. ومنهم تجار الحنطة ومضمرو الخيل وباعتها. وفيهم أهل الصنائع الدقيقة والمهن العلمية كالصياغة والطبابة والصيدلة والهندسة والنجارة والخبازة والحدادة، وفيهم كثيرون من أهل الصناعات الدنيا. وقد كانت تجارة الآستانة وأموالها في قبضة أيديهم حتى نكبهم عبد الحميد فتضعضعوا ولكنهم عائدون إلى ما كانوا عليه.

وأما العرب وفيهم السوريون فأكثر اشتغالهم الاتّجار بالبضائع السورية وبعضهم يطلبون الخدمة في الحكومة، وفيهم جماعة من الكتاب ورجال الصحافة وأهل الوجاهة، وقد أثرى كثيرون منهم بالتجارة وأصبح بعضهم من كبار المتمولين.

وأما سائر الأجناس فربما اشتهرت كل أمة بصناعة، فالبلغار مثلًا أكثرهم من باعة اللبن، والألبانيون بعضهم في خدمة الحكومة ورجال السياسة، ومنهم طائفة من باعة الخضار.

المرأة التركية

اختلفت أقوال الكتاب في المرأة التركية ولكن لا خلاف في أنها من أرقى نساء الشرق. وهي اليوم متعلمة متهذبة تقرأ كتب الأدب والجرائد وتجالس الرجال وتبحث معهم وتجادلهم وتستحث قرائحهم وتستنهض هممهم. وللعائلات الراقية عناية خصوصية في تربية البنات فيأتون إليهن بالمعلمات الإفرنجيات يلقنهن العلم والأدب، فتشبُّ الفتاة التركية على الشجاعة الأدبية فلا تستنكف من مخاطبة الرجال ولا ترى للرجل مزية عليها. والعائلات الراقية من الأتراك يأكل فيها الرجال والنساء معًا على مائدة واحدة، وقد يفعلون ذلك ولو كان على المائدة ضيوف من غير أهلهم.

وظهر بعد عودة الدستور أن المرأة التركية كان لها دخل كبير [شأن] في إعادته، لما كانت تبثه في الرجل من الحمية وتوحيه إليه من الثبات والصبر. وكثيرًا ما كانت تعمل معهُ جنبًا لجنب بالمكاتبة أو المراسلة أو الخطابة، وهي تتكلم أفصح اللغات التركية.

على أنها ما زالت تحترم العادات الشرقية التي يعدونها أحيانًا من قبيل الدين، فلا تخرج في الأسواق إلا بالحبرة وترسل على وجهها منديلًا أسود أو تتقنع باليشمك وهو شاش أبيض مكوي يعصب به الرأس إلى أسفل الجبين ثم يدار حول العنق والفم فلا يبقى ظاهرًا غير العينين وبعض الأنف. أما في البساتين وبين المنازل خارج المدينة فتكتسي فوق أثوابها المنزلية رداء من الحرير كالعباءة أو كالبُرنس بأكمام، وتغطي الرأس بمنديل أو خمار وتترك وجهها مكشوفًا. ولا يقلل ذلك شيئًا من المراد بالحجاب، لأن الطرف يرتد عنها تهيبًا لتجافيها عن الخلاعة. وإلى ذلك أشار شوقي في قصيدته التي يصف بها خروج نساء الآستانة سافرات الوجوه، نعني قوله:

فقل للجانحيـن إلــى حجــابٍ	أتحجب عن صــنيع الله نفسُ
إذا لم يستـــر الأدب الغنوانـي	فلا يغني الحريـرُ ولا الدمقـسُ
تـأمـل هـل تـرى إلا جـــــلالًا	تحـسُّ النـفس مـنـه ما تحـسُّ
كأن الخودَ (مريم) في سفــور	ورائـيــهــا حــواريٌّ وقــــسُّ
تهـيّـبَها الرجـالُ فلا ضـــميـرٌ	يـهمُّ بـهـا ولا عـــيـنٌ تـجـسُّ

ومنازل الأعيان لا يستغنى فيها عن الخصيان لخدمة الحريم فضلًا عن سائر الخدم، وهم عديدون بعضهم للحريم والبعض الآخر للرجال إذ لكل منهما مائدة خاصة في مكان خاص. والخادمات أكثرهن من الجواري المشتريات، وكانت لهن سوق رائجة حتى زمن عبد الحميد فتباع الواحدة بخمسين جنيهًا إلى خمسمائة جنيه بين أن يراد بها الخدمة أو غيرها. وذكروا أن إسماعيل باشا الخديوي اشترى من الآستانة جارية بألف جنيه. وأكثر أولئك الجواري من الجركس والقوقاس. وأما الخدم فأكثرهم من أهل الأناطول رجالًا ونساءً ومعظمهم مسلمون وفيهم بعض الأرمن واليونان للخدمة على المائدة أو في المطبخ. ولا تخلو بيوت الوجهاء من المعلمات الإفرنجيات لتربية الأولاد، وأكثرهن من الألمانيات والفرنساويات وبعض الإنكليزيات. والبوابون والحراس والحمالون من المسلمين.

والآداب العمومية إذا نظرنا إليها من حيث أهل الآستانة أنفسهم، وجدناها من أقرب الهيئات الاجتماعية الخالية من الحشمة والتعفف. وأما في الأحياء الإفرنجية فلا تخلو الشوارع العمومية من بنات الهوى نحو ما في القاهرة والإسكندرية. ورأينا للحكومة عناية في المحافظة على الآداب العمومية بالأحياء التركية لم نجد مثلها في مصر مع شدة الحاجة إليها. وذلك أنها جعلت حدًّا لاختلاط الرجال بالنساء في المنتزهات العمومية بالبساتين أو على شواطئ البوسفور. فخصصت لكل منتزه يومًا من الأسبوع لا يأتيه غير النساء ولا يؤذن للرجال دخوله في ذلك اليوم. وإذا كان المنتزه على شاطئ البحر بجانب الطريق وقف بعض الضابطة يمنع الرجال من الوقوف هناك.

وقد لاحظنا أن المسكرات أقل شيوعًا في الآستانة مما في سائر البلاد المتمدنة، وأهلها أبعد من سواهم عنها. ولا تجد قهوات أو بارات تبيع المسكر إلا في الأحياء الإفرنجية. فالقهوات أو أماكن النزهة أو المطاعم في الأحياء التركية لا يباع فيها المسكر، ويسمون تلك القهوات «قراءَت خانة» يريدون بذلك خلوها من المسكرات، وأكثر قهوات الآستانة الوطنية من هذا النوع.

وفي أهل الآستانة على الإجمال تأدبٌ في خطابهم وظُرف في عشرتهم ورقةٌ في كلامهم ودماثة في أخلاقهم ولين في طباعهم، سواءٌ في ذلك الباشا والتاجر والصانع والكاتب والشيخ والشاب. حتى الحمَّار وسائق المركبة والنوتي والحمال، رغم ما عليه هؤلاء في البلاد الأخرى من جفاء الطبع والخشونة والطمع بأهل اليسار فيطلبون أكثر من حقهم ولا ينفكون حتى ينالوه بالصياح والخصام. أما في الآستانة فإن هذه الطبقة من العامة لا تقل دماثة ولطفًا عن الخاصة. وقد جربنا ذلك بنفسنا مرارًا فالعربجي يقنع منك بالتعريفة ودونها، ولا يحاسب الراكب على وقفة في أثناء الطريق لمخاطبة صديق أو ابتياع شيء. وإذا طمع به الراكب وأعطاه أقل من حقه لا يزيد على أن يستعطفه بلطف وصوت خافت فإذا لم ينل منه شيئًا سكت وانصرف. وهكذا النوتية وهم كثيرون على الخصوص عند جسر غلطه للتعدية إلى إستامبول. وكذلك الحمالون وغيرهم فإنهم على جانب عظيم من دماثة الخلق.

7- حالتها الأدبية والعلمية

لما كانت الآستانة بلدًا تركيًا ولغتها تركية وأكثر أهلها من الأتراك فالبحث في حالتها الأدبية والعلمية يتناول بالأكثر البحث في آداب اللغة التركية اليوم، ويدخل في ذلك الكلام عن الصحافة والمدارس والمطابع والمكاتب والكتّاب والشعراء. وهو موضوع واسع لا يمكن استيفاؤُه في هذا المقام فنكتفي بخلاصته، ونقدم الكلام بتاريخ آداب اللغة التركية لزيادة الإيضاح.

الأتراك أمس واليوم

لا بدَّ للكاتب عن الأتراك العثمانيين من أن يميزهم عن الأتراك الذين عرفهم العرب في صدر الإسلام وعن سائر معاصريهم من أهل تركستان وأذربيجان، فإنهم يختلفون عنهم أخلاقًا وأمزجة وآدابًا.

كان التركي في عصر العباسيين ممتازًا بقوة البدن والشجاعة والمهارة في رمي النشاب والصبر على الأسفار الشاقة فوق ظهور الخيل والثبات في ساحة الوغى مع قلة العناية بالعلوم ولا سيما الفلسفة والعلم الطبيعي، وقلما اشتغل أحد منهم بدرسها في إبان التمدن الإسلامي. واشتهر ذلك عنهم حتى أصبحوا إذا سمعوا بتركي يشتغل بالعلم الطبيعي ذكروه مع الاستغراب كما فعل ابن الأثير لما أشار إلى معرفة قتلمش علم النجوم فقال: «ومن العجب أن هذا قتلمش كان يعلم علم النجوم وقد أتقنه مع أنه تركي ويعلم غيره من علوم القوم»، فاتخذ أعداء الأتراك العثمانيين ذلك حجة للطعن في علمهم وأنهم غير أهل للتمدن، ولكن هؤلاء الأتراك الآن يختلفون عن أسلافهم اختلافًا بعيدًا، وإليك البيان:

نزح سليمان بك جد العثمانيين بقبيلته من أواسط تركستان في القرن السادس للهجرة، وهم بادية رحّل يعيشون فوق خيولهم يرمون بالنشاب ويصبرون على الأسفار ويثبتون في ساحة الحرب، ولم تكن لهم عناية في العلم ولا كان للغتهم أدب أو شعر. فلما تسلطوا على آسيا الصغرى ثم فتحوا الآستانة وتحضروا واحتكوا بالأمم الأخرى وخالطوهم بالمزاوجة والمعاشرة، تغيرت أمزجتهم وتلطفت طباعهم كما أصاب العرب بعد تحضرهم.

فالأتراك العثمانيون يمتازون عن الأتراك القدماء بتغيير طرأ على دمائهم بالتزاوج، فأصبحت خليطًا من دماء كثيرة بما في أمهاتهم من الأمزجة المختلفة باختلاف الأجناس، وفيهن الشركسية والرومية والأرمنية والألبانية والفارسية فضلًا عن التركية. واندمج في الأتراك بعض دعاياهم من أصول مختلفة وكثيرون من النازحين إلى بلادهم من الأمم الأخرى، وفيهم الفرنساوي والألماني والعربي والألباني والمجري والفارسي والرومي وغيرهم. وقد تأصل هذا التنويع على الخصوص في أهل الآستانة، فلما احتكوا بالعالم المتمدن اقتبسوا تمدنه وآدابه ونبغ منهم الشعراءُ والأدباءُ والكتاب والصحافيون وغيرهم، كما سيأتي.

آداب اللغة التركية قبل هذه النهضة

ليس الأتراك من الأمم المستنبطة للعلم والفلسفة ولا في لغتهم آداب قديمة تدل على تمدن قديم كاليونان والفرس، وإنما هم مقلدون في آدابهم مقتبسون في علومهم كالرومان والعرب، ولكن هاتين الأمتين زادتا على ما اقتبستاه فأصبح لكل منهما تمدن عرف بها وله شأن خاص في تاريخ العالم، وأما الأتراك فلم يستطيعوا تحسينًا يستحق الذكر.

لم يكن للأتراك العثمانيين آداب قبل القرن السابع للهجرة، أي قبل تأسيس دولتهم، وأقدم آدابهم اقتبسوها من الفرس أو هي فارسية معنى ومبنى. والسبب في اقتباسهم آداب الفرس دون العرب أن العثمانيين أقاموا دولتهم على أنقاض دولة السلاجقة في آسيا الصغرى. وهؤلاء كانوا قد اختلطوا بالفرس في خراسان وتأدبوا بآدابهم، وأصبحت اللغة الفارسية لغة العلم والأدب عندهم فضلًا عن السياسة، وانتقلوا إلى آسيا الصغرى وحملوا تلك الآداب معهم. فلما جاء العثمانيون إلى تلك الأصقاع وأسسوا دولتهم على أنقاض تلك الدولة ورثوا ما خلفوه لهم من الأدب والأدباء والعلم والعلماء، فانتقل ذلك التمدن من دولة إلى دولة وهو سائر في طريقه الطبيعي، فسمّي عثمانيًّا بعد أن كان سلجوقيًّا.

ولا يراد بذلك أن الأتراك لم يتحدوا بالعرب أو لم يأخذوا شيئًا من آدابهم، فإن العلوم الإسلامية وسائر الآداب الدينية كان المسلمون على اختلاف لغاتهم

يتفهمونها بالعربية، ولذلك كثرت الألفاظ العربية في اللغات الإسلامية وخصوصًا الفارسية والتركية. وإذا قلنا: إن الأتراك اقتبسوا آدابهم من الفرس فقد اقتبسوا معها كثيرًا من آثار اللغة العربية وآدابها التي كان الفرس قد اقتبسوها قبلهم، غير الذي اقتبسه الأتراك من اللغة العربية رأسًا من الألفاظ والآداب الدينية. ولذلك كانت الألفاظ العربية في اللغة التركية أضعاف الألفاظ الفارسية فيها، وإنما يقتصر بحثنا في تاريخ آداب اللغة التركية هنا على الأدب والشعر وهما مأخوذان عن الفرس.

وأقدم الآداب التركية العثمانية الشعر، وأقدم ما حفظ منه للشيخ بهاء الدين أحمد المعروف بسلطان، ولد ابن جلال الدين الرومي صاحب منظومات «المثنوي» الفارسية الشهيرة. وكان هذا الشاعر معاصرًا للسلطان عثمان الأول. ثم ظهر شاعر آخر اسمه عاشق باشا نظم قصيدة طويلة تعرف بديوان عاشق باشا. ثم نبغ شعراءُ آخرون منهم الغازي فاضل وشيخ كرميان وكان معاصرًا لمراد الثاني ونظم مثنويًّا بناه على القصة المشهورة عند الفرس عن كسرى وشيرين. وعاصر هذا أيضًا شاعرٌ اسمه يازجي أوغلو فنظم السيرة النبوية وسماها «محمدية»، ثم ظهرت قصة الأربعين وزيرًا لشيخ زاده. كل ذلك قبل استيلائهم على القسطنطينية.

فلما فتحوها تنبهت القرائح وظهر بعد قليل شاعر تَتَريٌّ اسمه مير علي شير ويعرف باسمه القلمي «نوائي» نظم شعرًا أعظم الأتراكُ قدره، وقلدهُ أحمد باشا أحد وزراء محمد الفاتح وأشاعه بين قومه فأحدث نهضة في قرائحهم. وتبعه سنان باشا الوزير وكان ناثرًا بليغًا حبب النثر إلى الأتراك وخلف كتابًا له سمّي «التضرعات». وعاصر محمد الفاتح الشاعران الموسيقيان نجاتي وذاتي والشاعرتان زينب ومهرى. وكان محمد الفاتح محبًّا للأدب مثل أكثر سلاطين آل عثمان فقرب الأدباء إليه ونشطهم. ولا يستغربنّ القارئ رغبة أولئك السلاطين في أهل الأدب فقد كانوا هم أنفسهم من أهله فعددهم 35 سلطانًا كان فيهم 21 شاعرًا لكل منهم شعر محفوظ. وأشعرهم السلطان سليم الفاتح فإنه أضاف إلى سبقه في الفتح تقدمه في الشعر والأدب. ولكن أكثر منظوماته في اللغة الفارسية، ويظهر مما نظمه في التركية أنه كان نابغة الشعراء.

نبغ في زمن السلطان سليم هذا كمال باشا زاده، ويعرف بابن كمال وأجاد في النظم والنثر. ومن شعره رواية موضوعها يوسف وزليخة وأخرى اسمها «نيكارستان» تحدى فيها السعدي الفارسي [سعدي الشيرازي] صاحب «كلستان» [حديقة الورد].

ولما تسلم سليمان بن سليم العرش العثماني حدثت في آداب اللغة التركية نهضة أخرى فتلطف أسلوبها، واشتغل الأدباء في انتقاء الألفاظ الفصيحة مع توخّي السهولة والرشاقة. وأشعر الشعراء في أيامه «فضولي» أحد أئمة الشعر في العصر التركي القديم وأصلهُ من بغداد وكانت لغته خليطًا من التركية العثمانية والأذربيجانية، ولكنه اتخذ لنفسه أسلوبًا لم يسبقه إليه أحد. ومن آثاره ديوان يعرف باسمه وكتاب في ليلى ومجنونها. وقد عاصره شاعر آخر اسمه «باقي» كان في الآستانة وله قصيدة نفيسة في السلطان سليمان. وعاصرهما آخرون أشهرهم روحي ولمعي ويحيى بك الإنكشاري وأبو السعود المفتي وغيرهم.

وفي عهد السلطان أحمد الأول ظهر كبير شعراء عصره «نفعي الأرضرومي» وامتاز بأسلوب خاص به كما امتاز فضولي قبله. وتوالى ظهور الشعراء مما يطول وصفه، وأشهرهم في ذلك العصر صبير شاكر والنائلي وجوري وفهيم ونابي والسيد وهبي وراغب باشا ورحمي القريمي وكليم وسامي. ومن الكتاب المشاهير في ذلك العصر ثابت وراسخ وطالب، لكل منهم أسلوب خاص. ونبغ في عهد السلطان أحمد الثالث نديم [وهو] أشعر شعراء العصر القديم على الإطلاق توفي سنة 1092هـ. لم يقلد نديم أحدًا من أسلافه ولا قلده أحد من خلفائه. ويمتاز شعره بالزهو، وهو آخر أصحاب الطريقة القديمة التي بلغت إبانها من تولي السلطان أحمد الأول سنة 1603م (1011هـ) إلى خلع السلطان أحمد الثالث سنة 1730م (1142هـ).

ومن أدباء ذلك العهد الذين اشتغلوا بالنثر علي شلبي فإنه نقل كتاب «أنوار سهيلي» من الفارسية إلى العربية للسلطان سليمان الأول، وسماه «همايون نامه». ومنهم سعد الدين أحد رجال مراد الثالث، كتب تاريخًا نفيسًا للدولة العثمانية من أقدم زمانها إلى موت السلطان سليم سماه «تاج التواريخ»، ثم جاء بعده «نعيما»،

المؤرخ المشهور، وتاريخه يمتد من سنة 1591 إلى سنة 1659. ونبغ غيرهم من المؤرخين مثل طاش كوبري زاده، وعطاء، وحاجي خليفة صاحب «كشف الظنون» وغيرهم.

وتعدُّ الفترة بين آخر الطريقة القديمة وأول الحديثة أي من خلع السلطان أحمد الثالث إلى زمن محمود الثاني، عصرًا قائمًا بنفسه، ظهر فيه من الشعراء بليغ ونورس وحشمت وسنبلي زاده وهبي وبرتو باشا والشيخ غالب، وهذا الأخير من قهارمة الشعر التركي، وله قصيدة سماها «حسن وعشق» ضمنها كثيرًا من بدائع الوصف ودقائق الشعور. ومن أشهر الكتبة المنشئين في هذا العصر راشد، مؤرخ الدولة، وعاصم مترجم القاموس العربي والبرهان القاطع الفارسي إلى اللغة التركية، وكاني الكاتب الظريف، وغيرهم.

النهضة العلمية الأخيرة

وأما النهضة الأخيرة فتبدأ بسلطنة محمود الثاني إذ أخذ الناس بعوامل التمدن الحديث وجعل الكتاب يقتبسون آداب الإفرنج وعلومهم ويتعلمون اللغة الفرنساوية ويطالعون آداب الفرنساويين وغيرهم من الإفرنج. ويعدُّ الجزء الأول من هذا العصر زمن انتقال حصل فيه نزاع بين الطريقتين القديمة والحديثة وهو زمن جهاد وتنازع. ومن أشهر المجاهدين في هذا السبيل لتمهيد الطريق للأسلوب الحديث، الشعراء فاضل بك وواصف وعزت ملا وبرتو باشا وعاكف باشا والشاعرتان فتنت وليلى. وتمتاز أقوال هؤلاء جميعًا بشيء من الطرز الجديد، وإن كان الأساس فيها الطرز القديم.

والفضل الأول في القضاء على الأسلوب القديم بالإجادة في الأسلوب الحديث نظمًا ونثرًا، لشناسي أفندي المتوفى سنة 1288هـ وقد لاقى مشقة ومقاومة قبل فوزه. وأصبح الإنشاء التركي بعده سهلًا عدل فيه أرباب القرائح عن الأسلوب القديم المعقد إلى الأسلوب الجديد السهل، فكثر الكتاب والشعراء ونقلةُ الأفكار الأوروبية إلى اللغة التركية في العلم والأدب والشعر. ومن متقدمي هذا العصر ضيا باشا وجودت باشا وسعد الله باشا ونامق كمال بك. ولهذا الأخير

شأن خاص في آداب اللغة التركية، وقد فصلنا تاريخ حياته في الجزء الثاني من «تراجم مشاهير الشرق».

هذه فذلكة [مقدمة موجزة] في تاريخ آداب اللغة التركية وأسماء الأدباء والشعراء الذين توفوا. وقد رأيت أن أكثرهم من أهل المناصب الرفيعة والرتب العالية، وفيهم بضع شاعرات يشهدن بذكاء المرأة التركية واقتدارها. ويعدُّ من الأدباء أيضًا بعض مشاهير الوزراء مثل مصطفى رشيد باشا وفؤاد باشا وغيرهما.

وهذه أسماء أشهر أدباء الأتراك الذين توفوا، من آخر القرن التاسع للهجرة إلى أوائل القرن الرابع عشر وخلفوا آثارًا مدونة في اللغة التركية:

سنان باشا	توفي سنة 891هـ
فضولي بغدادي	توفي سنة 910هـ
نعيما المؤرّخ	توفي سنة 1065هـ
نديم	توفي سنة 1092هـ
كاني	توفي سنة 1124هـ
حقي باشا	توفي سنة (...هـ)
قوجه سكبان	توفي سنة 1150هـ
باشي	توفي سنة 1169هـ
عاصم المترجم	
عاكف باشا	توفي سنة 1264هـ
مصطفى رشيد باشا	توفي سنة 1274هـ
فؤاد باشا	توفي سنة 1285هـ
أدهم برتو باشا	توفي سنة 1289هـ
شناسي	توفي سنة 1288هـ
ضيا باشا	توفي سنة 1297هـ
سعد الله باشا	توفي (سنة.... هـ)
نامق كمال بك	توفي سنة 1305هـ

شعراء هذا العصر وكتابه

بقي علينا أن نأتي على ذكر الشعراء والكُتّاب الذين لا يزالون على قيد الحياة وهم أصحاب الحركة الفكرية في الآستانة اليوم. ولو شئنا تفصيل أعمالهم لاستغرق ذلك مجلدًا ضخمًا، فنكتفي بكلام إجمالي:

الشعراء

1: رجائي زاده أكرم، المشهور بأكرم بك وهو الآن من الأعيان.

2: عبد الحق حامد بك سفير الدولة العلية في مدريد.

3: توفيق فكرت بك، وهو شاب مدير المدرسة السلطانية في بيره [بيرا].

4: أشرف أفندي. هو هجّاء بليغ، وقد تولى ولاية أطنه.

5: مستجابي زاده.

المنشئون والمؤلفون

1: سعيد بك، لهُ مؤلفات كثيرة في كل موضوع ويحرر في الجرائد.

2: أبو الضيا توفيق بك، صاحب جريدة «يكي تصوير أفكار»، وهو كاتب رشيق.

3: أحمد مدحت أفندي، مؤلفاتهُ كثيرة في التاريخ والأدب.

4: أحمد راسم، مؤلف ومحرر جرائد.

5: حسين جاهد بك، صاحب جريدة «طنين» ومحررها وعضو في مجلس المبعوثان.

6: عشاقي زاده خالد ضيا بك، باشكاتب المابين.

7: علي كمال بك، كاتب ومؤلف، أسلوبهُ سهل ممتنع، وهو الآن هارب في باريس.

8: بابان زاده إسماعيل حقي، كاتب ومحرر.

9: محمود أسعد أفندي، ناظر الدفتر الخاقاني، أكثر مؤلفاته حقوقية.

10: سليمان نظيف بك، محرر جرائد.

11: أحمد جودت بك، صاحب جريدة «إقدام».

12: عبد الله زهدي بك، صاحب «يكي غزته».

13: محمود صادق بك، محرر.

14: عبيد الله أفندي، مبعوث ايدين.

15: أحمد إحسان أفندي، صاحب «ثروت فنون».

16: الدكتور عارف عصمت، مبعوث بيره.

17: سامح بك، شاعر ومحرر، هو متصرف بيره.

18: ديران كليكيان، (أرمني) محرر «صباح».

19: إسماعيل مشتاق، باشكاتب مجلس الأعيان.

20: سعيد باشا، رئيس مجلس الأعيان، هو أكبر الكتاب الأتراك.

21: علي شفيق بك، محرر وشاعر هجاء، هو مفتش المعارف في بتليس.

22: جاويد بك، ناظر المالية، له مؤلفات مهمة في فن الاقتصاد.

23: موسى كاظم أفندي، من الأعيان، كاتب في المواضيع الشرعية.

24: إسماعيل حقي أفندي، كاتب في المواضيع الشرعية.

25: مصطفى عاصم أفندي، مبعوث إستامبول، أكثر آثاره دينية.

26: محمود شوكت باشا، حامي الدستور، له مؤلفات عسكرية.

27: أحمد مختار باشا (الغازي)، من الأعيان، له مؤلفات عسكرية.

28: أحمد مختار باشا، ناظر المهندسخانة [مدير مدرسة الهندسة]، له مؤلفات عسكرية.

29: عثمان ثنائي بك، قائمقام، له مؤلفات عسكرية.

30: نجيب عاصم بك، قائمقام، له مؤلفات عسكرية.

31: أحمد رشيد بك، يوزباشي، له مؤلفات عسكرية.

32: علي رشاد بك، مدير مكتب وفا الإعدادي، كاتب ومترجم.

هؤلاء أشهر أدباء الأتراك المعاصرين. وهناك أدباء من أبناء العرب يحسنون الإنشاء التركي، نعرف منهم زكي مغامز بك، من رؤساء تحرير «صباح»، فإنه منشئٌ مجيد في اللغة التركية فضلًا عن العربية. ويلاحظ على الإنشاء العصري عند الأتراك أن أبلغهم فيه أكثرهم اطلاعًا على آداب اللسان العربي.

الصحافة في الآستانة

الصحافة قديمة في الآستانة، وأول صحفها جريدة «مونيتور دوريان»، صدرت بالفرنساوية سنة 1831، ثم ظهرت بالتركية وسميت «تقويم وقائع»، ثم ظهرت جريدة «حوادث» وغيرها، وتكاثرت الصحف في زمن عبد المجيد وعبد العزيز فبلغت 36 صحيفة سنة 1866 بالتركية غير الجرائد الإفرنجية. وما زالت تتزايد حتى بلغ عددها في آخر حكم عبد العزيز 46 صحيفة فصّلناها في الهلال الأول من السنة الماضية. وتكاثرت في زمن عبد الحميد الجرائد الحرة، وأكثرها ظهر خارج الآستانة فرارًا من المراقبة وخوفًا من الظلم مما يطول بنا شرحه، وقد ذكرنا تاريخه في الهلال المذكور. إنما نقتصر في هذا المقام على الصحف الحية التي تصدر اليوم في الآستانة مع أسماء أصحابها ومناهجها وعدد ما يطبع منها على وجه التقريب. وقد عولنا في ذلك على أعرف الناس بها.

(1) الجرائد التركية اليومية

اسم الجريدة	اسم صاحبها	خطتها	عدد النسخ التي تطبع منها
إقدام	أحمد جودت	(تعطلت)	20 000
صباح	مهران أفندي	معتدلة	15 000
طنين	حسين جاهد بك	حرة	15 000
يكي تصوير أفكار	أبو الضيا توفيق بك	حرة	10 000
اتحاد	نسيم مزلياح أفندي	معتدلة	12 000
ترجمان حقيقت	كانت لمدحت أفندي		3 000
سعادت	أحمد فتحي		3 000
تقويم وقائع	الحكومة	رسمية	800
يكي غزته	عبد الله زهدي		12 000
سر صاعقة حرية	لجمعية الترقي		3000

(2) الجرائد التركية الأسبوعية

اسم الجريدة	اسم صاحبها	خطتها	عدد النسخ التي تطبع منها
ثروت فنون (مصورة)	أحمد إحسان	أدبية	4000
استشارت	تحررها لجنة	حقوقية	1000
مصور محيط (مصورة)		أدبية	2 500
صراط مستقيم	تحررها لجنة	دينية	2 000
شهبال (مصورة)		أدبية	(000)
مجموعة علوم	كانت لجاويد بك	اقتصادية	(000)
اقتصادية	صالح جمجوز		10 000
قلم (مصورة)	فؤاد بك	هزلية شتامة	10 000
قره كوز		هزلية	5 000

يتبع

تابع

لقلق (مصورة)	محمود كنعان	هزلية	5 000
القاووق (مصورة)		هزلية	1 000
دواول		هزلية	2 000
عالم (مصورة)		نسائية	1 000
قادين محاسن		نسائية	1 000
جريدة عسكرية	للحكومة	رسمية	—
جريدة بحرية	للحكومة	رسمية	—
جريدة التجارة	للحكومة	رسمية	—
جريدة بيطرية	للحكومة	رسمية	—
رسملي كتاب (مجلة شهرية)	رسمية	2 000	

(3) الجرائد العربية التي ظهرت بعد الدستور وكلها أسبوعية

الدستور	أحمد باشا	تعطلت
شمس العدالة	السلاوي	تعطلت
شمس الحقيقة	السلاوي	تعطلت
القسطاط		تعطلت
المساواة	لمخزومي باشا	تعطلت
الإخاء العربي	للجمعية العربية	تعطلت
العدل	صفا بك	تعطلت ثم ظهرت
كلمة الحق	لإبراهيم أفندي النجار	لا تزال تصدر

(4) الصحف الأجنبية

أكثر الصحف الأجنبية عددًا في الآستانة اليونانية (أو الرومية)، أشهرها «قوتستاتينو بوليس» و«تاخدرومس» و«يروذوس». ثم الأرمنية فالفرنساوية

أشهرها «إسطمبول» و«لا تركي» و«لفانت هرالد» و«المونيتور أورينتال»، وفيها جرائد ألمانية. أما الإنكليزية فلا يصدر منها من الصحف إلا «اللفانت هرالد» مع الفرنساوية. وهناك جرائد حرفها أرمني ولغتها تركية، وجرائد رومية حرفها يوناني ولفظها تركي وجرائد إسبانية حرفها عبراني.

ويقال على الإجمال أن معوّل أرباب الصحف في الآستانة على بيع جرائدها في الأسواق نقدًا وليس على الاشتراك كما هو [هي] الحال عندنا. وقد رأيت عدد ما يطبع منها في اليوم أضعاف ما يطبع من جرائدنا، ولكن يظهر أن الجرائد الإفرنجية عندنا أضعاف ما عندهم مما يدل على تغلب العنصر الأجنبي بمصر عما هو في الآستانة.

المطابع

الآستانة أسبق مدن الشرق إلى استخدام حروف الطباعة العربية. فقد ظهرت فيها الطباعة في أوائل القرن الثامن عشر، وكانت حروفها في أول الأمر على شكل الحرف الباريسي لأن مؤسس المطبعة الأولى في الآستانة محمد سعيد أفندي اقتبس الرغبة في إنشائها من باريس، وكان قد أقام فيها وشاهد مطابعها العربية. ثم عني عبد الرحيم أفندي بصبّ حروف جديدة هي أساس قاعدة الحرف الإسلامبولي المشهور. ثم أتقنت هذه القاعدة نحو سنة 1873، وعنها نقلت القاعدة الإسلامبولية الشائعة الآن في سوريا ومصر.

أقدم حروف الطباعة العربية

وللطباعة في الآستانة تاريخ طويل لا محل له هنا، ويقال بالإجمال إنها أرقى من الطباعة عندنا من حيث الإتقان والجمال، فإنها تقرب من إتقان مطابع أوربا. وأشهر مطابع الآستانة الآن «المطبعة العثمانية»، وأنفسها وأتقنها «مطبعة أبي الضياء» ثم مطبعة «صباح»، ومطبعة «طاهر» صاحب جريدة «معلومات» المحجوبة وتعرف الآن بمطبعة الوطن، ثم مطبعة أحمد إحسان التي تطبع فيها «ثروت فنون». ومعظم هذه المطابع إسلامية، وهناك مطابع كثيرة أصحابها من الأرمن.

وكان للحكومة العثمانية مطبعة اسمها «المطبعة العامرة» كان حرفها من خط التعليق في غاية الجمال، وقد أقفلت في عهد عبد الحميد وستفتح قريبًا. ومن المطابع الأميرية أيضًا مطبعة للبحرية وأخرى للسر عسكرية تطبع فيها الجريدة العسكرية وجريدة البحرية، ومطبعة كانت في المدرسة الحربية لطبع كتب التدريس.

المدارس

المدارس في الآستانة إما أميرية تابعة للحكومة أو أجنبية. والمدارس الأميرية إما ملكية أو عسكرية. والملكية أربع درجات:

(1) ابتدائية.

(2) رشدية.

(3) إعدادية.

(4) عالية.

والمدارس العسكرية أربع درجات:

(1) رشدية.

(2) إعدادية.

(3) إعدادية طبية.

(4) عالية.

ولكل من هذه الدرجات مدرسة أو غير مدرسة حسب الاقتضاء. ومن المدارس العالية مدرسة طبية ملكية، ومدرسة طبية عسكرية، ومدرسة للحقوق لها فروع في بغداد وسلانيك، ومدرسة للهندسة (مهندسخانة) ملكية، ومدرسة هندسية عسكرية ومدرسة بحرية. ومن قوانين هذه المدارس أن الحكومة مطالبة بتوظيف تلامذة المدارس الملكية العالية والعسكرية والبحرية والطبية الملكية والمهندسخانة.

وفي الآستانة دار للمعلمين ودار للمعلمات يتخرج فيهما المعلمون والمعلمات. وهناك مدارس للبنات من درجة الرشدية. ومدرسة صنائع للأولاد اسمها صبيان صنائع مكتبي يخرج تلامذتها جندًا، ومدرسة للتجارة وأخرى للبيطرة وأخرى للموسيقى العسكرية اسمها «موسيقى همايون».

والتعليم في هذه المدارس باللغة التركية أي إنها قاعدة التدريس فيها، ولكن تعليم اللغتين العربية والفرنساوية إجباري. ويعلمون في المدارس الحربية أيضًا اللغة الألمانية واللغة الروسية. وفي المدرسة الملكية العالية يعلمون الرومية والأرمنية. ويعلمون اللغة البلغارية لمن يريد بلا إجبار.

وهناك مدارس في الجوامع لتعليم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن، ويلقنون فيه مبادئ اللسان العربي.

والتعليم في المملكة العثمانية إجباري بالاسم اقتداء بالأمم المتمدنة، لكنهم لم يكونوا يجبرون أحدًا عليه ولعلهم يفعلون ذلك بعد الدستور، وقد زادوا ميزانية المعارفة. وأصحاب هذا الانقلاب أعلم الناس بفائدة التعليم وشدة الحاجة إليه في تثبيت الحكومة الدستورية، لأنه الوسيلة الوحيدة لرفع التعصب الضار.

أما المدارس الأجنبية فهي قليلة وأكثرها ابتدائي. ولكل أمة مدارس ابتدائية لتعليم أبنائها، فمنها مدارس أرمنية ورومية وفرنساوية وغيرها. وقد ساعدت فرنسا على إنشاء المكتب السلطاني وهو من الدرجة الإعدادية لإتقان اللغة الفرنساوية.

أما المدارس الأجنبية العالية فأهمها ثلاث:

أولًا: مدرسة روبرت الأمريكية، وهي كلية على نمط المدرسة الكلية السورية في بيروت قائمة على ضفة البوسفور بجوار محطة بك وهي بضع أبنية كبيرة. وكان لها شأن كبير في بث روح الحرية والشجاعة الأدبية في أبناء المملكة العثمانية فكانت عونًا على نيل الدستور.

ثانيًا: مدرسة الثالوث اليونانية في جزيرة خالكي من جزائر الأمراء، يتخرج فيها تلامذة اللاهوت في العلوم العالية، وقد ظهر من تلامذتها عدد كبير.

ثالثًا: مدرسة الفنار في حي الفنار بإستامبول وهي علمية تجارية.

المكاتب

قد تقدم في الكلام عن الجوامع أن عددها نحو 480 جامعًا، وأكثرها لا يخلو من مكتبة فيها بعض الكتب المفيدة، ولكن في الآستانة مكاتب عمومية بعضها في الجوامع والبعض الآخر في غيرها، وقفها أهل الفضل على المنفعة العامة، لكل منها فهرست يستدل الطالب به على مواضيع الكتب فيطلب ما شاء للمطالعة والنسخ. أشهرها وأكبرها الكتبخانة العمومية بجانب جامع بايزيد فإنها تشبه الكتبخانة الخديوية [في مصر] من حيث ترتيب الكتب في الخزائن ووجود الطاولات للمطالعة أو النسخ. وأما سائر المكاتب، فمع وجود الفهارس لها يصعب الحصول على الكتاب المطلوب لأنها مرتبة على نسق قديم. ويبلغ عدد المكاتب المهمة في الآستانة 29 مكتبة، فيها من الكتب نيف وسبعون ألف مجلد، وهذه أسماء المكاتب وعدد المجلدات فيها:

كتبخانة عمومية	13464	كتبخانة فليج [قليج] علي باشا	1063
كتبخانة لا له لي	3790	كتبخانة ولي الدين جار الله	2132
كتبخانة محمد الفاتح	5400	كتبخانة محمد مراد أفندي	1927
كتبخانة شهيد علي	2878	كتبخانة مصطفى أفندي بروسوي	262
كتبخانة أيا صوفيا	5072	كتبخانة يكي جامع	1534
كتبخانة نور عثمانية	5060	كتبخانة سليمانية	1077
كتبخانة السلطان بايزيد	3285	كتبخانة داماد إبراهيم باشا	1152
كتبخانة محمد باشا كوبريلي	2779	كتبخانة سليمية	655
كتبخانة عاشر أفندي شيخ الإسلام	2279	كتبخانة توفيق يحيى	462
كتبخانة أسعد أفندي نقيب الأشراف	3919	كتبخانة خسرو باشا	1177
كتبخانة عاطف أفندي	2863	كتبخانة محمد أفندي كتخدا	220

يتبع

تابع

كتبخانة فيض الله أفندي	2189	كتبخانة سلطان مرحوم وقاضي زاده	566
كتبخانة حميدية	1482	كتبخانة مهرشاه والدة سلطان	454
كتبخانة حميدية أخرى	762	كتبخانة راغب باشا	1491
كتبخانة حكيم أوغلي باشا	2073		

(الجملة): 71467

وإذا أحصيتَ هذه المجلدات بالنظر إلى مواضيعها رأيتَ أكثرها في الفقه ثم اللغة فالحديث فالتفسير فالأدب فالتصوف فالتاريخ على هذه الصورة:

اسم المكتبة	كتب التفسير	كتب الحديث	كتب الفقه	كتب التصوف	كتب التاريخ	كتب الأدب	كتب اللغة	الفنون الأخرى
عمومية	453	417	784	570	405	450	1.000	9.385
لا له لي	258	428	784	188	123	299	760	923
محمد الفاتح	588	575	1.050	350	351	503	630	1.353
شهيد علي باشا	296	264	422	344	132	42	329	1.049
أيا صوفيا	371	520	592	540	604	594	296	1.555
نور عثمانية	507	684	635	437	415	759	321	1.313
سلطان بايزيد	409	415	518	245	221	141	400	936
كوبريلي باشا	234	300	240	200	300	350	400	755
أسعد أفندي	196	562	270	503	394	458	183	1.353
عاطف أفندي	318	284	449	140	154	300	400	918
فيض الله أفندي	230	311	540	66	187	220	250	385
حميدية	188	255	112	225	210	310	280	664
حكيم أوغلي	204	247	267	261	175	185	220	514

يتبع

تابع

قيلج [قليج]	144	104	191	63	43	74	183	261
ولي الدين	228	182	485	135	63	118	285	637
محمد مراد	302	295	346	76	49	16	242	621
يكي جامع	199	177	380	57	132	105	160	324
السليمانية	137	162	305	55	29	30	140	215
داماد إبراهيم	224	193	249	24	64	43	188	167
السليمية وتوفيق	88	160	136	144	93	117	163	216
خسرو باشا	22	45	47	54	140	177	78	614
كتخدا وسلطان محمد	95	73	191	32	29	71	124	171
مهرشاه	44	45	61	70	25	63	43	103
راغب باشا	216	29	237	76	88	156	200	489
عاشر وبروسوي	121	87	152	41	74	207	132	1.727
(المجموع)	6099	6.814	9.438	4.886	4.799	5.887	7.107	26.748

بقي أن ننظر في لغة تلك الكتب فهي إما عربية أو تركية أو فارسية ويختلف ذلك باختلاف المواضيع. فالمصاحف كلها عربية طبعًا والتفاسير عربية إلا خمسة في المائة تركي وخمسة [في المائة] فارسي. والحديث عربي إلا عشرة في المائة تركي أو فارسي، وكذلك الفقه والفتاوى وغيرها. أما كتب التصوف فثلثها عربي والثلث الآخر تركي والآخر فارسي وكذلك الرياضيات وكتب التاريخ يغلب فيها التركي ثم العربي فالفارسي. والأدب أكثره عربي وأقله فارسي وأكثر الفارسي من الدواوين. وكتب اللغة كلها عربي إلا النادر. فترى من ذلك أن معظم الكتب في مكاتب الآستانة عربي.

والكتب المذكورة أكثرها خطيٌّ وربما وجد من الكتاب الواحد عدة نسخ في المكتبة الواحدة فكيف إذا جمعت كتب الموضوع الواحد في سائر المكاتب. فمع

كون مجموع مجلدات هذه المكاتب يقارب مجموع مجلدات المكتبة الخديوية، فإن هذه تحتوي من المواضيع أضعاف ما تحويه تلك. لأنها يندر أن يكون فيها من الكتاب أكثر من ثلاث نسخ، وأما تلك فربما وجد من الكتاب الواحد عشر نسخ أو عشرون أو أكثر، وإنما أهمية مكاتب الآستانة بالكتب الخطية القديمة وبينها بعض النسخ النادرة، وسنشير إلى ذلك في تاريخ آداب اللغة العربية الذي سيصدر ملحقًا لهذه السنة. وفي عزم الحكومة العثمانية ضم هذه المكاتب في مكتبة واحدة ترتب ترتيبًا يسهل الانتفاع بها.

وسنأتي على بسط حالة الآستانة السياسية في الهلال القادم إن شاء الله.

8- حالتها السياسية

إن النظر في حال الآستانة السياسية أهم من النظر في سائر أحوالها لأننا في أوائل الانقلاب السياسي. وقد اختلفت الأقوال في حقيقة حالها وتضاربت الآراء في مصيرها، وبين متفائل يرى الأمور قد استقرت وأن النفوس قد أشربت بالدستور فلا خوف على الدولة من رجعة أو ثورة. ومتشائم يرى الخطر محدقًا بها من كل ناحية فيخاف عليها انقسام العناصر وتفرق الأديان ومطامع بقايا العهد الماضي. أو يخشى نقمة الذين قضي عليهم بالعقاب نفيًا أو عزلًا وغير ذلك من التغييرات التي اقتضاها هذا الانقلاب. وهناك طائفة توسطوا في آرائهم ومخاوفهم.

ونظر محبو الدولة العثمانية في الوسائل اللازمة للمحافظة على الدستور وملافاة ما يخشى منه عليه، فاختلفوا في وصف الدواء وفي تعاطيه كما اختلفوا في تشخيص العلة وتعيين موضعها. فلما رحلنا إلى الآستانة في الصيف الماضي جعلنا همنا البحث في حالتها السياسية، لم ندخر وسعًا في التنقيب عن الأسباب والنتائج واستخراج الحقائق من مظانها والسؤال عن الاختلافات من أصحابها على اختلاف العناصر والأحزاب والمذاهب. وتعرفنا إلى خيرة أرباب الحل والعقد ودرسنا أميالهم وتبطنًا أغراضهم وحقيقة مقاصدهم، ثم نظرنا في ذلك كله نظر الناقد المعتدل إلى نتيجة نحن باسطُوها في ما يلي:

الحكومة العثمانية وسائر الحكومات

الحكومة العثمانية اليوم دستورية ولكنها تختلف عن سائر الحكومات الدستورية من حيث القوى التي تتنازعها أو تدير شئونها، فالحكومة في الممالك الدستورية على الإجمال يدير شئونها قوتان، نواب الأمة والوزراء. وأما الدولة العثمانية فيتنازع حكومتها ثلاث قوى، النواب والوزراء وجمعية الاتحاد والترقي. وليست مداخلة هذه الجمعية في شئون الدولة بدعة من بدع الدستور العثماني كما يتبادر إلى الأذهان ولكنه طبيعي [ولكنها طبيعية] في أوائل الانقلاب، وقد وقع مثله في سائر الدول العظمى عند انقلابها. ولكن جمعية الاتحاد والترقي تمتاز عن سواها من الجمعيات السياسية والانقلابية أنها شديدة الميل إلى المسالمة وحجب الدماء، فقد أحدثت هذا الانقلاب وفي عزمها أن تخالف سُنّة الاجتماع فتبقي على رجال العهد القديم وتُحاسنهم.

فلما أعلنت الدستور في 24 يوليو [تموز] سنة 1908 أغمدت السيف وأطلقت الحرية. ثم ما لبثت أن أدركت خطأها وأن للاجتماع سُنّة لا تتبدل، بعد أن جرت حادثة 13 أبريل [نيسان] التي كادت تذهب بالدستور وأهله لو لم يتداركه شوكت باشا وجنده فدخلوا الآستانة فاتحين وخلعوا السلطان وبايعوا أخاه. ومع ذلك لم يقتل في هذا السبيل إلا ألف وبعض الألف. وما من دستور إلا كلّف أهله ألوفًا من الأنفس، في جملتهم الملوك والشرفاء والكهنة وغيرهم، بين نزاع وتطهير. ولنا في الانقلاب الفرنساوي أكبر شاهد: أعلن الفرنساويون الدستور أو الحرية سنة 1789 ولكن السيوف لم تستقر في أغمادها إلا بعد بضع سنين وهم يطاردون الأشراف وغيرهم من رجال العهد القديم. وقد صادروهم بأموالهم وأملاكهم وما زالوا حتى أبادوهم وساقوا الملك نفسه إلى الذبح كما تساق الأغنام.

فأين ذلك من الانقلاب العثماني السلمي الذي بدأ بالمحبة والتآلف ولو لم يفتَرِ أهل العهد القديم على الأحرار لم يسفك في سبيله دم رجل واحد. والفضل في ذلك لأصحاب هذا الانقلاب، نعني أعضاء جمعية الاتحاد والترقي الذين أدهشوا العالم بتعقلهم وحكمتهم، واعترف لهم القريب والبعيد أنهم أتوا عملًا

لم يسبقهم إليه أحد كما بينا ذلك في ما كتبناه في العام الماضي عن تاريخ هذا الانقلاب. وقد ذكرنا هناك تاريخ هذه الجمعية على ما بلغ إليه علمنا يومئذ، ونظرًا لكثرة تكتمها ما زلنا في شوق للاطلاع على تفاصيلها حتى أتينا الآستانة فاستقصينا أصلها وتاريخها من أعرف الناس بها:

جمعية الاتحاد والترقي

ذكرنا في الهلال الأول من السنة الماضية أن هذه الجمعية تأسست سنة 1894 في الآستانة ثم انتقلت إلى باريس. وفصلنا كيفية الانتظام في سلكها وتاريخ تفرعها، وما مر عليها من الأدوار حتى تضعضعت برجوع مراد بك إلى الآستانة. ثم نهوضها على يد الداماد محمود باشا وابنه البرنس صباح الدين إلى أن تمَّ الانقلاب على يد فرعها في سلانيك ومن أعضائه نيازي وأنور. ويؤخذ من مجمل القول هناك إن لجنة سلانيك المشار إليها هي نفس جمعية الاتحاد والترقي التي كان مركزها في باريس. لكننا علمنا بعد البحث الأخير أن لجنة سلانيك التي تمَّ الدستور على يدها نشأت مستقلة في سلانيك نحو سنة 1906، لكنها تنظمت على مثال الجمعية الأولى من حيث طرق الدخول والغرض الأساسي، وأعضاؤها من أحرار الأتراك. وأن الجمعية الأولى كان اسمها «جمعية الترقي» ولما صارت في باريس سميت «جمعية النظام والترقي» وكان أهم أعضائها أحمد رضا بك وخليل غانم والدكتور ناظم بك.

وكأن الأحرار استبطأوا النجاح هناك فنهض جماعة منهم في سلانيك، وفيهم طلعت بك ورحمي بك ومدحت بك وكاراسو وميناسي، وألّفوا جمعية على مثال تلك سموها «جمعية الاتحاد والترقي»، وهي أول جمعية من جمعيات الأحرار سميت بهذا الاسم، وأخذت تسعى في طلب الدستور من أقرب الطرق وأعجلها على يد الجيش. فانتظم في سلكها صغار الضباط من الملازم فما فوق إلى البكباشي، وهم قوام الجند وأهل القوة. فبلغ خبر هذه الجمعية إلى «جمعية النظام والترقي» بباريس ورئيسها أحمد رضا بك فتباحثوا في الاسم. وأرادت لجنة باريس بقاء اسم «النظام والترقي» فلم تقبل جمعية سلانيك، وسعى بعضهم في ضم الجمعيتين فلم تقبل جمعية سلانيك في عضويتها إلا الذين تحققت ثباتهم في

الغرض الأصلي ولم تغوهم أموال عبد الحميد ولا مواعيده. وأخذت تعمل بجد واجتهاد حتى فازت بالدستور كما هو مشهور وقبضت على أزمّة [زمام] الأمور، وهي صاحبة الكلمة النافذة والرأي الأعلى وأكثر أعضائها مجهولون. وأما الذين ظهروا من أعضائها وعرفهم الناس، فمنهم جماعة من كبار الموظفين فيهم ثلاثة من الوزراء وهم طلعت بك ناظر الداخلية وجاويد بك ناظر المالية ونائل بك ناظر المعارف، وهي أهم وزارات الدولة، وإليك ما عرفناه من أحوال أشهر أعضاء هذه الجمعية.

أعضاء جمعية الاتحاد والترقي

1- طلعت بك ناظر الداخلية: أصله من أدرنه سنّه 38 وكان في الماضي من مستخدمي التلغراف. وهو ربعة مع ميل إلى السمنة، جميل الطلعة، دمث الأخلاق، ذكاؤه يزيد على علمه، وفيه اقتدار على الإقناع. إذا جالسه رجل توهم من لطفه ولين عريكته أنه طوع إرادته ولكنه لا يلبث أن ينقاد له صاغرًا. وهو عازب وفقير.

2- رحمي بك: أصله من سلانيك عمره 39 سنة وهو طويل القامة رقيق العضل أشقر الشعر تزوج وولد له غلام. انتظم في الجمعية وهو غني، فبذل ماله في سبيل نصرتها، فنسبته إلى هذه الجمعية كنسبة أبي بكر الصديق إلى الصحابة. وكان مع ذلك يتجسس على جواسيس عبد الحميد. وكان عبد الحميد يستاء من نصرته للأحرار ويعدُّه من أهل الفوضى، وجرى ذكره مرة بين يديه فقال: «إن رحمي الفوضوي حامل علم الفوضوية».

3- كاراسو: هو يهودي أصله من سلانيك ويحترف مهنة المحاماة. ليس له ثروة لكنه ذكي الفؤاد، عمره 53 سنة طويل القامة خفيف العضل أسمر اللون ذو لحية شمطاء، ويمتاز عن رفاقه بأنه ماسوني وأدخل كثيرين من شبان الأتراك في الجمعية الماسونية. وهو الآن مبعوث سلانيك وله اقتدار في فن الاقتصاد، وأراد مجاراة جاويد بك في مجلس المبعوثان بالمسائل المالية فلم ينجح فعهدت نظارة المالية إلى جاويد.

4- رفيق ميناسي بك: هو من أهل الآستانة يحترف المحاماة وكان في جملة المحامين عن مدحت باشا في محاكمته المشهورة، فنقم عليه عبد الحميد وأخرجه من زمرة المحامين وحرم من المرافعة في محاكم الآستانة فالتجأ إلى سلانيك وأخذ في العمل مع الأحرار، توفي عن 52 سنة قضى 35 منها في بث روح الحرية سرًّا بين الشبان العثمانيين ممن كان يلتف حوله من الناشئة الأدباء. ولما دنا وقت الفوز كان للأحرار من خيرة أصحاب الرأي لما هو عليه من طول الاختبار والتوسع في القوانين، وكان أسمر اللون كبير اللحية مربعها نزيهًا نشيطًا، وتولى نظارة العدلية.

5- جاويد بك: أصله من سلانيك وقد عرف بالذكاء وحدّة الذهن من صباه، واشتهر بميله إلى العلوم مع الاجتهاد في تحصيلها. وقد فطر على حب العمل فلا تجده إلا مشتغلًا ولا يشتغل إلا بالمواضيع الجدية. عمره نحو 35 سنة قضى معظمها في الدرس والتدريس وأكثر تدريسه في العلوم الاقتصادية، واشتغل حينًا بتحرير الجرائد والمجلات، وله مؤلفات في الاقتصاد. وهو خطيب مصقع، ويعدونه أخطب رجال الدولة العثمانية وأعلمهم بفن الاقتصاد، شهد له بذلك علماء أوربا، وقد تزوج وماتت امرأته ولم تترك له ولدًا. وهو ناظر المالية العثمانية الآن، يرتزق من راتبه وليس له مرتزق سواه. وهو ربع القامة مع ميل إلى القصر حليق اللحية لطيف الحديث دمث الخلق.

6- الدكتور ناظم بك: من أقدم المجاهدين في سبيل الحرية من عهد لجنة النظام والترقي في باريز مع أحمد رضا بك. وهو طبيب أصله من سلانيك تعلم الطب في الآستانة ثم أرسل للتبحر في هذا العلم بأوربا فتعرف إلى أحمد رضا بك في باريس ولازمه وثبت معه في نصرة الحرية إلى النهاية، خلافًا لكثيرين غيرهما أغراهم عبد الحميد بالمال أو الوظائف ورجعوا عن جهادهم. أما الدكتور ناظم فثبت مثل ثبات أحمد رضا وخدم جمعية الاتحاد والترقي خدمًا [خدمات] ذات بال فتولى كتابتها، أي إنه كان كاتب سرها والمبشر بمبادئها ورسولها إلى الأطراف، فكان يخرج في المهمات الصعاب متنكرًا تحت خطر القتل فأظهر في أعماله دهاءً وذكاءً اعترف له بهما القاصي والداني. فكثيرًا ما كان يتنكر بثوب شيخ

أو قسيس أو بائع تبغ أو جندي، والبوليس يعلم بخروجه ويتفقده فلا يعثر عليه ولا يستطيع كشفه. وكان أكثر تخفّيه في الروملي الأناطول وخصوصًا في أزمير. وهو أسمر اللون قصير القامة ممتلئ الجسم طلق اللسان قوي الحجة يفوق رحمي بك بحرية الفكر. لم يتزوج وسنّه الآن 35 سنة.

7- أحمد رضا بك: عمره الآن نحو 49 سنة وهو رئيس مجلس المبعوثان، وكان في شبابه مديرًا للمعارف العمومية في ولاية خداوندكار ثم فرَّ منها ومن سائر تركيا على إثر إصلاحات أشار باتخاذها، ويمم باريس وتفرغ لدرس الفلسفة واختار تعاليم أوغست كنت [كونت] وتعمق فيها، واشتدت ثقة أعضاء جمعية الترقي في الآستانة به فولوه نيابتها في أوربا فأنشأ في باريس جريدة سماها «مشورت» ينشئها بالتركية مع ملحق بالفرنساوية 1896، فصار للجمعية من ذلك الحين نائبان أحدهما أحمد رضا بك صاحب «مشورت» في باريس والآخر مراد بك صاحب «ميزان» بمصر. وكان المرحوم خليل غانم سكرتير لجنة باريس ومن أكبر محرري «مشورت» الفرنساوية. واشتهر أحمد رضا بك على الخصوص بنزاهته وثباته، فقد قاسى مر العذاب وهو في باريس يشتغل للتعيش بدون الكفاف وأهل المابين يسترضونه بالأموال والرتب وهو يأبى.

8- محمد عارف بك: أصله من الروملي وهو الآن في الرابعة والثلاثين من عمره أسمر اللون ربع القامة ممتلئ الجسم، وقد انتخب نائبًا عن الدرملي في مجلس المبعوثان وكان قبل ذلك يشتغل بالمحاماة ويحرر مجلة قانونية شرعية. وكان من أكثر الساعين في نشر مبادئ الحرية في الروملي وهو فقير عازب.

9- حبيب بك: هو قائمقام في العسكرية عمره 42 سنة أسمر اللون ربع القامة وكان من المجاهدين في نشر مبادئ الجمعية وتأييدها.

10- الدكتور بهاء شاكر بك: من أهل الآستانة، جميل الصورة ربع القامة أسمر اللون ممتلئ البدن عمره 34 سنة. كان في العصر السابق طبيب البرنس يوسف عز الدين ولي العهد الحالي. فكان البرنس المشار إليه يستخدمه في تنشيط الأحرار وبث أفكاره فيهم ويبذل لهم الأموال على يده.

11- إسماعيل جان بلاط: هو شاب في التاسعة والعشرين من عمره وأحد ضباط الجيش العثماني برتبة صاغ قول أغاسي، رقيق البدن أشقر اللون خفيف الروح ذكي الفؤاد واسع الاطلاع. استخدمته الجمعية في مهمات ذات بال، من جملتها مهمة سار بها مع مصطفى نجيب بك للفتك بناظم بك صهر أنور بك وكان من كبار الجواسيس في عهد عبد الحميد. وقد أشرنا إلى ذلك في كلامنا عن خواطر نيازي بك، وأصيب برصاصة شفي منها.

12- حسين جاهد بك: من أهل الآستانة وعمره الآن 32 سنة قضى معظمها في الدرس والتدريس والتحرير والتحبير. وهو من نواب إستامبول في مجلس المبعوثان ومحرر جريدة «طنين» لسان حال جمعية الاتحاد والترقي، ويعدُّ أكتب رجال الصحافة التركية وأقدرهم على استنباط المواضيع وتوليد الأفكار وأشدهم لهجة. إذا قرأت ما يكتبه في «طنين» توهمت فيه العنف والجفاء لشدة وطأته وقوة عبارته وما يتخلل ذلك من التهديد والوعيد، فإذا خاطبته رأيته يكاد يذوب رقة ولطفًا. وهو جميل الصورة أسمر اللون حليق اللحية. لا يضارع صديقه جاويدًا في الاقتدار على العمل الطويل إلا هو، مع جسارة وقوة عزيمة وإقدام ونشاط. وهو فقير جدًّا وقد تزوج وله ولدان.

13- حافظ حقي بك: قائمقام في الجندية العثمانية وظيفته ملحق عسكري أركان حرب في سفارة فينا. وهو من أوسع الأتراك علمًا ومن أكثرهم ذكاء وجرأة، عمره 32 سنة قصير القامة أسمر اللون ممتلئ الجسم فصيح اللهجة.

14- نائل بك: ناظر المعارف العمومية من أوسع الأتراك علمًا ومعرفة وهو يرسل لحيته، وفيه رغبة في نشر العلم ويعتقد أن العلم الوسيلة المثلى في تأييد الدستور.

فترى من مجمل ما تقدم أن أعضاء هذه الجمعية الظاهرين الآن أكثرهم من أهل الآستانة وسلانيك وهم أتراك مسلمون إلا واحدًا، وأكثرهم من الأدباء والكتاب ورجال الحقوق والاقتصاد وهم طبعًا يحسنون التركية لأنها لغتهم ويحسنون أيضًا الفرنساوية. ولهم اطلاع على الآداب الأوروبية، وخصوصًا آداب الفرنساويين، وأكثرهم يعرف العربية الفصحى. وأدباء اللسان التركي لا يستغنون

عن معرفتها لترقية الإنشاء في لسانهم. ومعظمهم من الشبان تتراوح أعمارهم بين 30 سنة و40 سنة.

أما سائر أعضاء الجمعية فإنهم منتشرون في المملكة العثمانية، وأهمهم في سلانيك والآستانة ومركز الجمعية الأكبر في سلانيك. لا يعلم أحد أين يجتمعون. وهؤلاء على الإجمال مثل أكثر أدباء الأتراك من الناشئة الجديدة قد تثقفوا على النسق الحديث وتبحروا بالعلوم الحديثة واختلطوا بالأمم المتمدنة، وتفهموا أسباب الارتقاء والتقهقر فضعفت حاسة التعصب الديني في قلوبهم وأصبح مذهبم الاتحاد. وهم أهل حرية وشجاعة أدبية وصدق طوية، لا كذب ولا رياء ولا دعوة باطلة ولا جدال في غير الحق ولا عداء للأجانب، وإنما شيمهم التواضع وصدق النية في خدمة الدولة والأمة. ولا عجب وفيهم نخبة الأدباء والمحامين والأطباء ورجال العلم. وأحرى بأمثال هؤلاء أن ينبذوا التعصب الديني، وإذا جالستهم أو عاشرتهم لا تجد فرقًا بينهم وبين أرقى أهل أوربا في شيء. ونظرًا لتكتم الجمعية في أعمالها وإخفاء أسماء أعضائها قد ادعاها غير أهلها، ورأى الناس من بعض فروعها بالأطراف ما يخالف ظنهم بها فانتقدوها، وقد تكون براء من ذلك أو أنها تجيزه لحكمة تراها ولا يراها الناس، وإن كانت لا تدّعي العصمة عن الخطأ.

وللجمعية سطوة يخافها الكبير والصغير وكل مجهول مخيف، ونصير الحق أعداؤه كثيرون ولذلك فإن أعضاءها المعروفين بالآستانة في خطر على حياتهم لا يخرج أحدهم إلا مسلحًا بالمسدسات تحت أثوابه ولا ينام أو يمشي إلا على حذر. وهي صاحبة السيطرة الفعلية الآن على الوزارة ومجلس المبعوثان، تنفذ آراءها وأغراضها بواسطة أعضائها ومنهم جماعة في مجلس المبعوثان. وقد أخذت على 160 عضوًا من أعضاء المجلس عهدًا مؤيدًا باليمين بصيغة خصوصية أن يوافقوها في مساعيها العائدة على حفظ الدستور وتأييده والتأليف بين العناصر. وقد علمت مما تقدم أن من أعضائها ثلاثة وزراء ومنهم جماعة من أصحاب الوظائف الأخرى، ناهيك بمن انتظم في سلكها من ضباط الجيش، وهم ساعدها الأقوى وسيفها القاطع وقضاؤها المبرم. وأما ما تناقلته الجرائد بالأمس عن كف أيدي الجيش عن المداخلة في السياسة فيراد به أن لا يتصدى الضباط لشئون الحكومة

أو يتعرضوا لأعمال الولاة وغيرهم من موظفيها في أثناء تأدية وظائفهم. لكنهم ما زالوا أعضاء عاملين في الجمعية يحضرون اجتماعاتها ويقولون بقولها وينصرونها عند الحاجة.

على أن هذا ليس وحده سبب ما لها من الرهبة في قلوب رجال الدولة حتى من أعضائها، ولكن هناك سببًا آخر لعله أهمها، نعني فتكها بمن يحيد عن الخطة المرسومة لحفظ الدستور وتأييده كما كانت تفتك بمن تخافه على نفسها من رجال عبد الحميد. وقد ذكرنا في مكان آخر فتكها بناظم بك صهر أنور بك وبشمسي باشا وغيرهما. وهي تفعل ذلك سرًا على يد بعض أعضائها الجسورين الذين يعبر عنهم بالفدائيين لأنهم يفتدون الدستور بأرواحهم، فإذا آنست بأحد رجال الدولة أو غيرهم انحرافًا وخافت منه على الدستور مع اليأس من إصلاحه أو إرجاعه قررت في اجتماعها السرّي قتله لا تبالي كان من أعضائها أو غيرهم. فيتبرع أحد الفدائيين بقتله على الأسلوب الذي يختاره.

مجلس المبعوثان

هو القوة الدستورية الكبرى لأنه مؤلف من نواب الأمة فهو المسيطر على أعمال الحكومة. ويتألف من 260 عضوًا يقسمون بالنظر إلى الأجناس على هذه الصورة:

أعضاء	عدد	
أتراك	119	كلهم مسلمون
عرب	72	كلهم مسلمون إلا واحدًا مسيحيًا (سليمان البستاني)
يونان	23	كلهم مسيحيون أرثوذكسيون
ألبانيون	15	كلهم مسلمون
أرمن	10	كلهم مسيحيون غريغوريون
أكراد	8	كلهم مسلمون

يتبع

تابع

إسبانيول	4	كلهم يهود
بلغار	4	كلهم مسيحيون أرثوذكس
صرب	3	كلهم مسيحيون أرثوذكس
فلاخ [سكان رومانيا]	2	كلهم مسيحيون أرثوذكس
الجملة	260	

وأما النسبة من حيث الأديان فعلى هذه الصورة

مسلمون	214	
مسيحيون	42	كلهم روم أرثوذكس وأرمن إلا واحدًا كاثوليكيًا
يهود	4	

وقد ترددنا إليه مرارًا وتعرفنا إلى خيرة أعضائه من أبناء العرب، وهمّنا الوقوف على حقيقته لاعتقادنا أنه محط آمال الأمة في ما ترجوه من الإصلاح، فرأينا العمل جاريًا فيه بنشاط وهمة.

يقضي أعضاؤه معظم النهار مجتمعين يتباحثون ويتداولون. ورغم ما اعترضهم من المشاكل في السنة الماضية، وهي الأولى من سني الدستور العثماني، قد أنجزوا أعمالًا لا يتأتى لغيرهم إنجازها في مثل هذه الأحوال. ومجلس الأمة في الدول الأخرى لا ينتظر منه عملٌ كبير في السنة الأولى لأنه لا يكاد يفرغ من تنظيم داخليته. أما مجلسنا فقد أتم النظر في 53 مشروعًا من 73، أي إنه عرض عليه 73 مشروعًا درس 53 منها وقرر اللازم بشأنها، وأكثرها مشاريع مهمة في جملتها الميزانية، وهي وحدها يستغرق النظر فيها بضعة أشهر لأنها أول الميزانيات. ويروون عن مجلس المبعوثان الأول في أيام عبد الحميد أنهم عرضوا فيه 18 مشروعًا لم يقرر منها إلا مشروع واحد. ولو راجعت سجلات مجالس الدول الأخرى لما وجدت بينها مجلسًا عمل في سنته الأولى مثل عمل مجلسنا.

على أننا لا نُنْكِرُ ما ينتقده الواقف على دخائل الأمور من اختلاف القلوب بين النواب باختلاف عناصرهم. والأكثر ناقمون على الأتراك من أعضائه، بدعوى أنهم مستأثرون بالنفوذ لا يمضون إلا ما يريدونه. وقد سمعنا هذه الشكوى من بعض النواب أبناء العرب حتى توسمنا في أحدهم الرغبة في الاستعفاء، لأنه لا يرى فائدة من وجوده إذا كان صوته لا يسمع. وبعد التحري تبين لنا صدقه من الجهة التي هو ناظر فيها وذاك أن ابن العرب أو غيره من نواب العناصر الأخرى قد يقترح اقتراحًا فلا يجد من يعضده أو أنه لا يستطيع تزييده بالحجج فيسقط فيغضب. ولكن البحث في هذا المجلس حرٌّ والإقرار لا يكون إلا بالأكثرية. والعرب أكثر سائر العناصر بعد الأتراك، فإذا اقترح أحدهم اقتراحًا ولم يجد من يعضده من زملائه العرب فالذنب ذنبهم. وإذا كان الاقتراح نفسه ضعيفًا فسقوطه طبيعي، لأن الغرض من أعمال المجلس النظر في مصلحة الأمة العثمانية بقطع النظر عن العناصر والمذاهب.

لا خلاف في أن النفوذ الحقيقي في مجلس المبعوثان لجمعية الاتحاد والترقي ورأيها هو السائر وإرادتها هي النافذة، ومنها عدد كبير من أعضاء المجلس تشكلت منهم لجنة تعرف بلجنة الاتحاد والترقي أكثرها من الأتراك. وقد أيدت هذا النفوذ عند افتتاح المجلس بأنها استحلفت 160 عضوًا منهم يمينًا تقضي بمناصرتها والأخذ بآرائها كما تقدم. فلا عجب إذا كان المجلس طوع إرادتها أو صدى أفكارها، ولا ضرر من ذلك لأنها أشد العثمانيين غيرة على الدستور وتفانيًا في نصرته، فأصبح الرأي الغالب في مجلس المبعوثان لهذه الجمعية أو للأتراك، فاستدلت سائر العناصر من ذلك أن الأتراك إنما يفعلون ذلك استئثارًا بالسلطة تعصبًا للأتراك على غيرهم، فنشأ سوء التفاهم بين الأتراك وسائر العناصر.

والحقيقة أن بعض الأعضاء وخصوصًا أبناء العرب حديثو عهد في النيابة لم يألفوا المناظرات السياسية، فإذا اقترحوا اقتراحًا لم يجابوا عليه عَدُّوا ذلك حطّة بمقامهم أو استبدادًا من زملائهم، فيتذمرون وينسبون ذلك إلى تعصب الأتراك عليهم، وإذا لحظ التركي تذمرهم توهّم سوء القصد فيهم. والبعض الآخر توسموا في النيابة جرّ المغانم لأنفسهم فأخذوا منذ توسدهم منصتها يطلبون الناصب لهم

أو لذويهم، فلما لم يجدوا ما أملوا غضبوا وقالوا: «إن الحكومة لا تسند الوظائف لأبناء العرب تعصبًا للجنس». نعم إن العرب لم ينالوا من المناصب ما يستحق الذكر بالنسبة إلى عددهم، ولكننا لا نعتقد أنهم حرموا منها لتعصب الأتراك أو جمعية الاتحاد والترقي على العرب، لأن هذه الجمعية - على ما ظهر منها إلى اليوم - من أبعد الجماعات عن التعصب وإنما هي تتعصب للدستور وتحارب كل ما تظنه يقف في سبيله. فلا تختار للوظائف إلا الأكفاء، لا تراعي في ذلك خليلًا. ولا ينبغي لنا أن نتجاهل عن حقيقة مقدرتنا على الأعمال السياسية بالقياس على الأتراك، فإن هؤلاء أكثر بلاءً لها وأوسع اختبارًا فيها بعد أن تعودوها أجيالًا متوالية وهم أصحاب الدولة. وقد نسي العرب السياسة لطول التقاعد عنها، فضلًا عن أن اختلاط أحرار الأتراك بأهل أوربا في أثناء جهادهم كان أكثر من اختلاط أحرار العرب.

على أننا نعرف بين النواب العرب جماعة من أهل الحكمة والرأي والإنصاف لم تفتهم هذه الحقيقة فكانوا وسيلة التقارب بين العنصرين. ولم تنقض السنة الأولى حتى زاد التفاهم بين النواب فتقدم كل من العناصر خطوة نحو صاحبه. والظاهر أنهم تقدموا خطوة أخرى في هذا العام بدليل أنهم انتخبوا صديقنا سليمان أفندي البستاني نائب بيروت وكيلًا لرئيس مجلس المبعوثان، وهو العربي المسيحي الوحيد في ذلك المجلس، فدلّ انتخابه على بعد القوم عن التعصب الجنسي والديني معًا. وصرنا نرجو أن يزول سوء التفاهم بالكلية ويعمل النواب يدًا واحدة لغرض واحد هو تأييد الدستور، وإذا لم يفعلوا فالعاقبة وبيلة لا سمح الله لأن حسن التفاهم بين النواب يتوقف عليه الائتلاف بين العناصر في سائر أطراف المملكة. وعلى هذا الائتلاف يتوقف بقاء الدولة وعلى الانقسام يتوقف خرابها، وليس بين الحالين وسطٌ. لأن الدولة العثمانية إذا حافظت على الدستور عاشت وضارعت أرقى الدول المتمدنة وإذا عجزت عن حفظه تمزقت وذهبت نهبًا مقسمًا. فليتكاتف النواب على إزالة العقبات القائمة في طريق الدستور، ولا بد من تبادل حسن الظن فيما بينهم ولو بالإغضاء عما يظهر على غير المرام - فإن اتهامك صاحبك بسيئة يريدها بك يهوّن عليه ارتكاب تلك السيئة - ولا يتفق اثنان إلا كان أحدهما مغلوبًا، ويغلب أن يكون أعقلهما.

فنحن في حاجة إلى نبذ التنافس والانقسام حتى في الأحزاب السياسية مع كثرتها في برلمانات أوربا، وهم يجدون فيها فائدة لهم في تمحيص الآراء. وأما نحن فالأحزاب المذكورة لا تفيدنا الآن، وقد تضرنا لأنها تشغلنا عن الاتفاق في الأمور الأساسية اللازمة لتأييد دستورنا. دعونا من البحث في المركزية واللامركزية، إن أمامنا عقبات لم تكن لدساتير الأمم الأخرى لأن أحوالنا تختلف عن أحوالهم فطريقنا في تأييده غير طريقهم. وإذا جاز لنا إبداء رأينا في حالنا الحاضرة تقدّم الكلام في العقبات التي نخافها على الدستور والوسائل المثنى لملافاتها فنقول:

العقبات في طريق الدستور

(1) اختلاف العناصر

ليس في الممالك المعاصرة في مشرق الأرض ومغربها مملكة تحوي من العناصر المختلفة ما تحوي المملكة العثمانية. فهي تتألف من بضعة عشر عنصرًا يختلفون في لغاتهم وعاداتهم وآدابهم وأديانهم. وأهم هذه العناصر الأتراك والعرب واليونان والألبان والأرمن والأكراد والبلغار والصرب والفلاخ. وأكثرهم أهل تاريخ ومجد قديم وفيهم نزوع إلى الاستقلال بتذكر سابق سؤددهم. ويغلب في بقايا الدول الكبرى التفاخر بأسلافها أكثر من تفاخر أسلافها بمجدهم، كأبناء الأسر الكبرى لا يفتخر بشرف الأسرة منهم إلا الضعيف الذي ليس له من عمله ما يفتخر به.

وأكثر الأمم العثمانية افتخارًا بسالف المجد العرب فإنهم أبناء أمة نشرت الإسلام وقلبت التاريخ وأنشأت تمدنًا غيّر وجه البسيطة. وهم مع ذلك أكثر العثمانيين عددًا. وفي أهل الجزيرة منهم جنوحٌ إلى الخيال الشعري، قد يرون الأمور خلاف ما هي ويتوهمون في أنفسهم المقدرة على كل شيء، وربما تذكروا سابق مجدهم يوم التفاخر بالنسب إذ كانوا يسمون غير العرب موالي. وأن الأتراك حكموهم ظلمًا في الدور السابق وقد آن وقت الاستقلال. فيدلون بعروبتهم وإسلامهم ويطلبون فوق ما يحق لهم، وربما أغراهم البعض على التحدث بالخلافة وهل تجوز لغير العربي أو لا تجوز. وإذا لم يتحدثوا فهم

متهمون بالجنوح إلى الاستقلال كما أشاعت الصحف بالأمس عن أحد ملوك جزيرة العرب أنه كاتب زملاءه رؤساء القبائل بالاتحاد للاستقلال ولم يفلح. فهذه الشائعة وإن كانت كاذبة فإنها تبعث على الحذر وسوء الظن وتشوّش على الدولة أعمالها.

واعتبر ذلك باليونان فإنهم من بقايا دولة الروم أصحاب القسطنطينية ويفاخرون بفلاسفتهم وعلمائهم وخطبائهم، فقد أنشأوا تمدنًا خاصًا بهم منذ ثلاثين قرنًا وسنّوا لأهل الأجيال التالية سُنّة مشوا عليها، وعنهم أخذ الرومان والفرس والعرب عوامل المدنية والعلم والفلسفة. فهؤلاء ما زالوا منذ غلبهم الأتراك وهم يجنحون إلى الاستقلال، فلما نالوه أخذوا يتطاولون بأعناقهم نحو القسطنطينية يرجون استرجاعها بما أصاب الدولة العثمانية في القرون الأخيرة من الضعف حتى كادت تنحل أو تتطاير شعاعًا أو تتفتت قطعًا ينال كل دولة من جيرانها قطعة، فكانت أبصارهم شاخصة إلى الآستانة بلد قسطنطين وكانوا يجاهرون بذلك على منابرهم. ومن لطيف ما يروى من هذا القبيل أن وليّ عهد اليونان سئل في حفلة الامتحان الكبرى بالمدرسة التي كان يتخرج فيها عن حدود مملكة اليونان فذكر حدودها من الشرق والغرب والجنوب ولم يذكر حدودها الشمالية، فسأله الأستاذ عن سبب إغفاله الحد الشمالي فقال «لأنه غير معروف»، يشير إلى الأمل في امتداده إلى الآستانة أو ما وراءها. فالروم الداخلون في رعاية الدولة العثمانية هم من أولئك اليونان أصحاب هذا المجد القديم، وحكمهم من حيث جسم المملكة العثمانية مثل حكم العرب.

والألبان أهل تاريخ وفيهم نزوع إلى الاستقلال ونبغ منهم قواد اشتهروا بالشجاعة والنجدة. دخلوا في حوزة الدولة العثمانية سنة 1478، قهرًا وما زالوا من ذلك الحين يتذمرون ويتمردون فيكلفونها تجنيد الجند لقمع عصيانهم حتى لقد كان خيرًا لها لو تخلت عنهم. على أنهم تمكنوا من الاستقلال مدة في أول القرن التاسع عشر على يد قائدهم الشهير علي باشا تبه دلنلي ثم عادوا إلى حكم الدولة صاغرين وفي قلوبهم رغبة في الاستقلال، وقد جاهروا به بعد ظهور الدستور.

والأرمن إذا لم يفاخروا بمجدهم القديم، إذ لم يكن لهم دولة كبرى ولا تمدن خاص، فهم يفاخرون أهل الدستور بأنهم أول من سفكت دماؤهم في

سبيله، وأنشأوا جمعياتهم السرية جمعوا فيها الأموال لمحاربة الدور الماضي قبل إنشاء جمعية الاتحاد والترقي، وقد ذبح منهم في هذا السبيل مئات الألوف.

واعتبر ذلك في الصرب والبلغار والفلاخ، ولكل منهم دولة جديدة حية، فيما أيسر عليهم من الدخول في سلطان أبناء جنسهم ولغتهم ودينهم. فالخوف على الدستور العثماني ليس من تعدد العناصر في المملكة العثمانية، فإن في مملكة النمسا أجناسًا كثيرة، وإنما الخوف من اختلاف أغراضها ومن التحدث بسابق مجدها فيصعب إذلالها بالقوة أو جمع كلمتها بالحسنى. فهي لا يهمها إذا انحل عقد الدولة، إذ ربما عاد ذلك إلى استقلالها، أو دخولها في سلطة دولة من مذهبها أو لسانها.

فأكثر الأمم العثمانية رغبة في بقاء هذه الدولة الأتراك لأنهم يشعرون أنها دولتهم وفي بقائها بقاء مجدهم، فهم حريصون على الاحتفاظ بها جهد طاقتهم، ولذلك رأيناهم شديدي الغيرة على الدستور، وربما أغضبوا سائر العناصر ضنًّا به ورغبة في استبقائه لأن في بقائه بقاءهم.

وقد جرّأ العناصر الأخرى على التطلع إلى الاستقلال ما صرح به البرنس صباح الدين جهارًا من ميله إلى الاستقلال الإداري «اللامركزية» بين الولايات، وهو رأي خطير كان ينبغي حفظه في طي الكتمان حتى ترسخ قدم الدولة في الحكم الدستوري وتتفرغ من مشاكلها الخارجية والداخلية، لا أن يقوله والدولة لا تزال ناهضة من تحت أثقال الاستبداد أجيالًا متوالية، وقد نخر الفساد عظمها وليس فيها عضو سليم يستطيع البقاء منفردًا وإنما هي تتساند في سيرها وتتعاون في قيامها وقعودها. فكيف تتفرق تلك الأعضاء وتعيش مستقلة؟ فهي إلى التعاون والتكاتف أحوج ريثما يشتد ساعدها. فإذا رأت بعد ذلك أن تتفرّع بالاستقلال الإداري فهي وشأنها.

(2) اختلاف المذاهب الدينية

في المملكة العثمانية مذاهب متعددة، فمن رعاياها المسلم السني والشيعي والوهابي ثم المسيحي على اختلاف الطوائف من الأرثوذكسي والنسطوري والماروني والكاثوليكي واللاتيني واليعقوبي والإنجيلي. غير أهل الأديان

الأخرى كاليهود والدروز والنصيرية وغيرهم، ولكن اختلاف المذاهب لم يكن ليخشى منه لو لم يفرق عبد الحميد بين القلوب بسياسة التقسيم كما بينا ذلك في ترجمة حاله بالسنة الماضية. فإن سياسته الخرقاء اقتضت التفريق بين المذاهب، وخصوصًا بين المسلمين والمسيحيين، فأصبحت كل طائفة تنظر إلى أهل الطائفة الأخرى نظر العدو إلى عدوه.

وكانت الحكومة تنتصر للمسلمين فاضطر النصارى إلى الاحتماء بالدول الأخرى، وانقسموا بالحماية فرقًا دينية حسب مذاهب الدول التي حمتهم، وأصبح لكل فرقة من النصارى دولة تدافع عن حقوقها فالكاثوليك والموارنة تحميهم فرنسا، والروم الأرثوذكس تحميهم روسيا، والبروتستانت تحميهم إنكلترا أو أمريكا عند مسيس الحاجة. وقد دخل بعضهم في رعوية تلك الدول فصاروا يعدون من رعاياها.

فتحوَّلت قلوب المسيحيين بذلك عن دولتهم. وأصبحوا يعدُّون أنفسهم غرباء فيها ويودون التخلص منها والدخول في حوزة سواها من الدول النصرانية. وقد جاءهم الدستور العثماني وهم لم يتعودوا الاجتماع فيما بينهم فكيف يجتمعون مع الطوائف الأخرى. وزِدْ على ذلك أن بعضهم لم يشعروا حتى الآن أن الدولة دولتهم وأنهم مطالبون بالدفاع عنها والسعي في استبقائها. وإذا أصيبت الدولة بسوء قلما يشعرون بالإصابة وإذا شعروا بها فكاللطمة على الجلد. وأما التركي فيشعر بها في قلبه. وربما توهم بعض غلاة التعصب من المسيحيين أن ذهاب الدولة لا يهمهم فيلتجئون إلى إحدى الدول النصرانية. وهذا سبب نفورهم حتى الآن من الجندية. وسمعنا أحد كبار النصارى الذين يحبون الدستور وقد شبَّ على الحرية من صغره لما وثب الارتجاعيون بأهل الدستور في 13 أبريل [نيسان] الماضي يقول: «إن بقاء الدولة العثمانية بعد الدستور أصبح يهمنا لكن إذا غلب الارتجاعيون فلا يضرنا ذلك ونحن خارجها»، لأنه يقيم بمصر ولو لم يكن فيها فإنه يلجأ إليها أو إلى غيرها.

وهو قول يدلُّ على ما تأصل في عروق بعض المسيحيين من الاحتماء بالأجانب واعتبار أنفسهم غرباء عن الدولة العثمانية. فهؤلاء لم يدركوا معنى الجامعة العثمانية أو لم يصدقوا أن المسلمين نزعوا الضغائن من قلوبهم. كما

لم يصدق العرب المسلمون إخلاص الأتراك في تنازلهم عن امتيازهم. فما زالوا يخافونهم على الاستئثار بالسيادة ويتهمونهم بالتعصب لجنسهم. فاعتبر أسباب التفريق بين العناصر والمذاهب فإنها من أكبر العقبات في طريق الدستور العثماني.

(3) بقايا الدور الماضي

لم يخلع عبد الحميد عن العرش العثماني إلا بعد أن أفسد أخلاق الأمة العثمانية بسوء سياسته لأن الناس معرضون للرذيلة بضعف طبيعتهم، فكيف إذا شجعهم عليها ملكهم أو إمامهم وجعل الثروة والجاه جزاء للخيانة والغدر. جعل الجاسوسية من أوسع أبواب الرزق وحمل الناس على قتل الناس إغراء بالمال أو الجاه. فَفَسَدَتْ أحكام الدولة وتصدّر فيها أهل التملق. وأسندت المناصب إلى الذين ينفذون إرادته، وفيهم جماعة كبيرة من المغلوبين على أمرهم ساروا مع التيار التماسًا للرزق، غير الذين شجعوا عبد الحميد على التوسع في الشر.

قبض الدستوريون على أزِمَّةِ الدولة وهم لا يريدون بأحدٍ سوءًا، لكنهم اضطروا بعد 13 أبريل إلى إعلان الحكم العرفي ومحاكمة الجانين فقتلوا جماعة ونفوا آخرين. وفي جملة المحكوم عليهم جماعة من كبار رجال الدولة في الدور الماضي كانوا أصحاب الحول والطول فيها، يهابهم الناس ويتزلفون إليهم طمعًا في خدمة أو رزق أو يتملقونهم فرارًا من الأذى فأصبحوا بعد الحكم العرفي مبعدين أذلاء. فهؤلاء مهما أحسنا الظن بهم وتخيلنا التعقل وحسن النية فيهم لا نشك في أنهم إذا لم يستطيعوا سعيًا في إفساد أمر الدستور فإنهم يعينون على إفساده أو يفرحون بسقوطه. وهم جماعة كبيرة، ولكل منهم أعوان وأتباع ذهب رزقهم بذهاب الدولة فهم يتمنون رجوعها من صميم أفئدتهم. فوجود هؤلاء غاضبين من جملة العقبات في سبيل الدستور. وخصوصًا إذا بالغ رجاله في إحسان الظن ولم يدققوا المراقبة.

ويدخل في بقايا الدور الماضي بعض أعيان البلاد الذين كانوا يستفيدون من فساد الأحكام ويستبدون بالضعفاء من الفلاحين وغيرهم، وقد وضعوا أيديهم على أطيان ليست لهم وشاركوا ولاة السوء بابتزاز الأموال وسلب الحقوق. فلما

جاء الدستور بالحرية والمساواة والعدالة ذهب نفوذهم وأصبحوا في خطر على أموالهم وأطيانهم بين يدي القضاء، فهم طبعًا ناقمون على الدستور.

(4) المعزولون

كان في الدولة العثمانية كثير من المناصب التي أوجدتها سياسة عبد الحميد، وليس لأصحابها عمل غير الاستيلاء على رواتبهم والبقاء في الآستانة إلا حذرًا من شرهم أو آملًا في استخدامهم في أهوائه. وألّف لذلك دوائر خاصة تظهر لأول وهلة من أهم الدوائر، كدائرة شورى الدولة ومجلس المعارف والجمعية الرسومية ومجلس البلدية، غير من رقّاهم في الرتب العسكرية كالمشيرين والفرقاء والياوران ورجال المابين وغيرهم، وما هم بالحقيقة إلا خَدَمَةَ أغراضه، فبمجرد خلعه أصبح هؤلاء لا عمل لهم فعزلوا، وهم يعدون بالمئات وفيهم جماعة من الأذكياء أهل المطامع، وقد تعودوا الدسائس والمفاسد من أسلوب الحكم الماضي.

ولما اهتمت الحكومة في وضع الميزانية الجديدة وجدت أنها في غنى عن ألوف من مستخدميها في الآستانة والولايات غير الذين تريد إبدالهم لأنهم من بقايا الدور الماضي. لا نعلم عدد الذين سيعزلون ولكنهم كثيرون، فقد قال لنا جاويد بك ناظر المالية نفسه: إن الذين تستغني عنهم نظارة المالية وحدها يزيد عددهم على سبعمائة. فقس عليها سائر النظارات والولايات في الأطراف فربما بلغ عدد المعزولين عشرة آلاف نفس، وأكثر هؤلاء لا رزق لهم من غير الخدمة.

وقد ظهر لنا مما دار بيننا وبين جاويد بك بهذا الشأن أن الحكومة عازمة على بذل الجهد في تخفيف وطأة الضيق عن المعزولين بقدر الإمكان. ولا نظنها تقدر أن تخفف عنهم كثيرًا، فهذه الألوف من الناس إنما نكبوا من الدستور فلا غرو إذا نقموا على أصحابه.

وقد انقطعت أرزاق عائلات كثيرة كانت تتعيش من المابين وأهله، وهم من العامة كانت تحمل إليهم أطباق الطعام مجانًا أو يشترونها بأثمان بخسة. ولما ضُيّق على المابين وانحصرت مطابخهُ وموائده، جاع كثيرون ممن لا يفهمون معنى الدستور.

(5) الضباط الذين انحطت رتبهم

لما أخذت الحكومة العثمانية تنظر في تنظيم شئونها وجدت كثيرين من ضباط الجيش ترقوا بغير استحقاق، وإنما رقاهم عبد الحميد لأغراض له، بقطع النظر عن قواعد الترقي المسنونة في النظام العسكري، فقررت تنزيل رتب كثيرين منهم طبقًا لذلك النظام بعد ملاحظة مدة خدمة كل منهم وسنه. فأصاب ذلك التعديل جماعة من كبار الضباط، وفيهم من كان مشيرًا فأصبح أميرالاي أو كان فريقًا فرجع لواءً، وهكذا.

وتنزيل الرتبة العسكرية يقتضي تنزيل راتبها، فالفريق الذي كان راتبه عشرة آلاف غرش في الشهر، لما صار أميرالاي صار 2500 غرش، فبعد أن كان ينفق على اقتناء المركبات والفرش الثمين أصبح مضطرًا إلى الاقتصار على الضروري. وقد رقوا كثيرين من الضباط الصغار لأنهم حرموا من الترقي في زمن عبد الحميد وهم يستحقونه.

وفي الرتب العسكرية اعتبارات كثيرة يثقل بها هذا التغيير، كالتفاوت بين أصحاب الرتب بالعلامات، والتقدم في المسير أو السلام أو غير ذلك. وكلها توغر الصدور وتثير النقمة، فهي من جملة العقبات.

(6) الجهل

الجهل أكبر أدوائنا بل هو علة العلل في تقهقرنا، لأن الأمة العثمانية على إجمالها لم تتهيأ للدستور ولكنها نالته بفضل طائفة الأحرار، وهم طبقة العلماء والأدباء والعقلاء الذين تثقفوا بالتمدن الحديث وفهموا حقائق الأمور فتبنوا التعصب الديني والجنسي والتفتوا إلى المصلحة العامة وأيدهم أهل المدن المرتقية. وأما الأمة على إجمالها فلا تزال غارقة في الجهل، وهو علة ما شكوناه من تعصبها الجنسي والديني، ولا نعني بالعلم مجرد حفظ العلوم والآداب كالشعر والنحو والحساب، وإنما نريد به ترقية شعور الناس بالتربية الصحيحة التي تعلم الإنسان ما له وما عليه. وهي ضعيفة في بلادنا، وخصوصًا في الداخلية، فإن الجهل هناك هو علة المذابح التي تتألم منها الإنسانية. أيقدم الإنسان على قتل أخيه بمجرد كونه يعبد الله على أسلوب غير أسلوبه إلا وهو جاهل أعمى؟

فالجهل علة انقسامنا والباعث الأكبر على تشتت شملنا. اعتبر ذلك في ما ظهر في الفرق في استقبال الدستور بين البلاد العثمانية. فقد رأينا أكثر البلاد تعلمًا أكثرها فرحًا بالدستور وأثبتها قدمًا فيه. هذه الآستانة وسلانيك وبيروت فإنها أكثر المدائن العثمانية تعلقًا بالدستور ودفاعًا عنه لأنها أرقاها بالعلم والتربية. واعتبر حال أهل القرى، فإن أكثرهم لم يفهموا معنى الحرية أو الدستور، وفيهم من يعتقد هذا النوع من الحكومة مخالفًا للدين. وإن كان لا يفهم معنى ذلك أو لا يقدر أن يبرهنهُ ولكنه يقوله انصياعًا لبعض المفسدين الناقمين ممن تقدمت الإشارة إليهم، إذ يأتيه من حيث يشرع ويتأثر، وهو الدين، فيغريه على أهل الدستور بالكذب والحيلة. فإذا كان مسلمًا أكد له أن الدستور يساوي المسيحي واليهودي بالمسلم وهذا يخالف الشرع الإسلامي. وإذا كان مسيحيًّا ضرب له على وتر الجنس، فإذا كان عربيًّا قال لهُ إن أصحاب هذا الدستور أتراك وهم يظهرون التوحيد بين العناصر ريثما تتمكن قدمهم في الدولة فيستأثرون بالسيادة لأنفسهم. أو يقول له إن هذا الدستور حركة إسلامية يراد بها تأييد الجامعة الإسلامية وهي ضد النصرانية وقس على ذلك. فيصدق العامة هذه الأقوال ويداخل قلوبهم غِلٌّ على الدستور وأهله، وهل من سبب لذلك غير الجهل؟ نعوذ بالله منه.

(7) فقر الدولة بالمال والرجال

ظهرت الميزانية الأولى بالأمس وقد نقص دخلها عن خرجها نحو أربعة ملايين جنيه ستستدينها الدولة، وستوالي هذا النقص عدة أعوام ريثما تنتظم شئونها وتظهر ثمار الإصلاح فيها. إن بلاد الدولة غنية وفيها موارد كثيرة، وإنما تحتاج إلى من يستدرُّها، وقد تهافت أصحاب الأموال على الباب العالي منذ إعلان الدستور يطلبون الرخص لإنشاء المشاريع الصناعية أو الزراعية أو الاقتصادية، وبلغت الرخص التي أعطتها الحكومة إلى الآن لأجل استخراج المعادن من باطن الأرض نحو 30 رخصة. غير الرخص لمدّ السكك الحديدية أو التليفون أو الري أو غير ذلك مما لا تزال المخابرة جارية فيه، ولا بد من إتمامه عاجلًا، أو آجلًا فتزيد الحركة المالية في المملكة العثمانية وتتألف الشركات وترتفع أثمان الأرضين وتحدث نهضة مالية مثل التي حدثت بمصر منذ بضع سنين، لكن هذه الأثمار المرجوة لا يتيسر الوصول إليها إلا بعد نشر الإصلاح واستتباب الأمن

وتوفر الحقوق لأصحابها، بحيث يأمن كل إنسان على ماله وأهله ونفسه، وهي العقبة الكئود في طريق ناظر الداخلية (طلعت بك)، فقد علمنا أنه حالما عهدت النظارة إليه وهو راجع من مهمته في لندن، كان أول فكر خطر له أن يعهد بحكومة الولايات إلى ولاة ومتصرفين أكفاء ينظمون شئونها وينشرون العدل بين أهليها ويبثون روح الإصلاح فيها، لكنه ما لبث أن عزم على إخراج ذلك إلى حيز العمل حتى تبينت له الصعوبة الكبرى في الوصول إلى المطلوب إلا بمرور السنين والصبر الطويل، وذلك أنه لم يجد بين يديه الرجال الأكفاء من الأحرار ليبدلهم من العمال السابقين.

إن الولاة ومن يلحقهم من الحكام في أطراف المملكة يعدون بالألوف، وكلهم كانوا في مراكزهم من زمن عبد الحميد، وأكثرهم من الطرز القديم الذين أفسدهم رجال العهد الماضي. فإذا أرادت الحكومة إبدالهم لا تجد بين الشبان الأحرار عددًا يكفي للقيام بذلك العمل. والموجودون يندر فيهم أهل الكفاءة للحكومة لقلة الاختبار، أو إذا وجد الكفء استقل الراتب بالنسبة إلى حاجياته. فالدولة فقيرة بالمال والرجال معًا ولا بد لها من استبقاء بعض رجال العهد الماضي ريثما تنشأ طبقة من الأحرار الأكفاء.

ويقال نحو ذلك في سائر الوظائف من الوزارة فما دون. فهي تشترط في العمال المطلوبين أن تكون فيهم النزاهة والإخلاص للدستور فضلًا عن الكفاءة وهؤلاء قليلون، أو أنها لم توفق إلى معرفة الأكفاء منهم وهي تبحث وتنتقي، وإذا وجدت الكفء وتأكدت صدق نيته عهدت إليه بالمنصب لا تبالي أن يكون تركيًّا أو عربيًّا أو ألبانيًّا أو كرديًّا، وقد ردت كثيرين من طلاب المناصب لعدم لياقتهم أو لأنها لم تتفق معهم على الشروط، وكان بينهم جماعة من غير الأتراك فاتخذت العناصر على الشروط وكان بينهم جماعة من غير الأتراك، فاتخذت العناصر الأخرى ذلك ذريعة للطعن في الأتراك (أصحاب الحل والعقد) واتهامهم بالتعصب لجنسهم على سائر الأجناس.

(8) سوء التفاهم بين الترك والعرب

خصصنا العرب في هذا البحث دون سواهم من العناصر الأخرى لأن

الأمر يعنينا أكثر مما يعني سوانا. ولأن الاختلاف بين هذين العنصرين أهم من الاختلاف بين سائر العناصر، وإذا تفاهم الترك والعرب وتعاونوا لا يبالون بمن خالفهم من الأمم الأخرى. على أن هذه العناصر إذا تحققت [من] اتحاد العرب والترك لا تجسر على الخلاف. فسوء التفاهم بين هذين العنصرين من أكبر العقبات في طريق الدولة العثمانية، وقد اختلف الناس في سببه، وأسبابه كثيرة ترجع إلى التباعد والإصغاء إلى المفسدين، فالأتراك هم أهل الدولة ورجال الحكومة من عهد عثمان الأول ولا يزالون إلى الآن لا يرتزقون بغير الخدمة الأميرية. مضى عليهم عدة أجيال وهم أهل السيادة، يخافهم العربي والأرمني والرومي والألباني. ولا يذعن الرعايا للحاكم العثماني إلا إذا كان تركيًّا لقوة بطشه وشدة وطأته، حتى أصبح لفظ تركي في بعض البلاد مرادفًا للفظ الحاكم، فالسودانيون يريدون بالأتراك أهل الوجاهة والسيادة، ولما رأوا الإنكليز لأول مرة وحاربوهم سموهم الأتراك.

ما زال ذلك شأن الأتراك مع سواهم حتى أخذت الدولة في التسوية [المساواة] بين رعاياها في أواسط القرن الماضي، فنشر السلطان عبد المجيد خط كلخانة القاضي بالتسوية بين المذاهب والعناصر ولكن العادة تغلبت، فلا المسلمون أو الأتراك أذعنوا لتلك التسوية ولا رعاياهم أدركوا حقهم فيها ولا طالبوا بها لتغلب الجهل والجبن على طباعهم. وكان الشرق قد هب من رقدته وأخذ في اقتباس عوامل التمدن الحديث فنبغ الأدباء والشعراء ورجال السياسة والحكمة من الأتراك، وأكثرهم اطلعوا على آداب الإفرنج وخالطوهم في بلادهم وعلموا أسباب تقدمهم، ورأوا دولتهم آخذة في التقهقر وعلموا أنها لا تنهض إلا بنقلها من الحكم الاستبدادي إلى الدستوري والتسوية بين الرعايا في الحقوق والواجبات وجمع كلمة العناصر المختلفة باسم العثمانيين، فأخذوا يبثون هذه الروح في الأمة فلم تختمر إلا في آخر حكم عبد العزيز فخلعوه وولوا مرادًا وهو دستوري فلم يطل حكمه، فولوا عبد الحميد مكانه على أن يؤيد الدستور فلم يفعل بل ناهضهم وحاربهم بالتفريق والتجسس والفتك على ما فصلناه في ترجمة حاله.

وكانت نقمته موجهة إلى الأتراك بنوع خاص فكان في جملة مساعيه ضدهم أنه استعان عليهم بالعرب واختلق الجامعة العربية وقرب إليه جماعة من العرب جعل الحل والعقد إليهم فأوغر صدور الأتراك عليهم. ثم حولها إلى الجامعة الإسلامية فسعى في جمع كلمة المسلمين تحت خلافته إلى الهند والصين، وآل ذلك إلى التباغض بين المسلمين وغيرهم في المملكة العثمانية. والأتراك الأحرار يجاهدون في طلب الدستور ينفقون في سبيله الأموال والأرواح، وأخذ يناصرهم جماعة من أدباء العرب، فلما تأتّى لهم نيله في أواسط العام الماضي نادوا بالوحدة العثمانية وجاهروا بالتنازل عن امتيازاتهم لاعتقادهم أنهم لا يفلحون إلا بذلك. وتقربوا على الخصوص إلى العرب، وقد غضوا عمن أخذ منهم بيد عبد الحميد لعلمهم أن آخرين منهم نصروهم في جهادهم على الحكومة الظالمة.

أعلن الدستور وتصافح العربي والتركي والأرمني والرومي وغيرهم وتعانق الشيخ والقسيس، وعمَّ الفرح كل عثماني إلا أنصار العهد الماضي لأن الدستور أسقطهم وأضاع نفوذهم وأصبحوا في خطر على حياتهم، والإنسان يضحي [بـ] كل شيء في سبيل حياته أو كرامته. فأخذوا يسعون في التفريق بين العناصر والمذاهب، يغرون كل قوم أو عنصر على تشكيل الجمعيات القومية. وربما كان العرب أسبق الجميع إلى الاغترار فأنشأوا جمعية الإخاء العربي، وقام عربي في باريس دعا السوريين إلى الاستقلال الإداري عملًا برأي صباح الدين، ولا تزال جريدة «نهضة العرب» تصدر في باريس تطالب بحقوق العرب وتبين فضل العرب على سواهم.

وجعل الساعون من الجهة الأخرى يعظمون هذا الأمر على الأتراك ويوغرون صدورهم على العرب، فتغيرت القلوب وأصبحت كل طائفة تفسر أعمال الطائفة الأخرى بسوء القصد. وأساء الأتراك الظن في العرب لما رأوه من تباعدهم، وظهر ذلك في بعض إجراءات الحكومة وأصبحت تصدق الوشاية بهم وتصغي إلى الدسيسة، فغضب العرب لذلك لأنهم يعتقدون إخلاصهم للدستور، وأكثرهم مخلصون له ولكنهم تعجلوا الانتفاع به ولم يصبروا.

فلما اجتمع النواب من أطراف المملكة في العام الماضي كان سوء التفاهم

قد بدأ بين العرب والترك، وكل منهما عاتبٌ على صاحبه على تفاوت في الاعتقاد. فكان نواب العرب في ذلك ثلاث درجات، بعضهم سيئ الظن بالأتراك يعتقد أنهم يظهرون المساواة ويضمرون الاستئثار، والبعض الآخر يعتقد سوء التفاهم متبادلًا ولكنه يرى الأتراك أولى بإزالته وعليهم أن يبدأوا هم بالتقرب والمحاسنة. والبعض الآخر وهم الأقلية كانوا يعتقدون الخطأ بجانب العرب ويحسنون الظن في الأتراك فتقربوا منهم وكانوا واسطة الاتصال بين الطائفتين.

والواقع أن الأمة العربية وسائر العناصر العثمانية، إذا كانت غير راضية عن الأتراك فلأنها لم تتحقق صدق نيتهم في تنازلهم عن امتيازهم، ولا يلبثون أن يتحققوه حتى يصيروا أكثر تعلقًا بالدستور وأشد تمسكًا به من الأتراك أنفسهم، لأنه رفع شأنهم وحفظ حقوقهم وأمّنهم على أرواحهم وأموالهم. ولو فرضنا المستحيل وأن الأتراك يريدون الاستئثار بالسيادة دون سواهم فيكفينا الخروج من الظلم إلى العدل.

مسألة الخلافة العربية

ومما أوغر صدور الأتراك على العرب اتهامهم بالسعي في إنشاء خلافة عربية، وهي أُضْحُوكَةٌ قديمة العهد أحياها بعض المرتزقين بالدسائس في زمن عبد الحميد لاستدرار أمواله، وكانوا يصنعون المنشورات السرية باسم «الأحرار العثمانيين» أو «تركيا الفتاة» بلا توقيع يطعنون فيها على خلافة آل عثمان ويدعون المسلمين إلى خلافة عربية. ويبعثون بنسخ من تلك المنشورات مع تقارير يرفعونها إلى المابين يزعمون أنهم اكتشفوا جمعية سرية تسعى في هذا السبيل. فيرسل إليهم المابين الأموال للمكافأة أو لمواصلة السعي، وكانت تأتينا منشورات أولئك الدساسين فنضرب بها عرض الحائط أمامنا لعلمنا بأغراض أصحابها. ولكن بعض الجرائد كانت تذكرها على سبيل الاستغراب.

ولما ذهب الاستبداد وأخرج أهله من ديارهم هاربين أو مطرودين أصبح همهم الانتقام من أهل الدستور، فأخذوا يختلقون الإشاعات للتفريق بين العرب والترك لعلمهم أنهم إذا استطاعوا ذلك فقد عرقلوا مساعي الدولة وبينوا للملأ أن حكومتهم كانت أفضل من هذه. أو أنهم أقدر على العمل من هؤلاء الشبان

المتهورين. وكان في جملة مساعيهم التحدث بالخلافة العربية فأشاعوا عنها الإشاعات الكاذبة، وأغرب تلك الإشاعات ما تداولته الجرائد بالأمس من أن في نية ابن صباح صاحب الكويت وابن فيصل أمير الوهابيين وغيرهم من أمراء العرب أن يزوروا مكة والمدينة في هذا الحج ويقابلوا هناك سمو الخديو ويتآمرون على نزع الخلافة من الأتراك وإرجاعها إلى العرب.

وهي إشاعة كذبها ظاهر لأول وهلة، لأن أولئك الأمراء إذا فرضنا اتحادهم لمبايعة خليفة عربي إنما تكون حجتهم إنكار الخلافة على غير العرب اعتمادًا على الحديث المشهور «الإمامة في قريش»، فلمن يعترفون بالقرشية ليبايعوه؟ وهل يتنازلون لأحدهم بهذا الشرف العظيم ويخضعون له وهم مشهورون بالانقسام والتنافس؟ وإذا قيل إنهم يبايعون سمو الخديو لأنه أوسع ملكًا وأرفع منزلة فهو غير عربي، وإذا فرضنا أنه اكتسب العروبة بالتوليد فما هو قرشي، ناهيك بما يكذب هذه الإشاعة من الاعتبارات السياسية الأخرى، فضلًا عن أن حكمة سمو الأمير تقتضي رفضها بتاتًا. لا نزعم استحالة من يقول بالخلافة العربية من العرب فإن الناس لا يخلون من ضعاف الرأي ولكننا على يقين أنهم إذا قالوا بها فلا يلقون ملبيًا.

بهذه الإشاعات وأمثالها يسعى أهل الدسائس في التفريق وإيغار الصدور بين الترك والعرب فأصبح كل من الفريقين يسيء الظن بصاحبه، فإذا نقلت الحكومة بعض الضباط العرب مثلًا من الشام أو العراق إلى الآستانة قالوا إنها فعلت ذلك خوفًا من العرب، وإذا أرسلت وفدًا من التلامذة للدرس في أوربا وكان أكثرهم من الأتراك قالوا إنها تفضل الأتراك على العرب، وعند التحري لا تجد لها ذنبًا. والذي علمناه بالاختبار أن الأتراك الأحرار يعلمون علم اليقين أن الدولة لا تقوم إلا بتوحيد عناصرها، وهذا ما نادوا به في سرهم وجهرهم ولا يزالون يفعلون ذلك. وإذا تباطأوا في إسناد الوظائف إلى بعض العرب فليس لأنهم عرب ولكن لأسباب أخرى يراد من ورائها المصلحة العامة. وإلا فالأتراك أصحاب هذه الدولة يعدون العرب إخوانهم ويعولون عليهم في تأييد دولتهم، ولم نجد في أعمالهم عند التحقيق ما يخالف ذلك بل نراهم يهتمون بالعرب ومصالحهم ويعدونهم أهم العناصر العثمانية. ولما اجتمعنا بفخامة الصدر الأعظم في الصيف الماضي كان

معظم حديثه معنا عن العثمانيين بمصر والسوريين في أمريكا، وأظهر لنا رغبته في رجوع السوريين من ديار هجرتهم إلى بلادهم وأثنى على نشاطهم وذكائهم.

فسوء ظننا في الأتراك في غير محله، فعلى نوابنا العقلاء بيان الحقيقة حتى لا يقف هذا وأمثاله في سبيل التآلف للعمل معًا في مصلحة الدستور. وينتظر من رجال الدستور الأحرار أن يفتحوا صدورهم للعرب ويراعوا جانبهم فإنهم أقوى ساعد لهم في عملهم المجيد، فالتباعد بين العرب والترك من أعظم عقبات الدستور.

كيف نحفظ الدستور

لنا في حكمة رجال الحل والعقد ودهائهم ما يغني عن الإرشاد أو النصيحة في الوسائل المؤدية إلى حفظ الدستور، ولكننا نقول كلمة على سبيل الذكرى. تقسم تلك الوسائل إلى إجراءات وقتية مستعجلة يجب المبادرة إليها حالًا وإلى قواعد ثابتة ينبغي الجري عليها دائمًا:

الوسائل المستعجلة

أول هذه الوسائل أن يسعى النواب في إزالة سوء التفاهم بين العناصر والمذاهب، أي أن يتفاهموا فيما بينهم ويتفقوا بالحسنى والبرهان، وعلى اتفاقهم يتوقف اتفاق الذين أنابوهم وهم رعايا الدولة العثمانية كافة على اختلاف عناصرهم ومذاهبهم. فعلى مجلس المبعوثان واجب مقدس هو أهم واجباتهم لأنه أساسيٌّ في تأييد الدستور للأسباب التي قدمناها. فإذا فعلوا، ذلك وهم فاعلون إن شاء الله، يبقى على الحكومة تتمة العمل.

وأهم الوسائل المستعجلة على ما نرى هي:

أولًا - الحكم العرفي

لما أعلن الدستور في 24 يوليو [تموز] في السنة الماضية أعلنت معه الحرية الشخصية وأطلقت حرية الصحافة والخطابة والكتابة. وصفح أصحابه عما مضى وأضربوا عما قاسوه في جهادهم من المحن والشدائد كالقتل والنفي، وتشبهوا

بالفلاسفة فعذروا ضعف الطبيعة البشرية فلم ينتقموا ولا فتكوا ولا أرادوا بأحد سوءًا، ولكن ناموس الاجتماع غلب على ما أرادوه فتمكن أهل الاستبداد من الوثوب بأهل الدستور ثم رجعوا خاسرين. فعلم الدستوريون أنهم أرادوا عملًا يخالف قواعد الاجتماع وأن الدولة لا بدَّ لها في أول الانقلاب من الشدة في تطهير الأمة من زعماء العهد الماضي، فأعلنوا الحكم العرفي وأخذوا في محاكمة المتهمين وقيدوا المطبوعات بقانون يوقف الكُتَّاب عند حدهم.

وقد رأينا بعض أرباب الأقلام ينتقدون الحكم العرفي أو يستطيلون بقاءه، وفيهم من يبني انتقاده على القواعد الفلسفية النظرية كقولهم «الحرية والسيف لا يتفقان، أو الدستور والاستبداد لا يجتمعان»، أي كيف تكون الحكومة دستورية ويكون حكمها عرفيًّا - وهو اعتراض وجيه في نظر الفلاسفة وعلماء الكلام. وأما في نظر أهل السياسة وعلماء الاجتماع فهو سفسطة أو مغالطة - لأن السيف لا بد منه لحفظ الدستور وتقييد الأقلام ضروري في أول الأمر. وفي دولة مثل دولتنا، تولى عامتها الجهل وتضاربت فيها الأغراض لاختلاف العناصر والمذاهب، فلا يوقف الناس عند حدهم غير الخوف من السيف - وشأننا في دولتنا ودستورنا شأن محموم استشار طبيبًا فنظر إلى ظاهر المرض وعمل بالتقاليد الطبية فوصف الكينا لأنها تقاوم الحمى فلم تفده لأن الحمى في هذا المريض عرض ولا بد من معالجة السبب الأصلي، فاستشار طبيبًا آخر فحصَ المريض فوجد سبب الحمى خراجًا في الأحشاء فحكم بشقه فذهبت الحمى وشفي المريض.

ولو تأتّى لك أن تطلع على ما يجول في خواطر أصحاب الأغراض من دعاة التفريق الذين ذهب الدستور بنفوذهم فسعوا في الناس فسادًا حتى أوغروا صدور العرب على الأتراك وهاجوا [أهاجوا] غضب الأتراك على العرب وغيرهم - لو اطلعت على ما يخطر في أذهانهم لتحققت أن الحكم العرفي لا يستغنى عنه في حفظ هذا الدستور لأن أسباب الفساد كالدمل يجب استئصالها بالسلاح.

كيف ترفع السيف وتطلق الحرية وبين العثمانيين من يجاهر على صفحات الجرائد أنه لا يعرف غير عبد الحميد خليفة وأنت تعلم أن بيعة السلطان محمد الخامس قانونية شرعية؟ كيف تطلق حرية القول لهؤلاء وقد رأينا نتيجة ذلك

الإطلاق في أول الدستور إذ لم تمض بضعة أشهر حتى وثب الجهال بأهله؟ كيف يبطل الحكم العرفي من بلاد لا يزال فيها من يسمي أحرار الأتراك خوارج وأن عبد الحميد كان باذلًا جهده في ترقية شئون الدولة وهم شوشوا عمله بتمردهم وخروجهم؟ نحن نعتقد يقينًا أن الدستور لم يبق إلى اليوم إلا بالحكم العرفي ولولاه لتمزقت المملكة العثمانية إربًا وتفرقت أيدي سبأ. إن الأمة الجاهلة إذا بليت بأهل الدسائس لا يحفظ دستورها بغير الإرهاب. فإذا كنا مع سطوة الحكومة بالحكم العُرْفي ورهبة جمعية الاتحاد والترقي فوقها لا نزال نرى في العثمانيين من يحاول هدم الدستور في ظل الدستور بالمغالطة والسفسطة وفيهم من يجسر على إنكار بيعة السلطان الدستوري، فكيف لو أُطلقت الحرية وألقي الحبل على الغارب؟

فالحكم العرفي لا بد منه في حفظ الدستور العثماني حتى يرسخ وتتمكن قواعده ويذهب بقايا أهل الفساد وتتألف القلوب. وفي اعتقادنا أن الدستور العثماني ينبغي أن يختلف عن دساتير الدول الأخرى ما اختلفت أحوالنا عن أحوالهم - ينبغي أن يكيف بحيث يتغلب على تفرق العناصر والمذاهب والمشارب بأن يمازجه شيء من الرهبة أو نحوها حسب الأحوال - أما الدستور الحر المطلق كما نراهُ في الدول المرتقية فلا نستحقهُ إلا بعد زوال الأسباب التي قدمناها.

ثانيًا - مراقبة حركات الارتجاعيين

من أهم شروط الانقلاب السياسي أن تتطهر الدولة من نصراء العهد السابق بالقتل أو النفي أو الحجر أو بوسائل أخرى تتكفل بغلِّ أيديهم عن الأذى. لأن تلك البقية المغلوبة على أمرها يندر أن تخلص النية في الطاعة فتتربص للوثوب أو تسعى في إلقاء الفتن. وقد جرى أهل الدستور العثماني بعد 13 أبريل الماضي على هذه القاعدة بواسطة الحكم العرفي وجعلت معوّلها على النفي. وكان النفي في الزمن القديم كالقتل لضعف المواصلات وقلة وسائل المخابرة. أما الآن فالنفي لا يمنع أصحابه من مخابرة أحزابهم ونشر مبادئهم ودس الدسائس بالمخابرات البريدية أو على صفحات الجرائد وإنشاء الجمعيات السرية للوثوب عند الحاجة. وقد أصبح الاجتماع السري داءً من أدواء الشرق، لا سيما بعد أن

نجحت جمعية الاتحاد والترقي في عملها، فكثرت الجمعيات السرية ولا مراقب عليها بحجة الحرية الشخصية. ولكننا نخاف أن يتخذها بعضهم وسيلة فيبثون دسائسهم في العساكر وهم سيف الدولة لكنهم من العامة يغويهم التحريض باسم الدين أو الجنس كما حصل في حادثة 13 أبريل، فعلى الحكومة العاقلة مراقبة حركات أولئك الارتجاعيين. وقد يعترض بعض أصحاب الأوهام الفلسفية كما اعترضوا على الحكم العرفي فيعدون هذه المراقبة تجسسًا فيقولون «التجسس من بقايا زمن عبد الحميد فكيف يتفق مع الحرية والدستور»؟ والجواب أننا إنما نتجسس على الذين نشأوا في الجاسوسية، خوفًا من دسائهم. وإذا فعل أهل الدستور العثماني ذلك فما هم أول من فعله وهو من القواعد المتبعة في أوائل الانقلاب. فالفرنساويون الأحرار، مع إمعانهم بالفتك والقتل على التهمة في أثناء انقلابهم، ألفوا جمعية سموها «لجنة النجاة أو الأمان» لمراقبة بقايا العهد الماضي، لكنهم تطرفوا في الاتهام وأساؤوا الاستعمال وركبوا في عملهم شططًا لا يجوز للعثمانيين ركوبه. وإنما نريد أن لا يغلب على حكومتنا حسن الظن بالقوم فتتركهم ريثما يدبرون ما يدبرونه، وقد يكون حسن ظنها في محله لكن الحذر واجب قبل فوات الوقت وضياع الفرصة. والضرر إذا وقع هذه المرة كان فيه القضاء على الدولة وأهلها، لا يستفيد منه الارتجاعيون ولا الأحرار.

الوسائل الدائمة

أما الوسائل الدائمة لحفظ الدستور فهي كثيرة يعرفها أرباب الدستور في كل أمة، وأحرارنا أعلم الناس بذلك، لكننا نذكر بعض الوسائل التي يقتضيها حال الأمة العثمانية مما بيناه في ما تقدم من حيث اختلاف العناصر والمذاهب وهو الفرق الأكبر بيننا وبين سائر الأمم، فالوسائل الفعالة لملافاة ذلك:

أولًا - توحيد اللغة الرسمية

لا يخفى أن اللغة عنوان الأمة فإذا قلنا الأمة الفرنساوية فإننا نتصور أمة تتكلم لغة واحدة هي اللغة الفرنساوية، إذا قلنا الأمة الإنكليزية نعني أمة تجمعها اللغة الإنكليزية، فاللغة أول جوامع الأمة، فإذا قلنا الأمة العثمانية وجب أن يكون المراد

الأمة التي تتكلم اللغة العثمانية. ولو حتمت الدولة العثمانية في إبان سطوتها أن تعمم لغتها بين رعاياها لكنا اليوم أتراكًا وذهب الباعث على التفريق الجنسي. لأن العناصر التي تتألف منها الأمة العثمانية إنما نسبت إلى هذا العنصر أو ذاك باعتبار لغتها. فالعرب سموا عربًا لأن العربية لسانهم وقس عليهم سائر العناصر. على أن العرب مثلًا ليسوا جميعًا من نسل العرب الأصليين وفيهم المولودون من أصول سريانية وتركية ورومية وقبطية وغيرها، ولكنهم تكلموا اللغة العربية، فلو عمم الأتراك لسانهم في إبان دولتهم كما فعل العرب بلسانهم لكنا في غنى عن هذا التعب في جمع كلمة العناصر، ولكنهم لم يفعلوا لأنهم لم يكونوا يهتمون لرعاياهم بل كانوا يترفعون عنهم ويملكونهم بالقوة ويعدون من لا يعرف التركية لا يخاف الله. ولا يبالون بأمر الجامعة العثمانية ولا التسوية بين الرعايا، بل كانوا يجعلون اللغة التركية فاصلًا بين الحاكم والمحكوم أو هي شعار السيادة. فلما أعلن الدستور كان من مقتضيات القانون الأساسي توحيد العناصر العثمانية ليكون العثمانيون أمة واحدة تشارك الحكومة في أعمالها واللغة أكبر وسائل التوحيد. فقررت الحكومة جعل اللغة التركية رسمية لا تقبل المخاطبة إلا بها لأن اللغة تجمع الطوائف والعناصر وتحسن التفاهم بينهم فيزول سوء الظن.

فصادف هذا الإقرار استحسان الشعوب العثمانية لأن أكثر هذه الشعوب تتكلم اللغة التركية فضلًا عن لغتها إلا العرب فإن عارفي اللسان التركي بينهم قليلون، فشق هذا الإقرار على بعضهم لأنهم توهموا فيه ضياع اللغة العربية قياسًا على ضياع اللغات التي كانت في الشام ومصر والعراق قبل الإسلام، وهي القبطية والسريانية والعبرانية والرومية، وذهبت جنسيات أهلها فصاروا عربًا يتكلمون العربية.

وهو اعتراض جدير بالاعتبار، ويحق للعرب أن يضنوا بلغتهم دون سائر الأمم لأنها لغة المسلمين في أربعة أقطار المسكونة وما من موحد إلا وهو يعرف اللغة العربية. ناهيك بما فيها من العلوم والآداب والفنون فإنها بحر واسع، وخصوصًا في العلوم الإسلامية كالفقه والحديث والتفسير وغيرها مما لا يستغني عنه مسلم. هذه مكاتب الآستانة بلغ عدد ما فيها من الكتب نيفًا وسبعين ألف مجلد

وجدنا نحو ثمانين في المئة منها كتبًا عربية. ولذلك فالدول الإسلامية التي ظهرت في أثناء التمدن الإسلامي كانت تجعل اللغة العربية لغتها الرسمية. هكذا فعل السلاجقة الأتراك والأيوبيون الأكراد والسلاطين المماليك الأتراك والشراكسة، فإنهم كانوا يصدرون أوامرهم ويتخاطبون ويحاكمون باللغة العربية، وكانت أيضًا لغة العلم في المدارس ولغة الصلاة في المساجد.

ولذلك اقترح بعضهم أن يقتدي العثمانيون بالدول التركية التي تقدمتهم فيجعلون اللسان العربي لسان الدولة الرسمي، يا حبذا ذلك، ولكن إذا جاز لنا هذا الاقتراح فهو يجوز لسوانا من أهل اللغات الأخرى كالأرمن والروم والألبان والبلغار وغيرهم، ولا يحتج بأن اللغة العربية لغة الدين الإسلامي فإن القانون الأساسي لا يميز دينًا عن سواه.

بقي النظر في هل جعل اللغة التركية رسمية يضيع اللغات الأخرى من المملكة العثمانية؟ والجواب على ذلك أن شيوعها بتوالي الأجيال قد يضيع كل اللغات المتداولة في هذه المملكة، إلا العربية لأنها لغة الدين والعلم الإسلامي فهي باقية ما بقي الإسلام. حتى لغات المسلمين (غير العربية) في الممالك الأخرى قد تضيع بمقتضيات السياسة وتبقى اللغة العربية وحدها. فاللغة الأوردية (الهندستانية) مثلًا وهي لغة مسلمي الهند قد يخطر لإنكلترا إماتتها بجعل اللغة الإنكليزية لغة العلم والسياسة هناك فتضيع اللغة الأوردية بتوالي الأدهار وتبقى اللغة العربية عندهم كما هي الآن، وقس على ذلك سائر الأمم.

فاللغة العربية لا يخشى عليها الموت من تعميم اللغة التركية، وخصوصًا لأن التركية نفسها أكثر ألفاظها عربية، ولكن بقاء اللغة العربية «غير مائتة» لا يرضي أبناءها فهم يريدون بقاءها «حية» وحياتها الآن قائمة بكونها لغة التكلم ولغة العلم ولغة الدين. أما السياسة، أي المخاطبات الرسمية، فالمقرر في نظام الحكومة العثمانية قبل الآن أن تكون في اللغة التركية. فإذا اقتصر قرارها على ذلك، أي إذا انحصر تعميم اللغة التركية في المخاطبات الرسمية فاللغة العربية تبقى حية بالعلم والدين والتكلم، وتحصل الفائدة المطلوبة من تعميم اللسان التركي. وأما إذا تجاوزت إلى ما وراء ذلك فالمسألة فيها نظر.

نحن نوافق الحكومة على تعميم اللغة التركية وأن يكون تعليمها إجباريًّا في المدارس بحيث لا يعطى التلامذة شهادة العلم ما لم يحسنوا هذه اللغة جيدًا كما يحسنون لغتهم وكما يتعلمون اللغات الأجنبية اليوم. فإذا اقتصرت على ذلك نالت مرادها ولم تصب العرب بلسانهم. لكنها إذا قررت أن تكون اللغة التركية لغة العلم في المدارس، أي أن يتلقى التلامذة العلوم بها، كان ذلك ضربة قوية على اللسان العربي. وتكون عاقبته مثل عاقبة سائر اللغات الدينية القديمة التي لم تبق إلا في الكنائس أو على ألسنة بعض العامة. وهناك خطوة أخرى تقضي على اللغة قضاءً مبرمًا، نعني جعلها لغة القضاء مع إجبار العامة على التكلم بها إذا دُعوا إلى المحاكمة أو تأدية الشهادة، فقل عند ذلك على العرب والعربية السلام.

فالمرجو من أحرارنا الذين لا نشك في حسن قصدهم أن يلتفتوا إلى هذه المسألة بعين الإنصاف، فنحن نرى تعميم اللغة التركية واجبًا لتوحيد الأمة العثمانية، ولكن يكفي من القلادة ما يحيط بالعنق، فإذا جعلوا تعليم اللغة التركية وآدابها إجباريًّا في المدارس بحيث لا ينال الشهادة إلا من أتقنها تعلمًا وإنشاءً وتركوا لكل أمة أن تتلقى العلوم والآداب في لغتها حسب استحسانها كان عملهم هذا أقرب إلى ما يرجى منهم وأدعى إلى حفظ كرامة الآخرين، ولم يَفُتْهمُ ما أرادوه من تعميم لسانهم. وإذا فعلوا ذلك فقد فعله النمساويون من قبلهم والشعب النمساوي مؤلّف من تسع أمم لكل منها لسان خاص ولهم نواب في البرلمان، فراعت الدولة حقوق هذه الأمم وأجازت المداولة بثمانية من تلك الألسنة في برلمانها لمن لا يعرف النمساوية وأغفلت التاسع لأن أصحابه جهلاء. وإذا كان غرضهم توحيد اللغة والجنس معًا بحيث يصير العثمانيون عنصرًا واحدًا فليس من الحكمة الشروع بذلك الآن.

ثانيًا - تعميم التعليم

لا نريد تعداد فوائد العلم في ترقية شئون الأمة فإن ذلك من قبيل تحصيل الحاصل، وقد أخذت الحكومة الدستورية في تنشيط العلم، ولكننا ننظر فيه من حيث حال المملكة العثمانية على الخصوص وما تمتاز به عن سواها من بواعث التفريق. فالمطلوب جمع هذه العناصر وتوحيدها، وأول ما يكون ذلك

في المدارس، فإذا شب التركي والعربي والمسلم والمسيحي في مدرسة واحدة وصفّ واحد يقرأون كتابًا واحدًا، ويتلقنون أدبًا واحدًا يأتلفون ويتحدون. ويجب ترقية التعليم وتعميمه، أما ترقيته فلكي يفهم الشبان حقيقة الوجود وتتسع صدورهم ويذهب التعصب الديني من قلوبهم فيبثون ذلك بين أهلهم وذويهم. ولا يذهب التعصب إلا بتوسيع المعرفة وترقية الأفكار وكسر قيود التقاليد، بدليل أنك تجد أقل العثمانيين تباغضًا أكثرهم ارتقاء في أفكارهم وتصوراتهم.

وأما تعميم التعليم فواجب لاستنارة الشعب، فيتعود العامة قراءة الصحف والكتب ويطلعون على شيء من أحوال الأمم فيذهب كره الأديان الأخرى أو الأمم الأخرى من قلوبهم، وترقّ عواطفهم ويستنكرون ذبح جيرانهم أو رفقائهم إذا كانوا من دين آخر أو جنس آخر كما حصل في أماكن مختلفة من المملكة العثمانية، وأقربها عهدًا منا حوادث أطنة [أضنة].

ثالثًا - تجنيد غير المسلمين

مهما قيل في صعوبة التجنيد على المسيحيين اليوم فهو في محله، لكنهم بوغتوا بالدستور وشروطه وهم لم يألفوا الجندية، وهي في بلادنا ثقيلة حتى على المسلمين الذين ألفوها، وسبب ثقلها على الناس ما اشتهر من فساد الحكم السابق وضعف حال الحكومة عن رفع شأن الجندي وإكفائه بما يحتاج إليه من الكساء والطعام ونحو ذلك. وهذا لا بد من تغييره في ظل الدستور، ولا يمضي كثير حتى يهون التجنيد على المسيحيين، وللحكومة الرأي في الانتظار ريثما يألف المسيحيون ذلك أو تباشره الآن. وإنما المراد أن تجنيد غير المسلمين في الجندية العثمانية لا مندوحة عنه لتوحيد الأمة العثمانية، إذ يجتمع المسلم والمسيحي واليهودي وغيرهم في فرقة واحدة يتعاشرون ويتمازجون ويتعاونون على السراء والضراء، فتتقارب قلوبهم ويشعر كل منهم أن الدولة دولته والحكومة حكومته، له سيف في جندها كما له صوت في مجلس نوابها، فيشق عليه أن يلحقها أذى فيحارب عنها ويناضل عن حقوقها.

أما ما يهوّن التجنيد على المسيحيين فهو اختلاطهم في المدارس مع

المسلمين، وخصوصًا في المدارس الحربية فإنهم يتآلفون وتتحد قلوبهم، وعِشْرة المدرسة من أقوى روابط الصداقة. فعلى زعماء النصرانية تهوين التجنيد على الشبان، وعلى الحكومة تسهيل ذلك بما تبديه من حسن المعاملة.

الخلاصة: وخلاصة القول إن في طريق الدستور العثماني عقبات وعرة إذا تمكن الأحرار من التغلب عليها وتأييد الحكومة الدستورية عَدَدْنا ذلك من قبيل المعجزات لأن كل عقبة منها تكفي وحدها للوقوف في سبيل العمل، فكيف باجتماعها جميعًا؟ وأكبر تلك العقبات التنافر بين العناصر فإذا اتحدت تغلبت على كل عقبة.

فالقوة الغالبة الآن في أيدي الأتراك وهم يقولون لنا أنهم إخواننا، وهذا القول الأساسي يؤكد لنا المساواة بيننا وبينهم. وإنما نخطئ بتعجل تلك المساواة في كل شيء. نطلب أن يولونا الوزارة والولاية والقضاء وغيرها، ولو فرضنا استعدادنا الكافي لهذه المناصب فلم يئن لنا أن نستبطئ حصولنا عليها. ورجال الدستور في شاغل عن تفريق المناصب بتأييد الحكومة، ولو أردنا إكراههم على كل شيء نريده لم نجد سبيلًا إلى ذلك لأنهم القابضون على أزمة الأمور، فما علينا إلا التخلية بينهم وبين العمل. ومتى استقرت الدولة وتوطدت دعائم الدستور فالقانون الأساسي ينيل كل عنصر حقه، فإذا ظهر لنا إجحاف حق لنا المطالبة كما يحق لكل فرد من أفراد العثمانيين. وأما سوء الظن اليوم وتغيير القلوب فإنه يبعث على إبطاء النجاح إن لم يدع إلى انحلال الدولة والعياذ بالله.

***

الحكم العرفي والعرب
في الدولة العثمانية والدستورية

كتب إلينا بعض الأصدقاء يعاتبنا لما جاء في مقالتنا «الحالة السياسية في الآستانة» في الهلال الثالث من هذه السنة من استحسان بقاء الحكم العرفي طويلًا، إلى أن قال: «كيف يتحد الدستور مع الحكم العرفي؟ أما استدلالكم بما جرى في فرنسا أو غيرها فلا يطابق حالنا لأن الارتجاعيين عندهم ظلوا يناوئون الأحرار وما

برحت الحرب قائمة بين الطائفتين. أما العثمانيون فإنهم مستقرون هادئون ليس فيهم من يجرد سيفًا أو يدعو إلى ثورة، ولا سيما العرب فإنهم أقرب إلى الطاعة من سائر العناصر».

نعم إن العرب من أقرب الأمم إلى الإذعان إذا تُركوا لأنفسهم لأن مصلحتهم ومصلحة الدولة يقضيان عليهم بالسكينة وهذا هو رأي العقلاء منهم. ولكن، ما قولكم بضعاف الرأي الذين لم يبقَ فيهم من مفاخر العرب إلا بلاغة القول نظمًا أو نثرًا، وهم طائفة من الكتاب والشعراء الذين يرمون الكلام على عواهنه. إذا استلطفوا نكتة حماسية أو فخرية نظموها وبعثوا بها إلى الصحف أو نشروها على حدة. واللوم في ذلك على الناشرين لأنهم يذيعون تلك الأقوال فيحملون رجال الأمر والنهي في الدولة على سوء الظن في العرب. ولو نبذتها تلك الصحف لظلت في صدور أصحابها، مثل كثير من الأفكار السقيمة التي تخطر ببال بعض المتهوسين الذين لا ينظرون إلى الحالة الحاضرة إلا من حيث مصلحتهم الشخصية، فإذا لم ينالوا مرادهم غضبوا ونقموا وطعنوا على الدستور وأهله - فهؤلاء لا يرهبهم غير الحكم العرفي فيقتصرون عند ذلك على التهامس فيما بينهم - وتلك إحدى حسنات هذا الحكم.

وقد أحسنت الحكومة المصرية بمراعاة جانب الحكومة العثمانية في حرمان صاحب «سربستي» من نشر جريدته برخصة منها. لكنه نشرها بدون رخصة باسم أحد الأجانب، ولا نعلم إذا كانت دولة ذلك الأجنبي تساعده على نشرها مع ما نعلمه من مجاملة الدول المتمدنة لأهل الدستور العثماني. على أن هذه الجريدة تركية اللغة أو فرنساويتها فلا تأثير لها على العرب. ولكننا نعتب على الصحف العربية الكبرى التي تنشر أقوال أولئك المتطرفين، كقصيدة نشرها «المؤيد» من نظم معروف الرصافي يهدد بها الأتراك بقيام العرب إذا هم لم يساووهم في كل الأمور كبيرها وصغيرها. وقد ضمنها ما شاءت بلاغة الشعر من الفخر والحماسة كأنه النابغة في سوق عكاظ أو سديف في مجلس السفاح يحرضه على قتل بني أمية. ونحن على يقين أن مئات من أمثال هذه القصيدة لا تحرك في العرب ساكنًا يُخشى منه. ولكن نشرها في جريدة عربية كبرى يبعث على زيادة التباعد بين العرب

والترك وإطالة زمن الحكم الاستبدادي. أما الحكومة الدستورية فهي أرسخ قدمًا من أن تنالها أقوال الشعراء بسوء، وإنما هي تضر الأمة التي تقال عنها - تضرُّ العرب.

مضى الزمن الذي كانت قصائده تقيم وتقعد وانقضت الدولة التي كانت تقدم الشعراء وتخافهم وتحسب لأقوالهم حسابًا، بل هي التي كانت تجعل لأقوال الشعراء شأنًا لأنهم كانوا يعبرون عن إرادة الخليفة، وقد يكون هو الذي يحرض الشاعر على إنشاده. أما من كان يقول غير ما يعنيه ذلك الخليفة فلم يكن مصيره إلا إلى السجن أو القتل - فشعراؤنا أصلحهم الله يتشبهون بالأخطل وجرير في نظم الحماسة والفكر ولكن ليس لهم عبد الملك ولا الوليد يسمع ويعمل. وإنما هم يجرون البلاء على الأمة التي ينتسبون إليها، وقد فاتهم أننا في عصر غير ذاك - نحن في عصر الدستور لا تقوم لنا قائمة بغير الاتحاد والإغضاء عن النعرة الجنسية والعصبية اللغوية التي لا يفيدنا تعلقنا بها بل هو يضرنا، فيجب علينا الإغضاء عنها مؤقتًا حتى يستقيم أمر هذه الدولة وترسخ قدمها ثم لا يعدم أحد حقه.

اتقوا الله يا قوم في دولة بعثت بعد الممات ونهضت تتوكأ وتتساند ويكاد العجز يقعدها. أسعفوها. خذوا بيدها حتى تسترد قواها ثم ينال كل منكم حقه. وإلا فإن سقوطها هذه المرة لا يعقبه قيام أبد الدهر - لا يظن الارتجاعيون أو من يقول قولهم أنهم إذا استطاعوا قلب الدستور تعود الدولة لهم ولسلطانهم. ولا يظن العرب أو غيرهم من العناصر ممن ينازع الأتراك على السيادة أنهم إذا فازوا تصير الدولة إليهم فيستأثرون بخيراتها. إن الحكومة إذا غُلبت على أمرها كان في غلبها تمزيق الدولة كل ممزق، لا ينالها هؤلاء ولا هؤلاء بل هي تذهب طعمة للأجانب. فعلى الكتاب الذين يهمهم بقاؤها أن يضعوا هذه النتيجة نصب أعينهم. فكل من يخطر له مناهضة رجال الدستور إنما هو يسعى في دمار الدولة ومحوها من الوجود - وهو عاجز عن ذلك بإذن الله، وإليك البيان:

ليس الذين نسمع أصواتهم في انتقاد الحالة الحاضرة من العرب إلا بعض الكتاب أو الشعراء وهؤلاء لا ينوبون عن الأمة ولا عن بعضها. وبعضهم لا ينوبون حتى عن أنفسهم، أي إنهم لا يعبرون عن إحساسهم بل يقولون ما يقولونه جرًّا

لمغنم أو انتقامًا من بعض رجال النفوذ لحزازات شخصية. ولذلك فنحن لا نخاف أن تؤدي أقوالهم إلى ثورة لأن العرب الذين يعنونهم بأقوالهم والذين يهددون الدولة بقيامهم كقول الرصافي في قصيدته المشار إليها يخاطب الأتراك رجال الدستور:

تعالوا إلى أمر نساويه بيننا	وبينكم في الجلّ منه وفي الدقّ
فإن يفعلوا هذا فيا مرحبًا بهم	وإلا فيا سحق المعاند من سحق
سنطلب هذا الحق بالسيف والقنا	وشيب وشبان على ضمر بلق
بكل ابن حرب كلما شد هزها	بعزم من السيف المهند مشتق
تراه إذا ما عبس الموت وجهه	بوجه يلاقي الموت مبتسم طلق
من العرب مطبوع الطباع على العلى	بديع معاني الحسن في الخُلق والخَلق

إن أولئك العرب أعقل من أن يلقوا بأيديهم إلى التهكلة، ثم هم لا علم لهم بما يقول هذا الشاعر أو غيره ولا يعرفون من هم. إن شعراءنا يقلّدون شعراء العرب بالحماسة والفخر ولكن ليس لهم ما لهؤلاء من النفوذ. كان الشاعر في الدولة العربية إذا قال قصيدة إنما ينوب عن قبيلة أو دولة، ولا يقول متحمسًا أو مفتخرًا إلا وهو يعلم أن قبيلته وحلفاءها يعنون ما يقوله. ويغلب أن يحرضوه على قول يقوله في قبيلة أخرى يفتح به باب النزال. فالشاعر عندهم لسان حال القبيلة أو الدولة كالصحف الرسمية في أيامنا.

أما شعراؤنا فإنما يعبر كل منهم عن رأيه الخصوصي، وإذا تحمس أو افتخر برمم بالية وإذا استحث فهو يستحث أقوامًا لا يعرفونه ولا يقرأون أقواله وأكثرهم ينكرون عليه تهوره. فالصياح الذي نسمعه أحيانًا ضد أهل الدستور ما هو إلا صياح صحافة أو شعر لا علاقة له بالأمة، وليست هي مسؤولة عنه ولا مطالَبة بتبعته ولا ضررَ منه على الدستور، وإنما الضرر يقع على الأمة العربية التي ينتسبون إليها، إذ يزداد سوءُ الظن بها ويزيد التباعد بينها وبين العناصر الأخرى.

وقد يعترض بعضهم بأن الأحرار لا ينبغي لهم أن يصغوا لأقوال أولئك الأفراد ويأخذوا الأمة العربية بذنبهم. ونحن نقول ذلك أيضًا، ولعل الأحرار والعقلاء لا تخفى عليهم هذه الحقيقة ولكن قلوبهم تنفر وما هم مكلفون بالتكهن أو البحث عن كل ما يقرأونه أو يسمعونه، ولكن اللوم في ذلك على الصحف التي تنشر تلك الأقوال، وهي لا تستطيع نشرها في الآستانة وغيرها من الممالك العثمانية لأنها مقيدة بقانون المطبوعات. ولا هي تنشر في أوربا إلا بلغات أصحابها فلا تأثير لها في نفوس العرب ولا يُتلفت إليها. وإنما الضرر من نشرها في العربية، ولا يتأتى ذلك إلا في مصر، فأعداءُ الدستور لا يجدون وسيلة لنشر أقوالهم بين العرب إلا في الصحف المصرية. وقد كان الأحرار في العهد الماضي يبثون آراءهم فيها. ولمصر فضل كبير في بث روح الحرية بين العثمانيين للمطالبة بالدستور فلا يليق بها أن يكون بين أصحابها الآن من يعكس تلك الآية.

فإذا كنا ونحن تحت الحكم العرفي والسيف مسلول فوق الرقاب، وفينا من يجسر على نظم القصائد المهيجة وفي صحفنا من ينشرها احتماءً بالبعد عن العاصمة، فكيف إذا أطلقت الحرية ورفع السيف؟ إن الحكم العرفي لا يخلو من الاستبداد ولكن لا غنى عنه في المحافظة على الحرية والدستور ولولاه لم تبق الدولة العثمانية إلى اليوم، ولذلك قلنا بمدّ أجله حتى تتحد العناصر ويذهب الخوف من دسائس الذين أضرَّهم الدستور. وهؤلاء إذا كنا لا نقرأ أقوالهم الآن في الصحف ولا نسمعها على المنابر فلأنهم يخافون العقاب، ولكنهم لا يدخرون وسعًا في دس الدسائس وبث بذور الشقاق، ولذلك حرّضنا الحكومة على مراقبتهم واقتصاص آثارهم.

دع العرب والتفت إلى سواهم من الأمم العثمانية فإن بين كتابهم من هم أشدُّ وطأة على الدولة من كتاب العرب، ولكنهم مع ذلك لا يعبرون إلا عن أفكارهم الخصوصية أو أفكار الذين ينفقون على صحفهم ولا خوف منهم الآن والحكم العرفي يهدد حياتهم، ولولاه لم يعدموا من يأخذ مأخذهم من المرتزقين بالفساد والدسائس فيقومون لمحاربة الدستور باسم الحرية وتحت ظل الدفاع عن الدستور، كما فعلوا قبل حادثة 13 أبريل فيؤول الأمر إلى ثورة هائلة، وليس عهدنا بتلك الحادثة ببعيد. وقد سلمت فيها الجرة ولكنها لا تسلم كل مرة.

على أن الحكم العرفي لا يمنع الصحف ولا غيرها من انتقاد أعمال الحكومة وتقديم النصائح بالحسنى، كما ينتقد الأخ أخاه في مصلحة هما مشتركان فيها فيتباحثان ويتجادلان حتى يغلب الصواب على الخطأ كما يحصل في كل الأمم المتمدنة، ولكننا لا نرى في صحف أولئك المعارضين (وهي قليلة بحمد الله) إلا الطعن على جمعية الاتحاد والترقي والتهكم بأعضائها واتهامهم بكل رذيلة، ويكفي للباحث العاقل أن يقرأ عددًا من تلك الجرائد فيتبين له جليًّا أن الكاتب إنما يتحامل للانتقام ويرمي الكلام جزافًا لا يقدر العواقب. فأقواله لا يلتفت إليها وهي لا تلذ إلا للغاضبين على الدستور كما يلذ الحك في الجرب.

فالحكم العرفي لازم الآن لبقاء الدولة العثمانية ولا يزال لازمًا حتى ينقضي الجيل الذي تشرَّب سمَّ حكومة عبد الحميد وينشأ جيل جديد تثقف بالدستور وتعلم الاتحاد والاجتماع ونبذ التعصب الديني أو الجنسي. ولا يتم ذلك إلا بالتعليم والتربية لترقية نفوس العامة وتهذيب أخلاقهم والحكومة عاملة على ذلك جهد طاقتها. ولكن جمعية الاتحاد والترقي خافت أن يطول انتظاره ريثما يشب الجيل الجديد فأخذت تسعى من تلقاء نفسها في تهذيب الشبان بالمواضيع الاجتماعية والاقتصادية والأدبية، وأخذت تبث ذلك في الأمة بواسطة فروعها في الأطراف بإنشاء المدارس الليلية للتعليم مجانًا.

هذه جمعية الاتحاد والترقي التي يطلب أعداء الدستور كفَّ يدها عن العمل وهي تتفانى في خدمة مصلحة الدولة. إنها لم تكتف بأعمالها في الحكومة، حتى أخذت على عاتقها تهذيب الشبيبة، تتعجل بذلك ترقية الأمة حتى تدرك معنى الاجتماع واتحاد الكلمة فتزول المنافسة بين العناصر، وهي أكبر عقبة في سبيل الدستور. فعلى العقلاء من الأمة العربية أن يتركوا أصحاب هذا الدستور يعملون كما يشاؤون لا سيما وهم إلى الآن لم يرتكبوا خطأ يؤاخذون عليه ولا ظهر من أعمالهم إلا ما يدل على تفانيهم في نصرة الدستور. ولا ندعي العصمة لهم ولا هم يدعونها لأنفسهم، ولكننا نعتقد أن المهمة التي قاموا بها لا يتيسر لسواهم من رجال السياسة في أرقى ممالك العالم الإتيان بأحسن منها. فعلى المعارضين إذا كان لديهم نصيحة أو رأي أن يعرضوه بالحسنى ويباحثوا فيه مباحثة الأخ المخلص. وليدعوا النعرة الجنسية جانبًا حتى تستقر الأمور وترسخ قدم الدولة

في الدستور، وعند ذلك ينال كل عنصر حقه على مقتضى القانون الأساسي، وهو يساوي العثمانيين في الحقوق والواجبات لا فرق فيه بين العربي والتركي والرومي والأرمني.

والواجب الأول على كُتَّاب الأمة وشعرائها وخطبائها أن ينشروا هذه الروح في الناس ويحذروهم من أهل الدسائس حتى يحسنوا الظن في جمعية الاتحاد والترقي. ولا يضرها أن يسيئوا الظن بها بل هم يسيئون إلى أنفسهم للأسباب التي قدمناها. فعلى الصحف العربية واجب مقدس نحو الأمة والدولة، إذا غفلت عنه أو عملت بخلافه فإنها تُسيء إلى كليهما، وهي المطالبة شرعًا وعرفًا بالتوفيق بين العناصر المختلفة. ولا يجوز سكوتها وتسليمها للأقدار ولا أن تقول لا يعنيني، بل يجب عليها أن تجاهر بالحق وتستحث الأمة على الاتفاق والإذعان وهي فاعلة إن شاء الله.

الرحلة إلى أوروبا

1912

تمهيد

قضينا صيف هذا العام في أوربا بين فرنسا وإنكلترا وسويسرا وتنقلنا في أهم مدائنها فزرنا مرسيليا وليون وباريس ولندن وكمبردج ومنشستر وأوكسفورد وجنيف ولوزان وإفيان، ودرسنا أحوالها وتفقّدنا متاحفها ومكاتبها وآثارها. وتوخينا النظر على الخصوص في ما يهمُّ قراء العربية من أحوال تلك المدنية التي أخذنا في تقليدها منذ قرن كامل، ونحن نتخبط في اختيار ما يلائم أحوالنا منها. وسننشر في ما يلي خلاصة ما بلغ إليه الإمكان من ذلك الدرس[1].

ونقتصر من ذلك على ما يهم القارئ الشرقي، من حيث حاجته إلى تحدي مدنية أولئك القوم في نهضته هذه، ونبين ما يحسن أو يقبح من عوامل تلك المدنية بالنظر إلى طبائعنا وعاداتنا وأخلاقنا.

وسنغفل سياق الرحلة، فلا نذكر رحيلنا أو نزولنا وما لاقيناه أو كابدناه في أثناء ذلك على ما جرت به عادة أهل الرحلة، إذ ليس غرضنا أن يكون ما نكتبه دليلًا للراحلين في السفر والنزول ومعرفة الطرق والمسافات والأجور، وإنما نريد أن نمثل للقارئ ما طبع في ذهننا أثناء هذه الرحلة بعد إعمال الفكرة في أحوال تلك الأمم. ولذلك نقسم الكلام إلى ثلاثة أقسام باعتبار الممالك التي زرناها على ترتيب تلك الزيارة، فنبدأ بفرنسا فإنكلترا فسويسرا.

---

(1) صدرت هذه الرحلة في كتاب مستقل عن دار الهلال، القاهرة، 1923.

أولًا - فرنسا

1- نظام حكومتها

تقلب نظام الحكومة الفرنساوية على أوجه شتى واستقر في 4 سبتمبر [أيلول] سنة 1870 على الجمهورية. وتثبت ذلك في 16 يوليو [تموز] سنة 1875 بقانون دستوري تعدل بعض التعديل بعد ذلك. وهو يقضي أن ترجع قوة التشريع إلى مجلس الأمة ومجلس الشيوخ وقوة التنفيذ إلى رئيس الجمهورية والوزارة.

وهم ينتخبون رئيس الجمهورية كل سبع سنوات بأغلبية الأصوات ولانتخابه يجتمع المجلسان المذكوران في الجمعية العمومية. وعليه تنفيذ ما يقررانه أو يشرعانه. وهو يشكل الوزارة من المجلسين ويجوز أن يكون بعض الوزراء من غير أعضائهما. وهو يعين الموظفين الملكيين والعسكريين. ويعقد المعاهدات مع الدول الأخرى. لكنه لا يقدر أن يعقد معاهدة تتعلق بمساحة أرض فرنسا أو مستعمراتها الا بمصادقة القوة التشريعية. ولا يجوز له أن يعلن حربًا الا بموافقة المجلسين. وكل عمل من أعمال الوزارة يجب أن يمضيه رئيس الجمهورية مع أحد الوزراء. ويستطيع هذا الرئيس بالاتفاق مع مجلس الشيوخ أن يحل مجلس النواب.

والوزارات أو النظارات 13 نظارة هي: الداخلية والمالية والأشغال العمومية والحربية والبحرية والحقانية والمستعمرات والمعارف العمومية والخارجية والتجارة والزراعة والعمال والأديان.

وينتخب النواب لأربع سنوات بالتصويت العام. وكل فرنساوي من غير

الجند بلغ الحادية والعشرين من عمره له حق التصويت في الانتخاب بشرط أن يثبت إقامته ستة أشهر في البلد الذي يريد أن يصوت لنائبه. أما النائب فيجب أن يكون سنه 25 سنة على الأقل. وعدد النواب الآن 584 نائبًا وعدد المنتخبين بين عشرة ملايين وسبعة ملايين. ومجلس الشيوخ مؤلف من 300 عضو ينتخبون لتسع سنوات من أعيان الفرنساويين ولا يكون سن أحدهم أقل من 40 سنة. يتقاعد ثلثهم كل ثلاث سنين وينتخب غيرهم. وانتخاب الشيوخ منوط بلجنة مؤلفة من مندوبين عن مجالس البلدية في الولايات على نسبة عدد سكانها ومن النواب. فينتخبون 225 شيخًا ينوبون عن الولايات يضاف إليهم 75شيخًا ينتخبون لطول الحياة بإجماع المجلسين. ولا يجوز انتخاب أحد من أعضاء الأسرة الملكية (المخلوعة) في أحد المجلسين.

الراتب واحد للنواب والشيوخ فيستولي النائب أو الشيخ على 15000 فرنك في السنة (نحو 600 جنيه) وأما رئيس المجلس فيأخذ فوق ذلك 72000 فرنك (نحو 2840 جنيهًا) للنفقات. ويسافر أعضاء المجلسين في السكك الحديدية بنفقات زهيدة. وراتب رئيس الجمهورية 600000 فرنك أو نحو 24000 جنيه، ونحو هذا المبلغ للنفقات الرسمية.

وعندهم مجلس للشورى أنشأه نابوليون الأول ولا يزال باقيًا يرأسه ناظر الحقانية. وهو مؤلف من مستشارين قضائيين وعلماء في القضاء، للنظر في ما تعرضه عليهم الحكومة وأكثره يتعلق بالإدارة ونحوها.

2- عمرانها

فرنسا قدوة الممالك المتمدنة في روح المدنية الحديثة وأكثرهن احتكاكًا بالشرق الأدنى. وكنا إلى عهد غير بعيد لا نعرف سواها قدوة لنا في أحوالنا الاجتماعية والأدبية والسياسية والقضائية ولا نزال أكثر معرفة بها مما بسواها.

مساحة مملكة فرنسا 207054 ميلًا مربعًا وعدد سكانها 39376000 نفس. منهم نحو 30000000 نفس من أهل الفلاحة والباقون من سكان المدن

يتعاطون الصنائع والمهن والوظائف والمصالح. وفيها ستون مدينة سكان كل منها فوق 35000 نفس أكبرها باريس عدد سكانها 2846986 نفسًا، فمرسيليا 517497، فليون 472114 نفسًا ثم تأتي بوردو وليل وتولوز وغيرها إلى روان وسكانها 35516 نفسًا.

وفرنسا من أكبر الممالك ثروة، نعني أهل فرنسا فإنهم يعدون في مقدمة الأمم من حيث الثروة الخصوصية. واختلف الباحثون في مجموع تلك الثروات فوجد المسيو دي فوفيل الباحث الاجتماعي أن فرنسا تقدر قيمتها على هذه الصورة:

	جنيه
أرض زراعية	3000000000
أبنية	2000000000
نقود	200000000
ضمانات وتأمينات	2800000000
أدوات زراعة ومواش ونحوها	40000000
ممتلكات أخرى	680000000
	9080000000

وقدرها غيره بأكثر من ذلك فبلغ مجموعها في تقدير جويو 9520 مليون جنيه. وبلغ دخل فرنسا السنوي في تقدير ليروا بوليو 1000000000 جنيه، ثلاثة أخماسه من نتاج العمل الشخصي.

وفي كل حال فإن الفرنساويين مشهورون بالاقتصاد والاحتفاظ بالمال. والفقر المدقع عندهم أقل كثيرًا مما في سائر الممالك الكبرى.

وفرنسا كثيرة المعامل واسعة التجارة، ولها في الصناعة الدقيقة القدح المعلى ولبضائعها شهرة طائرة في الجمال وسلامة الذوق، وهي قدوة الأمم المتمدنة في الأزياء من الملابس وغيرها. وعاصمتها باريس مرجع أمم الأرض في كل ذلك مما هو مشهور لا يحتاج إلى بيان. وسنعود إليه عند الكلام على الأحوال الاجتماعية.

أما مالية الحكومة الفرنساوية فبلغ دخلها في السنة الماضية 170767054 جنيهًا منها 51 مليون جنيه دفعت عن الدين و35 مليونًا للحربية و16 مليونًا للبحرية.

3- حالتها الاقتصادية

فرنسا أرض زراعية خصبة تزيد مساحة ما يزرع منها على 130000000 قصبة (قياس مساحة). وأكثر حاصلاتها الحنطة والكرم والعلف والبطاطس. وللخمور غلة كبرى بلغت قيمتها سنة 1910نحو 38000000 جنيه. وفيها من الماشية والحيوانات الأهلية. كما يأتي:

	عدد
خيول	3133650
بغال	194000
حمير	363000
ماشية من البقر ونحوها	14234000
ماشية من الغنم	17450000
خنازير	7202000
ماعز	1424000

أما الصناعة فالحرير له سوق رائجة عندهم، وقد بلغ عدد المشتغلين في تربية دود القز سنة 1908 نحو 123800 عامل. ومقدار البزر الذي استولدوه 187000 أوقية وبلغ محصولها 8409299 كيلوغرامًا من الفيلجات.

وفي فرنسا كثير من المناجم المعدنية تناهز 600 منجم فيها 230000 عامل وفيهم النساء والأولاد. وبلغت غلة هذه المناجم نحو 26656000 جنيه أكثرها من الفحم والحديد.

وهي كثيرة المعامل على اختلاف أنواعها، أهمها معامل نسج القطن

والصوف والحرير ومصانع الأدوات الحديدية وأدوات البناء. وهاك أهم المعامل وعدد عمالها:

عدد العمال	
167200	معامل لنسج القطن
171000	معامل لنسج الصوف
123000	معامل لنسج الحرير
166000	معامل لصنع الخزف
570000	معامل للمصنوعات الحديدية
550000	عملة [عمّال] أدوات البناء
156000	معامل الدنتلا وتوابعها
938000	معامل الملبوسات على أنواعها
704000	معامل للمصنوعات الخشبية
334000	معامل للمصنوعات الجلدية

ومن أهم حاصلات فرنسا السكر فإن لهُ 251 معملًا وتبلغ غلته في العام نحو مليون طن. وكذلك الكحول فإن غلتها تزيد على ٤٥ مليون جالون، غير غلة المصائد ونحوها.

أما في التجارة فلفرنسا شأن كبير، وقد بلغت قيمة صادراتها لسنة 1910 نحو 220 مليون جنيه، ووارداتها 270 مليونًا.

4- حالتها العلمية

إن آداب اللغة الفرنساوية أشهر من أن تعرّف. ولا يفي بوصفها إلا المجلدات لكثرة من نبغ فيها من العلماء والأدباء والشعراء. ولكثرة ما فيها من الصحف والمجلات على اختلاف مواضيعها، وقد أشرنا إلى ذلك مرارًا في الهلال. وإنما نريد هنا حالها من حيث التعليم والمدارس.

إن للحكومة الفرنساوية عناية كبرى في التعليم، تنفق في سبيل ذلك الأموال الطائلة على يد نظارة المعارف. والمدارس عندها طبقات: مكاتب [كتاتيب] ومدارس ابتدائية وثانوية وعالية. فنكتفي بفذلكة في التعليم العالي الذي يلقى في الجامعات الكبرى وفي الكليات الخاصة ونحوها، وهو حرٌّ مطلق بناء على قرارات رسمية صدر آخرها سنة 1897. والجامعة عندهم تحتها كليات أو مدارس تختلف أسماؤها باختلاف مواضيعها. هاك أشهرها:

1- مدارس الحقوق: هي 13 مدرسة في باريس وأكس وبوردو وكاين وديجون وغرينوبل وليل وليون ومونبلييه ونانسي وبواتييه ورين وطولوز.

2- مدارس الطب: هي سبع مدارس في باريس ومونبلييه وبوردو وليل وليون وطولوز ونانسي.

3- كليات العلوم: هي 15 كلية في باريس وبزانسون وبوردو وكاين وكليرمون وديجون وغرينوبل وليل وليون ومرسيليا ومونبلييه ونانسي وبواتييه ورين وطولوز.

4- كليات الآداب: هي 15 أيضًا في المدن التي تقدم ذكرها، غير المدارس التجهيزية أو التي يراد بها التبحر في بعض العلوم الخاصة. أما عدد المتخرجين في هذه المدارس فهاك إجمالهم حسب المواضيع لسنة 1910.

عدد التلامذة	
16915	في الحقوق
8029	في الطب
6287	في العلوم
6363	في الآداب
3450	في الصيدلة وغيرها
41044	

وهذا العدد من طلاب العلوم العالية في الكليات الأميرية، منه 35800 طالب من الفرنساويين و5244 من الأجانب. بينهم جميعًا 3830 من النساء، ثلثاهن من الفرنساويين [الفرنسيات].

وهناك مدارس عالية غير أميرية: منها في باريس الكلية الكاثوليكية لتعليم الحقوق والآداب العالية. ومدرسة التعليم الحر العالي. والكلية الحرة لتعليم العلوم السياسية. وفي أنجرس [أنجيه] مدارس للاهوت والحقوق والعلوم والآداب والزراعة. ومثل ذلك في ليون وليل ومرسيليا وطولوز. والمدارس الأميرية تمنح تلامذتها رتبًا علمية هي (1) البكالوريا العلمية (2) شهادة الحقوق (اللسانس) (3) الدكتورية [الدكتوراه]. وتمنح رتبة أستاذ للتعليم الثانوي والعالي.

وفي فرنسا غير ما تقدم من المدارس العالية مدارس كبرى تابعة لنظارة المعارف أشهرها:

1- كلية فرنسا (College de France) أسسها فرنسيس الأول سنة 1535 وهي أرقى مدارس فرنسا على الإطلاق، يعلم فيها 50 فرعًا من أعلى طبقات العلم في الآداب واللغات وعلم الآثار والرياضيات والطبيعيات والعقليات والاجتماعيات والسياسة والاقتصاد وغيرها.

2- معرض التاريخ الطبيعي: للتفقه في هذا العلم.

3- المدرسة العلمية للعلوم العالية في التاريخ والفيلولوجيا والرياضيات والعلوم الكيماوية والبسيكولوجية، والعلوم الطبيعية والدينية الراقية. ومقر هذه المدرسة في السوربون بباريس وعلومها 18 فرعًا.

4- مدرسة المعلمين العليا: يتخرج فيها المعلمون للتعليم في المدارس الثانوية. واتبعت خطة السوربون بدون أن يكون لها أساتذة معينون.

5- مدرسة السجلات: لتعليم الخطوط القديمة والآثار. ثمانية فروع.

6- مدرسة اللغات الشرقية الحية: بها 16 فرعًا من فروع اللغات الحية الشرقية.

7- مدرسة اللوفر: تعلم فن الآثار.

8- مدرسة الفنون الجميلة.

9- مدرسة الرصد بباريس.

غير المدارس الفرنساوية خارج فرنسا كمدرسة الحقوق في القاهرة ومدرسة الطب في بيروت، فإن مثلها في أثينا ورومية والهند الصينية وفي مراكش. ولفرنسا خارج باريس ثمانية مراصد.

وغير التعليم الصناعي أو الفني فإنه واسع، لكنهُ خارج عن دائرة نظارة المعارف. أشهر مدارسه: مدرسة الصنائع والفنون في باريس (كونسيرفاتوار) تلقي عشرين علمًا ليليًّا في العلم والاقتصاد السياسي. ومدارس أخرى للتجارة والصناعة تابعة لنظارة الزراعة، وغيرها تابع لنظارة الحربية أو المستعمرات أو غيرها مما يطول شرحه. وكلها في باريس ومثلها أو أقل منها في خارجها مثل إكس وأنجرس وشالون وكليني وليل وغيرها. وغير مدارس الموسيقى والخطابة ومدارس لتعليم الخدمة على الموائد وتربية الأطفال وغير ذلك.

التعليم بمصر

والاطلاع على أسماء هذه المدارس يدل وحده على الفرق العظيم بين التعليم عندنا وفي تلك المملكة الراقية، فقد ذكرنا عشرات من المدارس لا وجود لها عندنا ولم نذكر غير المدارس العالية. وقد أغفلنا المدارس الابتدائية والثانوية التي عندنا مثلها. على أن مدارسنا هذه أحط كثيرًا من أمثالها عند الفرنساويين والابتدائية أقل كثيرًا من المدارس الابتدائية عندهم والمدارس الثانوية كذلك. وحامل البكلورية [البكالوريا] المصرية أقل معرفة من حامل البكلورية الفرنساوية. فالتعليم عندنا ضعيف جدًّا من كل وجه، وسنفرد فصلًا خاصًّا في هذا الموضوع. وإنما يكفي في هذا المقام أن نبين تقاعد حكومتنا أو أغنيائنا عن التعليم. ولا يحتج علينا بصغر مصر بالنسبة إلى فرنسا فإن سكان مصر يناهزون ثلث سكان فرنسا، ومع ذلك فالحكومة لا تنفق على التعليم عُشر ما تنفقه فرنسا. إن ميزانية المعارف

الفرنساوية 11557000 جنيه، فكم هي ميزانية حكومة مصر للمعارف؟ إنها نحو نصف مليون.

وقد يحتجون بتقصير المالية المصرية عن المالية الفرنساوية لأن المالية الفرنساوية 170 مليون جنيه والمصرية أقل من عشر هذا المبلغ، فلا عجب إذا دفعت للمعارف عشر ما تدفعه فرنسا. ولكن فرنسا تدفع من ماليتها أموالًا لا تدفع مصر شيئًا منها، فالفرنساويون ينفقون على الحربية نحو ربع ميزانيتهم. أما مصر فربع ميزانيتها يكفي لنفقات كل نظاراتها، وفرنسا تدفع نحو ثلث دخلها لوفاء الدين وأما مصر فتدفع خمس دخلها فقط لهذا الغرض، ومع ذلك فهي تنفق على المعارف 1⁄20 مما تنفقه فرنسا.

وفي فرنسا جمعيات علمية (أكاديميات) عديدة لكل فرع من فروع العلم، أهمها الأكاديمية العلمية أو أكاديمية العلوم، وأكاديمية العلوم والنقوش، وأكاديمية الفنون الجميلة، وأكاديمية العلوم الأدبية والسياسية، وأكاديمية الطب وغيرها. وكل أكاديمية مؤلفة من 40 عضوًا أو أكثر، ولكل منهم اختصاص بفرع من فروع العلم التي تبحث فيها. غير ما هنالك من المتاحف العلمية والصناعية والمدارس على اختلاف أحوالها.

وغير الجمعيات المؤلفة لتنشيط العلم والأدب أو لحفظ حقوق المؤلفين والمترجمين ومراقبة سير العلوم من حيث الصحافة وغيرها، وغير المعارض والمتاحف، فإنها من ظواهر الرقي العلمي، وسنأتي عليها.

المراسح والتمثيل

ليس المراد أن نصف المراسح [المسارح] التمثيلية فإن لدينا منها أمثلة حسنة في مصر والإسكندرية وإن كانت أقل مما في باريس فإنها تشبهها، حتى كثيرًا ما تعرض فيها روايات فرنساوية يمثلها أجواق من باريس. لكننا رأينا على مراسح التمثيل في باريس وغيرها من المدائن الكبرى في فرنسا وسويسرا ضربًا من التمثيل الانتقادي يسمونهُ في اصطلاحهم Revue، ويريدون به انتقاد العادات والأخلاق والآداب على المراسح في شكل بين الجد والهزل يلذ للمشاهدين لأنه

يتعلق على الخصوص بالأمور الجارية التي يتحدث بها الناس. وكثيرًا ما ينتقدون الكتّاب أو رجال السياسة على كتاب ألفوه أو رأي رأوه. وقد شهدنا تمثيلًا من هذا النوع في باريس انتقدوا فيه حرية المرأة الباريسية على أسلوب مؤثر، فمثلوا عروسًا عقد عليها لرجل وخرجت معه في الشارع فأصبحت كلما رأت رجلًا تعرفه أو رأت أن تحبه ضمته وقبلته وزوجها يرى ذلك. فإذا اعترضها احتجت عليه بحرية المرأة بقولها «إن هذا العصر عصر حرية».

وانتقدوا عادة البراز انتقادًا يحقرها في عيون محبيها، وانتقدوا مقالات كتبت في الأحوال الجارية بباريس. وشهدنا في تمثيل آخر في جنيف انتقاد المعاهدات الدولية والمجاملات السياسية، ومثلوا في جملتها حرب الدولة العثمانية والإيطاليان [والإيطاليين] وغير ذلك. فهذا الأسلوب من التمثيل لا مثيل له عندنا لكنه مفيد ولذيذ.

5- مظاهر حضارتها

أرقى مدائن فرنسا بلا خلاف باريس، ومع ذلك فالذاهب إليها من مصر لا يجد فيها ما يدهشه من حيث ظواهر المدنية الحديثة، كالشوارع الواسعة والأبنية الفخيمة والأنوار الكهربائية وازدحام الأقدام والبذخ في الألبسة والتفنن في الأزياء لأن في مصر أمثلة من ذلك لكنها في باريس أفخم وأجمل. ولا غرو فإن حضارة مصر الحديثة صورة مصغرة من حضارة باريس. والمرحوم إسماعيل باشا صاحب الفضل الأكبر في تنظيم شوارع القاهرة وإنشاء الأبنية الفخيمة فيها، إنما كان يفعل ذلك تقليدًا لباريس وكان مفتونًا بالفرنساويين ومدنيتهم. وظل ذلك مستمرًّا بعده إلى عهد قريب.

فلا ينبغي لنا أن نطيل الكلام في وصف شوارع باريس الكبرى وسعتها وما يحف بها من المخازن وما يعرض في تلك المخازن من السلع الثمينة أو ما يتلألأ في الليل من الأنوار الكهربائية على اختلاف ألوانها، ولا تعداد ضروب المركبات في العربات. فالأوتوموبيل فالتراماواي فالأوتوبيس فالأومنوبيس فالمتروبوليتان وغيره - فإن هذه لها أمثلة بين ظهرانينا ولكنها عندهم أكثر عددًا والركاب أكثر ازدحامًا. وإنما تمتاز عما في مصر وغيرها من مدائن الشرق أن السائق لا مطمع له

في الركاب ولا سبيل إلى طلب الزيادة عن حقه. لأن المركبات الكبرى العمومية كالتراموای وغيره لها رسوم معينة كما في مصر. والمركبات الصغرى كالعربات والأوتوموبيل أصبحت كلها مقيدة بالعداد، والمركبات الصغرى كالعربات والأوتوموبيل أصبحت كلها مقيدة بالعداد (تكسيمتر) وهذه الآلة تعين الأجرة اللازمة وتغني الناس عن النزاع.

المركبات العامة

وقد استلفت نظرنا على الخصوص أن باريس مع تزاحم الأقدام فيها، لا يتنازع الركاب في المسابقة إلى الترمواي أو الأومنوبيس، ولا يسمح لأحد بالوقوف بين الركاب إذا لم يكن له مجلس فارغ. ولا يجسر أحد على الركوب في غير دوره. لا يختلفون في ذلك ولا سبيل إلى الاختلاف، لأن عند كل موقف من مواقف هذه المركبات لوحًا معلقًا بعمود منصوب على الرصيف وعليه دفتر صغير الحجم أوراقه منمرة نمرًا متسلسلة، فالذي يسبق إلى الموقف يقتطع النمرة الأولى ومن يأتي بعده يتناول النمرة التالية وهكذا. وقد يجتمع في الموقف عشرات من الناس، وربما جاء القطار وليس فيه مكان إلا لخمسة أو ستة، فلا يؤذن بالدخول إلا لمن كانت عندهم النمر الأولى بقطع النظر عن أحوالهم من الغنى أو الفقر أو الوجاهة.

ومثل هذه العادة في لندن عند تكاثر الركاب ساعة الظهر لركوب التراموای، فقد جعلوا في المحطات التي يكثر التزاحم عندها موقفًا مستطيلًا لا يدخله الناس إلا أزواجًا. أوله عند محطة القطر [القطار] وآخره في الشارع لا حدّ له. فالواصل الأول يقف قرب المحطة تمامًا والذي يأتي بعده يقف وراءه وهكذا أزواجًا. وقد تتألف من الواقفين سلسلة طولها عشرات من الأمتار وكل منهم ينتظر دوره بلا نزاع ولا خصام. ويفعلون نحو ذلك في كل ما تتزاحم فيه الأقدام كالدخول إلى المراسح أو قطع تذاكرها. فالسابق يقف عند شباك التذاكر والذي يأتي بعده يقف وراءه وهكذا وقد تتألف من الواقفين سلسلة طويلة رأينا واحدة منها عند مرسح [مسرح] بمنشستر. والمرسح في بناء كبير قائم بنفسه، رأينا المنتظرين وقوفًا في سلسلة طويلة، وقد يحيطون بالبناء من أربع جهاته أولهم عن يمين شباك التذاكر وآخرهم عن يساره.

ومما يحسن استطراده، ويهمنا أمره في هذا المقام، أن قومساري الترامواي [بائع التذاكر] أو غيره من المركبات العمومية لا يحتاجون إلى مفتشين يتفقدون سيرهم خوفًا من السرقة كما هو حال الترامواي عندنا. وقد يكون للترامواي الفرنساوي أو الإنكليزي مفتشون، ولكنهم لا يتفقدون المركبات إلا نادرًا وقد ركبنا في تلك المركبات عشرات من المرات لم نشاهد فيها مفتشًا ولا لحظنا من القومساري مطمعًا في التذاكر، كاستخدام التذكرة مرتين لراكبين، أو قبض الجُعل [الأجر] بدون أن يعطي التذكرة، ولا رقيب عليهم من الشركة. ولعل السبب في ذلك أن الشركة تدفع لهم الرواتب الكافية لمعاشهم فلا يرون حاجة إلى السرقة. ولو أرادوا السرقة لا يجدون من الركاب من يوافقهم عليها كما يقع كثيرون بيننا، حتى إن بعض ركاب الترامواي بمصر يحرض القومساري على سرقة الشركة بقوله: «بلاش تذكرة» فيعطيه القرش ولا يأخذ التذكرة. وذلك ناتج عن ضعف في الأخلاق لا نراه عند أولئك.

الإعلان

والتزاحم في العواصم الكبرى يسهل رواج السلع على طلاب الرزق. وقد يستغرب قومنا بمصر أو الشام كيف تنفق في أسواق باريس أو لندن أشياء لا فائدة لها أو لا تستحق الرواج. وإنما السبب في ذلك كثرة الناس لأن من يعرض سلعة في الشارع لا يمضي عليه ساعة حتى يمر به مئات الناس، لا يخلو أن يكون فيهم من يقع اختياره على تلك السلعة فيشتريها ولو على سبيل التجربة. وإنما يطلب من صاحب السلع أن يستلفت الأذهان إلى بضاعته، وهذا هو السبب في اهتمام الإفرنج بالإعلان، حتى إن أحدهم إذا همَّ بإنشاء تجارة أو صناعة أعد رأس مال بالإعلان قبل رأس مال البضاعة. وقد تفننوا في ذلك تفننًا عجيبًا فهم يعلنون في الجرائد وعلى أغلفة الكتب وعلى جدران المنازل وأسطحتها وعلى الموائد وأغلفة المساوك [فراشي الأسنان] وفي مركبات الترامواي والأومنيبيس والقطر الحديدية وفي المحطات - حتى الحقول فإنك وأنت راكب في القطر من مدينة إلى أخرى يقع بصرك على عشرات أو مئات من ألواح قائمة على عمد مغروسة في الحقول ووجهها نحو الركاب، فتقرأ عليها أسماء المحلات أو المعامل أو المصنوعات، ولا سيما المشروبات والحلويات وأمثالها، فإن أصحابها من أكثر الناس إنفاقًا

على الإعلان. وإنما يفوز منها من يستلفت الأذهان إلى صناعته فضلًا عن إتقانها. ويقال إن أكثر المتاجر إنفاقًا في فرنسا أصحاب معمل «شكولات مينيه» وحيثما توجهت في شوارع المدن أو خطوط السكك الحديدية حتى المتاحف والمعارض ونحوها، فإنك تجد عليها اسم هذه الشكولاته، وأصحابها ينفقون مليوني فرنك سنويًّا على الإعلان، وأرادوا مرة أن يقتصدوا فقلّت مبيعاتهم فعادوا إلى الإنفاق.

ومن أغرب طرق الإعلان عندهم أنهم يكتبون اسم البضاعة على الحقول نفسها أو على الجبال بأغراس من الأعشاب بلون خاص يغرسونها على الرسم المطلوب فتنبت على ذلك الشكل. وقد تكون بعيدة عن الطرق والمنازل عدة كيلومترات فيراها الناس ويقرأونها واضحة. ومن أساليب الإعلان أن يذكر اسم السلعة أو المشروب أو غيره على المراسح أو غيره في أثناء التمثيل، على سبيل الاستشهاد أو الانتقاد أو غير ذلك، ويدفع صاحب الإعلان على ذلك ثمنًا.

ومن أساليب الإعلان أن يعرض التاجر بضاعته ويكتب على كل صنف ثمنه. فهذا يسهل على الشاري الحكم في الابتياع أو عدمه. لكن أصحاب البضائع التي فيها درجات متفاوتة بأثمان متفاوتة يعلنون أنهم يبيعون الأداة الفلانية بالثمن الفلاني، ويذكرون أرخص سعر عندهم فيتوهم الشاري إنه ثمن الصنف الجيد فيدخل للسؤال على الأسعار ولا بد من أن يشتري.

الأزياء

ولا خلاف في أن باريس أسبق مدائن العالم إلى جمال الصناعة ولطافة المصنوعات وهي التي ترسم للعالم الأزياء التي يجب اتباعها وقد يكون لسواهم أزياء لكنها السابقة المتغلبة. ولأهلها مقدرة كبرى على توليد الأزياء في الملابس وغيرها. وهناك طائفة من أهل الذوق الصناعي إنما يشتغلون بوضع الرسوم للأزياء الجديدة، يستعينون على ذلك بما في المتاحف الصناعية من الرسوم أو المنسوجات القديمة فيركبون منها زيًّا جديدًا يبالغون في تنقيحه وتدقيقه حتى يبلغ حده، ثم يعرض على أصحاب المعامل للنسج على منواله، أو أصحاب المتاجر ليروجوه.

وللفرنساويين مهارة خاصة في الزخرفة وإتقان المظاهر بغير التفات إلى متانة ما يصنعونه وطول بقائه، بخلاف الإنكليز فإنهم إنما يهتمون بمتانة ما يصنعونه ولا يهمهم ظاهره، وهذا تابع لما اتصف به هذان الشعبان من الأخلاق كما سنذكره في بابه. فالبضاعة الباريسية إنما يرغب الناس في ظواهرها أكثر مما في متانتها. واعتبر ذلك في أكثر معاملاتهم فإن ما تبتاعه بعشرة فرنكات من أسواق باريس ليس فيه من المادة الأصلية إلا ما يساوي فرنكين أو أقل، والباقي ثمن ما ينفق في سبيل ترويجه من المظاهرات كإتقان المخازن والإكثار من الخدم والتنوير الكهربائي والإعلان وغير ذلك.

البوربوار (البخشيش)

ومن غرائب هذه الحضارة في فرنسا «البخشيش» نعني ما يعطى للخدم مكافأة على خدمة خاصة، وهو عندنا لا يعطى إلا إذا كانت الخدمة خارجة عن واجبات الخادم التي يُنقد عليها الأجرة. وأما عندهم فالبخشيش فرض واجب لا مناص منه، ويسمونه في اصطلاحهم بوربوار أي لأجل الشرب، كأنه يطلب أن تعطيه فلسًا يبتاع به قدحًا من البيرا أو الخمر. والبوربوار يعطى على الخصوص لخدم القهوات والأندية والمطاعم والفنادق وساقة [سائقي] المركبات، وهو يقدر بنحو عشر المبلغ المدفوع ثمنًا حقيقيًّا. فإذا دخلت مطعمًا مثلًا ودفعت عشرة فرنكات ثمن الغذاء فالبوربوار لخادم المائدة فرنك. وإذا زادت المدفوعات قلّت نسبة البخشيش عن عشرة في المائة مما لا ضابط له. وفي ذلك مشقة على النازلين في الفنادق لأنهم لا يعرفون كيف يدفعون ولا لمن يدفعون فالخدمة [الخدم] كثيرون. والغالب أن يقسم البخشيش بين الفرّاش والبواب وخادم المائدة وصاحب الرافعة (أسانسور) وغيرهم. وقد يكونون أكثر كثيرًا ويختلف ذلك باختلاف الطبقات. فالداخل على مطعم فخيم يستقبله خادم يتناول منه القبعة والشمسية وآخر يقدم له كرسيًّا على المائدة وهذا يخدمه في تبديل ألوان الطعام، فإذا نهض تلقاه الخادم الآخر بالقبعة والشمسية وتقدم آخر ففتح له الباب عند الخروج وآخر يفتح له باب المركبة عند الركوب، فهؤلاء كلهم ينبغي أن يدفع إليهم البوربوار - وقد يزيدون على ذلك.

وأصل هذه العادة الغريبة عندهم على ما نظن تزاحم الغرباء على أماكن اللهو، في زمن لم يكن الخدم فيه يستطيعون القيام بما يلزم من الخدمة. فأصبح من يريد تعجيل حاجته مضطرًا أن يسترضي الخادم بدفعة خصوصية له، وتكرر ذلك حتى صار قاعدة. وأصبح خَدَمةُ أماكن الملاهي يعدون البوربوار من جملة استحقاقاتهم وبعضهم لا يتقاضى من صاحب القهوة أو المطعم أجرة، وفيهم من يدفع شيئًا من جيبه لصاحب القهوة ليأذن باستخدامه.

ومما يستلفت نظر المصري في باريس أنك لا تجد في شوارعها متسولًا يعترض طريقك ولا متشردًا مستلقيًا على الشارع، ولا غلامًا عاريًا أو شبه عار يتسلق الترامواي أو يعرض عليك خدمة من حمل حقيبة أو نحوها - لاشتغالهم عن ذلك بالمدارس.

ولا حاجة بنا إلى ذكر سهولة المواصلات والمخابرات عندهم كالتلغراف والتلفون والبريد فإنها مشهورة وعندنا أمثلة منها لكنها هناك أكثر شيوعًا. فالتلفون يكاد لا يخلو منه منزل أو متجر. وعندهم من طرق البريد، مما لا مثيل له عندنا، تذاكر ترسل مستعجلة في المدينة نفسها تتقاضى عليها مصلحة البريد ثلاثة أضعاف الأجرة المعتادة لكنها توصلها سريعًا كالتلغراف، وهي ما يسمونه «بنوماتيك» (pnumatique) وهي تذكرة تكتب فيها ما شئت وتعنونها وتضعها في عين من صناديق البريد خاصة بهذه التذاكر، وعمال البريد يتفقدون هذه العيون كل مدة قصيرة فإذا وجدوا فيه تذكرة أسرعوا في إيصالها حالًا، وهي ترسل عادة بضغط الهواء في أنابيب ممتدة لذلك تحت الأرض.

6- نظام الاجتماع فيها

نظام الاجتماع من حيث أساسه واحد في كل بلد وإنما يختلف في تفاصيله باختلاف الأعصر والأقاليم، فالهيئة الاجتماعية في أبسط أحوالها مؤلفة من العائلة والحكومة والكنيسة، فإذا ارتقت نشأت فيها المدارس والجمعيات الأدبية والشركات الاقتصادية. وتختلف هذه الجماعات في كل بلد باختلاف طبائع أهله ونوع مدنيتهم وسائر أحوالهم. فنظام الحكومة يختلف بين الاستبدادي

والدستوري والجمهوري. ونظام العائلة في الشرق غير ما هو في الغرب، وفي هذا العصر غير ما كان عليه قبله. كانت العائلة عندنا إلى أوائل القرن الماضي على شكل الحكم الملكي المطلق - الأب رئيس العائلة يستبد في أهله استبداد السلطان المطلق في رعيته يزوج من شاء بمن شاء ويعهد إلى من يريد بما يريد من عمل أو سفر أو إقامة - لا يرون في ذلك غرابة. ثم تعدل هذا النظام بعد دخولنا في المدنية الحديثة فأخذت العائلة تقترب من النظام الدستوري لكنها ما زالت أقرب إلى الحكم المطلق، ويختلف ذلك باختلاف الأمم والأديان.

وبناء على ما للأقاليم أو البيئة من التأثير في أبدان الناس وعقولهم وطبائعهم فاختلاف الأقاليم أوجبَ اختلاف الأمم في كل. فلننظر في طبائع الأمة الفرنساوية على الإجمال.

طبائع الفرنساويين

الفرنساوي عامل نشيط يدأب على العمل بحماسة وهمّة، ولا سيما أهل الزراعة منهم فإنهم قويو الأبدان يعملون في حقولهم بنشاط. ولا تجد في فرنسا بقعة تقبل الزراعة غير مزروعة. وكذلك العمال والصناع وسائر طبقات الناس فإنهم نشيطون في ذهابهم وإيابهم، في كلامهم وأشغالهم وفي أسفارهم - فإن أحدهم ينزل من القطار ويحمل حقيبته (الشنطة) بيده، فإذا كان منزله قريبًا سار إلى بيته ماشيًا، لا يرون في ذلك بأسًا. على أنهم إذا طلبوا غلامًا أو رجلًا يحمل لهم الحقيبة في أثناء الطريق لا يجدون، وهي صفة يشترك فيها أهل أوربا كافة. ويتأثر بها الشرقي حالما يطأ تلك القارة. وتقوم في نفسه رغبة في الهمة والنشاط، فإذا رجع إلى بلده عاد إلى طبعه، إلاّ إذا توطن أوربا طفلًا - ومرجع ذلك إلى طبيعة الإقليم. والفرنساوي ذكي الفؤاد، سريع الخاطر، حاضر الذهن فصيحًا [فصيح] خفيف الروح، فيه ميل إلى الفنون الجميلة وذوق في الصناعة.

الجمال

وللفرنساويين ذوق في الجمال لا تضارعهم فيه أمة. يظهر ذلك خصوصًا في الباريسيين فإنهم قدوة الأمم في الأزياء على اختلاف أشكالها، ولهم ذوق في

توليد الجمال مما لا جمال فيه من نفسه، بترتيب أجزائه على شكل لا قاعدة له إلا الذوق، وهو على أرقى درجاته في باريس. تجد المرأة القبيحة الخلقة تتزيا بزي يناسبها وتصفف شعرها تصفيفة تناسب ملامح وجهها فتظهر جميلة. ولهم في تصفيف الشعر واختيار شكل البرنيطة [القبّعة] ولونها طرق تختلف باختلاف تقاطيع الوجه ولونه وشكل الأنف والعينين والجبهة والفم وغير ذلك، فيوفقون التصفيفة (التوالت) [التسريحة] والبرنيطة على حال الوجه فيظهر جميلًا.

ويتبع ذلك ميلهم إلى تزويق الحديث فإنه من قبيل رغبتهم في الجمال الخارجي، فكما يوفقون بين تصفيفة الشعر وحجم البرنيطة وشكل الوجه حتى يظهر جميلًا فهم أيضًا يحسنون الحديث حتى يلائم ذوق السامع فتنبسط نفسه له، لكنه لا يرى النتيجة دائمًا كما كان يتوقعها. فالفرنساوي فيه ميل إلى إتقان الظواهر أكثر مما إلى إتقان البواطن، وهو من قبيل حبه الجمال. ويخالفه الإنكليزي في ذلك كما سنبينه في مكانه. ومن قبيل ميلهم إلى الجمال واقتدارهم على توليده ما تجده في مخازنهم وشوارعهم من الزخارف التي يراد بها التحسين، أي أن تظهر السلعة المعروضة أحسن مما هي، ومن هذا القبيل استخدام المرايا في الواجهات لإيهام الناس أنها أكبر مما هي. وإذا كان الحانوت صغيرًا جعلوا جدرانه من المرايا فيظهر أضعاف ما هو.

الاقتصاد والترتيب

والفرنساوي مقتصد من فطرته، وترى الاقتصاد ظاهرًا على الخصوص في القرى فإن أصحاب المزارع الصغرى يعيشون عيشة بسيطة. والفلاح يشتغل وامرأته تشتغل وأولاده يشتغلون كل على قدر طاقته وحسب ميله. ولا بدَّ لكل منهم أن يقتصد شيئًا من ربحه مهما كان قليلًا فيحتفظ به لنفسه. وهم يستخدمون الفرش البسيط عكس أهل المدن وكذلك ملابسهم. فالفلاح الفرنساوي بسيط في لباسه وأخلاقه، ومهما يكن من فقره فإنك تجده نظيف الثوب نظيف الفراش يأكل على المائدة بالشوكة والسكينة بترتيب ونظافة. فلا تستنكف إذا دخلت بيته من أن تجلس على مقعده وتأكل من طعامه وتشرب من كأسه. وليس كذلك الفلاح المصري. ولا سبيل إلى إصلاحه إلا بتعليم المرأة وتثقيفها وهي المدبرة لكل ذلك.

معرفة الواجب

ومن الخلال الحميدة الشائعة في معظم أوربا، ونحن في حاجة إليها، «معرفة الواجب» وهي تشمل كل أعمال الإنسان. نعني أن يشعر الإنسان بما عليه فيؤديه من تلقاء نفسه بدون استحثاث أو إرهاب أو ترغيب - لو فعل ذلك كل إنسان لاستغنى الناس عن الحكومات وأبطلت المحاكم. ولكن الناس يتفاوتون في هذا الباب، وأكثرهم شعورًا بالواجب أقربهم من المدنية والارتقاء. وهو يستلزم الأمانة وهي أساس المعاملات وأكبر أسباب النجاح - ما أجمل أن يشعر الإنسان بما عليه فيؤديه بلا وازع أو مراقب. والفرنساويون من أكثر الأمم شعورًا به وكذلك الإنكليز. وربما ظهر الإنكليز أكثر قيامًا بالواجب لأنهم يعملون كثيرًا ويقولون قليلًا. وأما الفرنساوي فميله إلى زخرف الكلام يظهر أعماله قليلة. لكن الشعور بالواجب قويٌّ في كليهما.

ذكرنا في غير هذا المكان أن قومساريي الترامواي لا رقيب عليهم (مفتش) وهم لا يسلبون الشركة باستعمال التذكرة مرتين أو قبض الثمن بدون أداء التذكرة لأن القومساري الفرنساوي أو الإنكليزي نشأ وقد غرست والدته في ذهنه من طفولته أن يعرف ما له فلا يطمع بسواه. ولو أراد السائق أن يطمع فإن الشعب أرقى من أن يتساهل في هذا الأمر لأنه تربى تربية راقية وعرف ما لهُ وما ليس له ويعلم أن تساهله مع القومساري في أمر التذكرة إنما هو مشاركة لهُ في السرقة. ولكن كثيرين عندنا يتساهلون في ذلك وبعضهم يحرض القومساري على السرقة. والسبب في ذلك ضعف أخلاق العامة عندنا. وإن مثل الترامواي هذا على بساطته يدل على أخلاق العامة.

الثقة وقيمة الوقت وصدق المواعيد

ومن قبيل الأمانة المبنية على معرفة الواجب وما يترتب عليها من الثقة المتبادلة أن بعض باعة الجرائد في فرنسا وإنكلترا يضعون أعداد الجريدة فوق طاولة على الرصيف خارج الحانوت وبجانبها علبة. فمن أراد أن يبتاع جريدة وضع ثمنها في العلبة وتناول الجريدة ولا رقيب عليه. وصاحبها لا يخاف أن يسرقه المارة فيأخذ أحدهم الجريدة ولا يدفع الثمن. وقس على ذلك الثقة المتبادلة في سائر الحرف.

دخلنا مطعمًا في لندن يوم وصولنا من باريس. وبعد الفراغ من الطعام دفعنا لصاحب المطعم ليرة فرنساوية فاعتذر بأن النقود الفرنساوية لا تقبل عندهم. ولم يكن عندنا نقود غير فرنساوية. فوقعنا في حيرة وأردنا أن نترك الليرة لهُ ريثما نعود وقد بدلنا النقود. فأعاد الليرة ليدنا وقال «دعها معك ومتى بدلتها تدفع ما عليك»، وكانت هذه أول مرة رآنا فيها الرجل. أليس ذلك من الأخلاق الراقية؟ أن صاحبها لا يتصور رجلًا عليه حقٌّ لا يبادر إلى دفعه من تلقاء نفسه. ولا يدل هذا على خلو تلك البلاد من أصحاب الأخلاق الضعيفة ولكنهم أقل مما عندنا، كما أننا لا نعني ضعف الثقة عندنا في كل الطبقات، وإنما نريد الأغلبية.

ومن جميل ما نحسدهم عليه معرفة قيمة الوقت وهو يتوقف على معرفة الواجب أيضًا، فإنهم يقسمون أوقاتهم ويفرقونها على أعمالهم فلا يقصرون بما عليهم، ولا يضيعون أوقات أصدقائهم بالزيارة الحبية كما يفعل كثيرون عندنا، فإن بعضهم يزورك في ساعة شغلك ولا شغل لهُ ويعلم أنك مشغول فلا يختصر زيارته ولا أنت تتجرأ على الاعتذار منه لئلا تتهم بالفظاظة، ولكن هذه العادة آخذة بالزوال من بيننا في الطبقة الراقية.

واعتبر ذلك في صدق المواعيد فإنه تابع للشعور بالواجب، وهو ينقصنا لكنه آخذ في الشيوع بين المتعلمين.

لا يعنيني

ومن الأخلاق الفرنساوية الشائعة في باريس اشتغال كل منهم بنفسه عن سواه فلا يتعرض أحد إلى شؤون جاره بالاستطلاع أو التجسس. وهو من طبائع أهل المدن الكبرى وطبيعي شيوعه في باريس وهي ثالثة مدائن العالم. وتجسس الأخبار والدخول في أحوال الآخرين يكثر في القرى الصغيرة لتفرُّغ أهلها للأحاديث ولأنهم مطلعون على عورات جيرانهم ولا يخلون من التحاسد أو التباغض. وكلما اتسعت المدينة قلّت تلك العادة فيها ولذلك كان أهل باريس من أكثر الناس بعدًا عنها، فإن أحدهم يمشي وهمه نفسه ولا يلتفت إلى سواه. أو يجلس في القهوة ولا يلتفت إلى جليسه من هو. وقد يكون بجانبه رجل وامرأة يتغازلان أو يتداعبان فلا يهمه ذلك. وهذا ما نعبر عنه بضعف الغيرة ولا يستطيع الشرقي احتماله. أما الفرنساوي فيتحمله ولسان حاله يقول «لا يعنيني».

ولكنه مع ذلك جَنوح إلى النجدة وفيه أريحية إذا استحثته على مَنقبة اندفع إليها بكليته ولو جرَّه ذلك إلى خسارة أو حمّله مشقة.

المفاخرة بالرجال أو الحرية

ومن سجاياهم أنهم يفاخرون برجالهم ويعظمون النابغين منهم. وحيثما مررت بشوارع باريس تجد تماثيل العظماء منصوبة في تقاطع الطرق أو واجهات القصور أو في الساحات العمومية، يزيد عددها على مئة وستين تمثالًا كبيرًا للقواد والملوك والكتّاب والشعراء والفلاسفة والعلماء. وبينها تماثيل بعض مشاهير الأمم الأخرى مثل دانتي شاعر الإيطاليين وواشنطون محرر أمريكا وشكسبير الشاعر الإنكليزي وغريبالدي القائد الإيطالي. غير التماثيل الرمزية عن الحرية أو الاتحاد أو نحوهما. وغير التماثيل المنصوبة في المتاحف والمراسح والمدارس والكنائس والمنازل وهي عديدة جدًا. وأكثرها شيوعًا تمثال بونابرت على اختلاف أقداره وأشكاله. والتماثيل تثير في النفوس الحماسة والميل إلى الاقتداء بأولئك العظماء. وهي وسيلة حسنة لاستنهاض الهمم واستحثاث القرائح لا مثيل لها عندنا- إلا قليلًا.

ويمتاز الفرنساويون عن سائر أهل أوربا بالنزوع إلى الحرية على اختلاف أوجهها. وقد مرت أجيال كانوا فيها نصراء الحرية يأخذون بأيدي طلابها وينصرونهم بالمال والرجال. وأشهر الشواهد على ذلك نصرتهم للأمريكان في طلب الاستقلال من سلطة الإنكليز. ومن قبيل تعشقهم الحرية مغالاتهم في مطاردة بعض الجماعات الدينية، لكنهم تطرفوا في ذلك حتى خرجوا به إلى عكس المراد بالمدنية. ففترت الحاسات الدينية ونزع الناس إلى الشك في الدين وآل الأمر في بعض الأحوال إلى فساد الآداب، لأن العامة لا تستغني عن وازع ديني يصلح من آدابها. ومن أكبر أسباب الفساد إلقاء الشكوك الدينية في أذهان الناس.

طعامهم وشرابهم

والفرنساويون يكثرون من أكل اللحوم في طعامهم وهو شأن أكثر سكان أوربا وخصوصًا في البلاد الباردة، لاحتياجهم إلى المواد اللحمية في مقاومة

البرد. ولهذا السبب أيضًا يكثرون من شرب الخمور، وتكاد لا تجد بينهم من لا يشرب الخمر على المائدة رجالًا ونساء وأولادًا. وكثيرًا ما يجرّ ذلك إلى إدمان المسكر فكثر المدمنون عندهم ولا سيما في الطبقات السفلى كالعمال والصنّاع. أما شرب الخمر الاعتيادية فإنه عام ولا يشترط أن يكون على المائدة. ولذلك ترى وجوه الفرنساويين مشرقة أو مشربة حمرة - ولا يدل ذلك على الصحة دائمًا وقد يدل على المرض. وترى صاحبه يميل إلى النعاس بعد الطعام ويظهر ذلك في ساقة المركبات بباريس. لأن أحدهم إذا لم يكن سائقًا مركبته لا تراه إلا نائمًا على كرسيه ورأسه متدلٍّ على صدره وقد احمرت وجنتاه وانتفخت أوداجه. وحوادث المسكر بمصر على كثرتها قليلة بالنسبة إلى تلك البلاد. ولكننا نشكو من شيوع الحشيش بمصر رغم منعه رسميًّا. على أننا سمعنا بوجوده في باريس أيضًا بأمكنة يعرفها طالبوه.

بقي علينا النظر في أمرين مهمين من نظام الاجتماع عندهم نعني طبقة العامة والمرأة.

العامة

ومن قبيل النظام الاجتماعي أن تكون الأمة مؤلفة من طبقات ترجع إلى طبقتين: الخاصة والعامة، ويختلف حال كل منهما باختلاف الأمم والأعصر وإن تشابها على الإجمال في كل بلد. فالخاصة وهم أهل الوجاهة والثروة يغلب أن يكونوا ممتازين في نفوذهم ومعيشتهم ويكون العامة تابعين لهم في أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على تفاوت ذلك بتفاوت أحوال المدنية وأنواعها.

فالعامة في التمدن القديم كانوا كما قال الإمام علي «همج رعاع أتباع كل ناعق» وقال معاوية «إنهم أشباه البهائم إن جاعوا ساموا وإن شبعوا ناموا»، وهم نحو ذلك في الشرق إلى الآن إلا في بعض البلاد الراقية. أما في الغرب فقد تغيرت أحوالهم حتى أوشكوا أن يقلبوا نظام الاجتماع، ولا سيما في البلاد الجمهورية ومنها فرنسا وهو موضوع كلامنا في هذا الباب.

العامة في فرنسا

إن العامة في فرنسا يختلفون عن عامتنا بأمور كثيرة: منها أنهم أرقى تربية وأوسع تعلمًا فلا تجد فيهم من لا يحسن القراءة والكتابة. وحيثما توجهت ترى البوابين وساقة المركبات وصغار الباعة وخدم المنازل والقهوات، حتى مساحي الأحذية يطالعون الجرائد والكتب ويهتمون بالشئون العامة ويبحثون في السياسة ويتناقشون في التعليم والأحزاب وينتقدون أعمال الحكومة. والسبب في ذلك [معرفة الـ] «حقوق» فإنه عام في كل بلدة وقرية، فتنبهت الأذهان وتفتحت الأعين وتعلّم العامي معنى الاجتماع والاتحاد، وخصوصًا بعد الانقلاب الذي جعل كل شيء في أيدي العامة لأنهم قلبوا الحكومة واستبدوا في الشرفاء والأمراء. فتشكلت الأحزاب من العامة وارتقت نفوسهم. ورافق ذلك كثرة الاختراعات الصناعية التي أغنت أصحاب الأموال (الخاصة) عن كثير من العمال، فتضايق العمال وهم من العامة واضطروا إلى الاجتماع والاحتجاج والمطالبة وهو الاعتصاب. وساعدهم على ذلك شيوع مذهب الاشتراكية واحتياج النواب إلى العامة في التصويت عند الانتخابات النيابية، وكل نائب يجتهد في اكتساب رضى القوم في البلد الذي ينوب عنه حتى يصوتوا له. فازداد العامة نفوذًا وطمعًا، وأكثروا من الاعتصاب حتى أتعبوا أصحاب الأموال وحمّلوهم خسائر عاد معظمها على الجمهور لأنها آلت إلى ارتفاع الأسعار.

فالحرية التي نالها العامي الفرنساوي صانت حقوقه من جهة لكنها أضرت به وبالأمة من جهة أخرى. لأن العامي، مهما بلغ من ارتقائه، لا يبرح قصير الإدراك وإنما يتدرب على الاجتماع والصياح مع الصائحين، فينحاز إلى هذا الحزب أو ذاك لا عن تفطّن وإدراك وإنما هو يساق بعواطفه ويندفع بما يخطر له حسب المؤثرات الخارجية. والعامي الفرنساوي مدمن للمسكر كما تقدم، أضف إلى ذلك حدة مزاجه فإذا ضربت له وترًا حساسًا كالدين أو الوطنية أو غيرها اندفع لما تريده منه، فالغلبة لمن يستطيعون استهواء هؤلاء العامة لأغراضهم بالفصاحة أو نحوها.

والنفوذ الحقيقي للخاصة لأنهم أقوى عقولًا وأكثر وسائل - ذلك هو شأن

الجماعات في كل بلد: يختصم الخاصة على السيادة أو الكسب فيستنصرون العامة بعضهم على بعض بما يستطيعون من الأساليب، فينصرونهم وينفذون أغراضهم، والعامة يتوهمون أنهم يفعلون ذلك من تلقاء أنفسهم. مهما بلغ من رقي العامة وحريتهم فالخاصة هم أصحاب السيادة الحقيقية وهم كالأوصياء على العامة يسنّون لهم الشرائع ويضعون لهم القوانين ويدربونهم في شؤونهم السياسية والاجتماعية. حتى أحوالهم اليومية فإن الحكومة الفرنساوية تهتم بها كثيرًا وقد فرضت على العامل أن يرتاح يومًا في الأسبوع فإذا لم يفعل عُدّ مذنبًا. وإذا كان عمله لا يأذن له بالراحة كخدمة المطاعم والقهوات ونحوها دبرت الحكومة وسيلة تمكّنه من الراحة. وذلك أنها أمرت العامل من هؤلاء أن يختار يومًا من الأسبوع يرتاح فيه وعينت من يقوم مقامه في ذلك اليوم ويستولي على أجرته. وعندهم طائفة من العمال تحت الطلب لهذا الغرض، فبهذه الواسطة يشغلون سبع العمال ويريحون جمهورهم. لكن بعض العمال يشتكون من هذه المعاملة لأنها تضيع عليهم سبع دخلهم ولأنهم ينفقون في يوم الراحة أكثر من يوم الشغل. وللإنكليز عناية مثل هذه أو أشد منها في تدبير شؤون العامة سنأتي عليها في مكانها.

المرأة في أوربا

كانت المرأة في الأعصر المظلمة بأوربا وغيرها مرذولة محتقرة تعد من قبيل المتاع، وكان للرجل أحيانًا أن يبيع امرأته بالمزاد العمومي. وتفنن الكتّاب والشعراء في هجائها وانتقادها. وتباحث اللاهوتيون طويلًا في «هل للمرأة نفس» وزعموا أنها «باب جهنم» و«معمل أسلحة الشياطين وصوتها فحيح الأفاعي» وأنها «نبال الشيطان» و«سامة كالصل وحقودة كالتنين» وقال الشاعر العربي:

إن النساء شياطين خلقــن لــنا   نعـوذ بالله مـن شــر الشيـاطيـن

فلما بزغ نور التمدين الـحديث وتحـولت العلوم والمـعارف مـن النظريات والتقاليد إلى الاختـبار والـدرس، كان فـي جملـة مـا همـهم «المرأة» فأدركوا خطارة [خطورة] مركزها في الهيأة الاجتماعية وأن النجاح معـقود بتعليمها وترقية نفسها، لأنها قوام العائلة ومربية الأبناء وشريكة الرجل في أحوال الحياة. فقدموها

وعلموها ورفعوا منزلتها فقامت تطالب بحقوقها. واختلف الكتّاب في مقدار تلك الحقوق لكنهم اتفقوا على احترام المرأة وإجلالها حتى مثلوا بها الفضائل والمفاخر.

فإذا أرادوا تصوير الحرية مجسمة نحتوا لها تمثال امرأة. وهكذا فعلوا بتمثيل الاتحاد والبلاغة والعمل وغيرها من الفضائل المجردة فإنهم يمثلونها بصورة امرأة. والفرنساويون من أكثر الأمم احترامًا للمرأة.

المرأة الفرنساوية

أخرجوا المرأة من ظلمات الجهالة وأطلقوا سراحها واعترفوا بحقوقها وساووها بالرجل، ما له وما عليه، فبرزت من خدرها وتعاطت أعمال الرجال وسابقتهم في كثير من أعمالهم لأنها أقل أجرة من الرجل، فكثر استخدامها في ما تستطيعه من المناصب والمهن. فمن النساء عندهم بائعات في المخازن وعاملات في المناجم والمصانع والمعامل وخادمات في المنازل وكاتبات في المتاجر والشركات وفي بيوت التلغراف والتلفون والبريد وحاسبات في المصارف. وقد تعاطين أهم المهن العلمية كالمحاماة والطب والتحرير والشعر والتأليف والوعظ والعمل في معامل الكيمياء والبكتريولوجيا وغير ذلك. وأنشأن الجمعيات العلمية والأدبية والأندية الاجتماعية. وألّفن الأحزاب السياسية للمطالبة بحقوقهن. وتعاطين كثيرًا من الصنائع الحقيرة أو المتعبة، فمنهن غارسات في الحقول ومنظفات في الشوارع - حتى سَوق المركبات فقد شاهدنا واحدة منهن تسوق مركبة بالأجرة في شوارع باريس فأدهشنا ذلك فأخبرنا صديق كان معنا أن في باريس 12 سائقة مثل هذه.

والسبب في نزول المرأة هذه المنزلة عندهم أن الفتاة الفرنساوية تنشأ في منزل والديها كما ينشأ الغلام، ويطلب منها أن تتكسب بالشغل كما يتكسب هو. وهي تجالس الرجل وتحادثه وتباحثه في كل موضوع كأنها رجل مثله، وتسافر للسياحة والاستكشاف وحدها لا ترى في ذلك بأسًا أو غرابة مما لم نألفه في بلادنا. فإن فتاتنا تتعلم أو لا تتعلم ثم تمكث في منزل والديها في انتظار نصيبها

للزواج وزينتها الحشمة والحياء ولا يخطر لأهلها أن تعمل عملًا. فهي إما أن تتزوج أو تبقى عانسًا في بيت أبيها ولا تشتغل إلا نادرًا. وأكثر اشتغالها بالتعليم أو الخياطة ويندر أن تتعاطى عملًا آخر. ومهما بلغ من حريتها فهي لا تجالس غير معارفها وذوي قرباها.

أما الإفرنجية فحالما تخرج من المدرسة تمضي إلى السوق كما يمضي الشاب فإذا أتاها النصيب تزوجت فيشغلها الزواج عن الارتزاق اكتفاء بعمل زوجها، وإلا فإنها تشتغل هي أيضًا. ولا يخفى ما في ذلك من تضاعف الأيدي العاملة في الأمة الفرنساوية، أي إن العمال من الجنسين نحو ضعفي العمال عندنا بالنسبة إلى عدد السكان.

والمرأة الفرنساوية في القرى والبلاد الصغيرة مثال الاقتصاد والترتيب والعطف على أولادها والأمانة لزوجها وكذلك المرأة في العائلات الراقية من الطبقة الوسطى والعليا. لكن هذه الحرية أدت في المدن الكبرى إلى تشويه ذلك الجنس اللطيف في طبقة معينة من العامة. وهذا التشويه أخذ في الامتداد، ويخشى أن يجرّ إلى انقلاب اجتماعي وخصوصًا في باريس أم المدائن الجميلة.

كنا نشكو من جهل الفتاة الشرقية وحجبها ونحسد الفتاة الإفرنجية على تعلمها وحريتها فلما رأينا حالها في باريس انقلبت شكوانا وكدنا نرضى بالحجاب والجهل - إنهم أساؤوا إلى ذلك المخلوق اللطيف بتلك الحرية المتطرفة. أرسلوا المرأة إلى الأسواق تخالط الشبان وتبايعهم وتساومهم وتعاشرهم وهي ضعيفة حساسة فتعرضت لمفاسد كثيرة. وأغراها الشبان بالمال فخدعوها. فلما خرجت من صف الحرائر خدعتهم. ثم آل أمرها إلى ضياع العمر في الشوارع والأزقة لا تجد رزقًا الا باستهواء الشبان. وفي القاهرة مثال صغير من تلك الطبقة يعرفن ببنات الرصيف. أما هناك فإنهن ألوف ولا تكاد تخلو منهن حديقة أو منتزه أو شارع ولا سيما في أثناء الليل ولا حرج عليهن بحجة الحرية الشخصية. والحكومة الفرنساوية تبيح الفحشاء على شروط وضعتها وقوانين سنتها. فأباحت للمتجرين بالأعراض أن يبتنوا المنازل والقصور ويحشدوا فيها الغواني أصنافًا وألوانًا، يعرضونهن عرض السلع أو الأثاث بلا عيب ولا حياء. ولهم سماسرة في أيديهم

شهادات من الحكومة تخول لهم معاطاة تلك المهنة. ولهذه الطبقة من المتهتكين مجالس وأندية وجرائد وكتب لترويج تلك البضاعة. وليس ذلك جائزًا في إنكلترا. ولكن مصر اقتدت فيه بالفرنساويين كما اقتدت بسواه من أسباب تمدنهم، وما كان أجدرنا أن نأخذ الحسن النافع من أسبابه ونعرض عن القبيح الضار.

الإرساليات المصرية

ومن قبيح هذه الحرية في باريس أن من تلك الشباك الجهنمية كثيرًا في حي يعرف بالحي اللاتيني (quartier latin) فيه أكثر المدارس العالمية التي ترسل مصر إليها شبانها ليتلقوا فيها الحقوق والطب أو غيرهما. ولا مندوحة لهم عن الإقامة هناك والتعرض لتلك الأخطار في المراقص والملاعب حيث يختلط الشبان بالشابات. فلا ينجو من ذلك الخطر إلا قويّ الإرادة ثابت العزيمة. ولكن الإنسان ضعيف ولا سيما الشاب القادم من بلاد لا يرى فيها المرأة إلا محتجبة، وهو في بلده بين أهله ومعارفه يمنعه الخجل من مخالطة غير المحتجبات. أما في باريس، وكل شيء فيها مباح، فإنه يرى الشبان والشابات في الطرق أزواجًا (غير مطهرة) ذكرًا وأنثى بلا حرج ولا خجل يتداعبون ويتغازلون. ويجد من رفاقه من يغريه على الرذيلة ويحببها إليه باسم الحرية، فإذا أحجم عيّره بالضعف. فهل يلام أولئك الشبان على السقوط؟ وإنما اللوم على الذين يرسلونهم إلى تلك المدارس. وإذا كان لا بد للحكومة المصرية أو الآباء من إرسال أبنائهم إلى مدارس فرنسا فمن الخطأ إرسالهم إلى باريس وتعريضهم لتلك الأخطار.

على أن هذه الطبقة من النساء ليست كلها من أهل تلك العاصمة فإن فيهن كثيرات من أهل الأرياف الفرنساوية أو من خارج فرنسا. وبعضهن من روسيا وألمانيا وغيرهما. ويندر بينهن القادمة إلى باريس بقصد العهارة، وإنما يفد أكثرهن إليها للارتزاق ببعض المهن فيتعرضن للوقوع في تلك الفخاخ، ويعينهن الفقر على الوقوع فيها لأن البائعة في مخزن أجرتها فرنكان أو ثلاثة في اليوم تنفقها على الطعام واللباس والمنام، يقع نظرها كل يوم على عشرات من شبيهاتها في الخلقة وأقل منها جمالًا وكل منهن قد تأبط زندها شاب كساها أحسن الأقمشة وزينها بأجمل الحلي. فإذا قويت هذه البائعة المسكينة على محاربة الحسد فإنها لا تقوى

على مدافعة من يتعرض لها من أولئك الشبان الذين يغرونها بالمواعيد العريضة، ويتحببون إليها بإطراء جمالها وشكوى الغرام وغير ذلك فتقع في الشراك. ولا يعاشرها ذلك المغرم إلا مدة ثم ينتقل إلى سواها، فتصبح غير قادرة على العمل في مهنتها الأولى ويهون عليها الارتزاق من أمثال ذلك الشاب. واعتبر كيف تكون حالها متى ذهب شبابها وذوى جمالها!

فالعلة الأصلية في شيوع التهتك بباريس إنما هو إطلاق سراح الفتاة ومساواتها للرجل وتكليفها الارتزاق مثله وإباحة الحكومة للفحشاء رسميًّا. وزد على ذلك أن الفتور الديني شائع في فرنسا، حتى أصبح شبانها يعدون العهارة ضربًا من التجارة، ولا فرق عندهم بين الفحشاء والتمتع بسائر ملاذ الحياة كالطعام والشراب والسماع ونحوها. فيغرون المرأة على ذلك فتطيعهم. وليس أقبح من فتور المرأة في الدين لأنها أقرب إلى التقوى من الرجل، وأكثر تعففها من طريق الدين خوف العقاب. وهي دقيقة الإحساس سريعة التأثر، فإذا لم يشتغل قلبها بالتقوى والرهبة من العقاب خيف عليها السقوط، إذ ليس لها ما للرجل من قوة الإرادة. ومع ذلك فإنه أكثر سقوطًا منها، لكن الناس لا يعيبون سقوطه كما يعيبون سقوطها - وذلك من جملة مظالم نظام الاجتماع.

في شوارع باريس ألوف من الفتيات لولا هذه الأسباب، لكن أمهات وربات عائلات يربين أبناءهن، رجال المستقبل، على الفضيلة بدلًا من ضياع شبابهن في الرذيلة ويضيع معهن ألوف من الشبان بلا عقب. لأن هذه الإباحة من أكبر أسباب العقم في فرنسا إذ يمسك الشبان عن الزواج تخلصًا من متاعبه وهمومه واكتفاءً بملاذه الوقتية بثمن قليل لا مسئولية بعدها ولا تعب. فلا نبالغ إذا قلنا أن فرنسا بين يدي خطر اجتماعي يهددها ولا تخرج منه إلا بعد انقلاب عظيم.

بلغ عدد اللقطاء في باريس للعام الماضي ثمانية عشر ألفًا لا يعرفهم آباؤهم فهم من نتاج هذه الرذيلة، من نتاج الإفراط في الحرية والفتور في الدين. إن الجهل والحجاب يضران المرأة ويؤخران الهيئة الاجتماعية عن أسباب المدنية، لكن الحرية الزائدة مع العلم أو بدونه تفسد المجتمع الإنساني وتضر بالعائلة. وحال فرنسا الاجتماعي أكبر شاهد على ذلك، لأن إحصاءها يكاد يكون الآن كما كان منذ أربعين سنة، ولم تبق أمة لم يتضاعف إحصاؤها في أثناء هذه المدة.

خلقت المرأة أمًّا تدبر العائلة وتربي الأولاد. وتعليمها ضروري للقيام بمهمتها الطبيعية في الشئون العائلية. وأما تكليفها بأعمال الرجال فإنه خارج عما خلقت له - إلا إذا اضطرت إليه لأسباب قهرية. ولكننا نرى بعض كبار العلماء يجيزون لها كل عمل يعمله الرجل وأن تتعاطى كل صناعة أو مهنة لأنها مساوية له. وبعضهم ألف كتبًا في هذا الموضوع خلاصتها أن المرأة يجب أن تعمل كل أعمال الرجل من صناعة أو علم أو تجارة أو زراعة بحجة تضاعف الثروة بتكاثر الأيدي في العمل. وهو رأي نظري لا ينطبق على حاجة المجتمع الإنساني. إذا نزل الرجل والمرأة إلى السوق من يربي الأطفال ويدربهم ويعنى بأحوالهم؟ فإن قيل إن المراضع والخدم يفعلون ذلك قلنا إن الطفل لا تربيه إلا أمه. وإذا فرضنا قيام الخدم مقامها فالنفقات التي يستلزمها استخدامهم تستغرق ما تكسبه المرأة بالعمل خارج بيتها.

ومهما بلغ من ارتقاء الجنس البشري في الاستكشاف والاختراع فإنه لا يقوى على قلب نظام - وهذا النظام يقضي على الأم أن تربي طفلها بحيث لا يخرج من دائرة عنايتها. وأن يكون هو أهم مشاغلها مع تدبير بيتها وليس ذلك بالشيء اليسير. إن القيام بشئون العائلة لا يقل أهمية عن أعظم عمل من أعمال الرجال في التجارة أو السياسة أو الصناعة أو غيرها.

الخلاصة

في مدنية فرنسا وغيرها من مدنيات أوربا حسنات كثيرة يجب علينا اقتباسها والاستفادة منها. ولكن فيها سيئات يجب تجنبها والابتعاد عنها. فالحسنات التي يحسن بنا اقتباسها هي:

1- معرفة الواجب.

2- المحافظة على الوقت وصدق المواعيد.

3- تهذيب أخلاق العامة بالتربية الصحيحة.

4- تعليم المرأة وتثقيفها.

5- ترقية التعليم والتوسع في الآداب.

6- العمل والجد.

أما ما يجب علينا تجنبه من أدران تلك المدنية فأهمه:

1- الإفراط في الحرية واستخدامها في غير موضعها.

2- ما يخالف الحشمة الشرقية. على أن نأخذ من العلم والتربية القدر الملائم لعاداتنا.

3- الفتور في الدين والمجاهرة في الكفر؛ فإنه من أسس ذلك الخراب.

وسنتكلم عن متاحف فرنسا وآثارها فيما يلي:

7- آثارها

المراد بالآثار عادة ما يتخلف عن الأمة من الأبنية والتماثيل وغيرها من المصنوعات المحسوسة الدالة على عظمتها أو مهارتها كالآثار المصرية واليونانية والرومانية. ولكن للأمة آثارًا معنوية تتناقلها الأمم عنها وتقلدها فيها فيكون لها أثر حيٌّ في تمدنها ونظام اجتماعها أو علومها وآدابها فيذكرها لها التاريخ. كما نذكر أحرف الهجاء للفينيقيين والأدب والفلسفة لليونان والشريعة للحمورابيين واليهود والقواعد السياسية والحربية للرومان ونهوض أمم الشرق للعرب. فآثار الأمة الفرنساوية معنوية أو محسوسة.

(1) آثار فرنسا المعنوية

فآثار فرنسا المعنوية في هذه المدنية كثيرة منها:

1- الحرية واستقلال الفكر: إن للفرنساويين الفضل الأول في نشر روح الحرية بأوربا وغيرها. وهم قدوة الأمم في بث هذه الروح على أثر نهوضهم لخلع نير الملكية والمناداة بالحرية والإخاء والمساواة.

2- استخدام اللغة الفرنساوية في المخاطبات الرسمية بين الدول المتمدنة، فإنه من آثار نفوذ الدولة الفرنساوية في العالم المتمدن.

3- الألفاظ الفرنساوية السياسية والعلمية والأدبية في لغات أوربا فإنها من أدلة تفوق الفرنساويين في هذه الشؤون واقتباس تلك الأمم عنها.

فضلها على الشرق

لفرنسا فضل خاص على الشرق الأدنى من أوجه كثيرة تظهر آثاره في أخلاق أهله وآدابهم. إذ لم يكن لهم علم بأسباب المدنية الحديثة قبل أواخر القرن الثامن عشر، إذ حمل عليه بونابرت يريد اكتساحه كما اكتسحه الإسكندر قبله. لكنه لم يأته بالعدة والسلاح فقط بل نقل إليه بذور التمدن وأصول المعارف. فأرفق حملته الحربية بحملة علمية جمعت نخبة علماء فرنسا في ذلك الحين. لم يوفق بونابرت في فتوحه الشرقية فعاد على أعقابه، وظلت تلك البذور كامنة حتى نهض من رجال الشرق من أحسن تعهدها وتربيتها فنمت وكان منها ما كان من نهضة مصر والشام. فالسوريون والمصريون والأتراك والفرس لما هموا بهذه المدنية كان معظم تعويلهم في اقتباسها على الأمة الفرنساوية. فتعلموا لغاتها [لغتها] وترجموا علومها وقلدوها بآدابها وعاداتها وأخلاقها - كذلك فعل المصريون على يد محمد علي بأوائل القرن الماضي [التاسع عشر] فإن الإصلاحات التي أحيا بها القطر المصري كان أكثر تعويله فيها على الفرنساويين. استخدم جماعة منهم في التعليم والتنظيم. مثل المسيو جومار المهندس الفرنساوي الذي أرشده في الإرساليات العلمية إلى فرنسا. والدكتور كلوت أنشأ له المدرسة الطبية وسليمان باشا (الجنرال سيف) نظّم له الجندية، ولينان باشا هندس القناطر الخيرية. وهناك عشرات من رجال العلم والأدب الفرنساويين استخدمهم محمد علي في نهضته. ونقل كثيرًا من الكتب الفرنساوية إلى اللغة العربية. واقتبس طرق الفرنساويين في المدارس والجندية وفي الزراعة والصناعة وغيرها.

واقتدى به خلفاؤه على العرش الخديوي، ولا سيما إسماعيل فإنه استخدم كثيرين منهم في الإدارة والتعليم. وأشهرهم ماريت باشا مؤسس المتحف المصري. ولا يزال هذا المتحف في عناية الفرنساويين إلى اليوم.

والفرنساويون أول من أنشأ جريدة بمصر (فرنساوية) وهم أول من أسس

مجمعًا علميًّا فيها (institute) وأول من نقل إليها أدوات الطباعة - نعني المطبعة التي أتى بها بونابرت في حملته وكان يطبع عليها منشوراته وأوامره بالعربية. فلما أراد محمد علي أن ينشئ المطبعة الأهلية كانت تلك المطبعة أساسًا لعمله.

واعتبرْ ذلك أيضًا في سوريا، فإن للفرنساويين شأنًا خاصًّا فيها لأنهم دخلوا في شئونها منذ بضعة قرون، ولا يزال السوريون حتى الآن يقلدون فرنسا في أسباب هذه المدنية وقد نقلوا أهم آدابها إلى العربية. وقلدوا شعراءها وأدباءها، وبعضهم يعرف عن تاريخ آداب اللغة الفرنساوية أكثر مما يعرف عن آداب اللغة العربية - إلا التمثيل فإن مارون النقاش اقتبسه عن الإيطاليان لكن من جاء بعده عول في إتقانه على الفرنساويين.

ولما نهض الأتراك في الآستانة لاقتباس المدنية الحديثة كان أكثر اعتمادهم في نقل الآداب الحديثة على الفرنساويين. فنقلوا عن روسو ومونتسكيو وهوغو وغيرهم. وأكثر الأفكار الحديثة التي اقتبسها الشرقيون في القرن الماضي أخذوها عن الأدباء الفرنساويين.

وهكذا فعل الفرس لما أخذوا في نهضتهم بأواسط القرن الماضي، فإن ناصر الدين شاه أرسل سنة 1854 أربعين شابًّا من أدباء الفرس وأهل العصبية إلى فرنسا لتلقي العلوم كما فعل محمد علي قبله. وعاد هؤلاء إلى بلادهم وعملوا على نشر العلم بإنشاء المدارس على اختلاف مواضيعها. وهكذا فعل أيضًا في تنظيم الجند فإنه نظمه على النمط الفرنساوي وبعث إلى فرنسا 20 ضابطًا تخرجوا فيها على ذلك النظام.

(2) آثار فرنسا البنائية

أما الآثار البنائية في فرنسا فإنها لا يمكن حصرها وإنما تقتصر على ما شاهدناه منها في باريس وليون. وهو كثير يدخل فيه القصور والجسور والميادين والكنائس والمراسح والأضرحة، نكتفي بفذلكة عامة عنها، ونخص بالوصف أهمها (فالكنائس في باريس عديدة تزيد على 70 كنيسة أشهرها نوتردام):

نوتردام

وهي كنيسة قديمة العهد أعيد بناؤها في النصف الثاني من القرن التاسع للميلاد ثم جددت في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، ولم يتم بناؤها إلا في منتصف القرن الثالث عشر مع إضافات وتجديدات لحقت بها بعد ذلك. وأجمل ما فيها من حيث فن البناء واجهتها تم بناؤها سنة 1240.

مساحتها 130 مترًا طولًا في 40 مترًا عرضًا و35 مترًا علوًّا. قبتها قائمة على 75 سارية كبيرة أكثرها مستديرة الشكل رومانية. والمنبر في الصدر قائم على 108 أعمدة صغيرة متقنة الصنعة والنقش. وفي أرض الكنيسة وجوانبها عدد كبير من الأضرحة للمشاهير ولا سيما أساقفة باريس. وأهم ما في هذه الكنيسة مما يهم القراء الاطلاع عليه خزانة تحفها. وهي غرفٌ بنيت سنة 1850 فيها تحف أكثرها حديث ليس له أهمية فنية وإنما أهميتها بانتسابها إلى مهديها. منها كأس مقدس من الذهب أهداه نابوليون الثالث للكنيسة. ومن التحف القديمة صندوق منقوش ينسب للقديس توماس بيكت على طراز القرن 13. ومن الآثار التاريخية الصليب المذهب الذي حمله القديس فنسان دي بول قرب فراش لويس الثالث عشر وهو يحتضر. والرداء الذي اتشح به نابوليون بونابرت عند تتويجه. ولكنيسة نوتردام برج علوه 69 مترًا.

كنيسة لافوفير في ليون

ورأينا في ليون كنيسة قديمة العهد تعرف بكنيسة نوتردام دي فوفير يحج إليها الناس من أطراف العالم المسيحي بأوربا. قائمة على تل علوه 297 مترًا يصعدون إليها بتراموای كهربائي يجر بالأسلاك الغليظة. يرجعون بتاريخ بنائها إلى القرن التاسع. ثم تجددت مرارًا آخرها في أواخر القرن الماضي. وقد احتفظوا بكثير من البناء القديم. طول الكنيسة من الداخل 66 مترًا، في عرض 19 مترًا وإنما استلفت نظرنا ما على جدرانها من الصور الكبيرة المرسومة بالفسيفساء، طول الواحدة بضعة أمتار في مثلها عرضًا مرسومة في الأجيال الوسطى. منها صورة معركة بحرية جرت سنة 1571 في مضيق لبانت قرب كورنثية بين أسطول السلطان سليم الثاني العثماني وأساطيل إسبانيا والبندقية وجنوى ومالطة والبابا بيوس

الخامس. وهي معركة شهيرة في تاريخ الدولة العثمانية انتهت بفشل العثمانيين. كانت العمارة العثمانية مؤلفة من 300 دارعة بقيادة القبودان موذن زاده علي باشا. والعمارة المسيحية مؤلفة من 79 دارعة بقيادة دون جوان دوتريش و12 دارعة للبابا بيوس بقيادة مارك أنطوان كولونا و14 دارعة بقيادة فانيرو البندقي. غير الجند الإسباني. ولما التقى الجيشان في ذلك المضيق تبادلوا [تبادلا] إطلاق المدافع فأصيب القبودان العثماني بقنبلة قتلته ففشل جنده. وتوقف العثمانيون عن مواصلة الفتح غربًا كما توقف العرب عن الإيغال في أوربا بعد واقعة بواتييه التي غلبهم فيها شارل مارتل قبل ذلك بثمانية قرون.

وقد مثل المصور تلك المعركة وفيها سفن الجيشين ومواقعهم [ومواقعها] حتى انتهت باحتراق سفن العثمانيين. وكل ذلك بالفسيفساء الملونة، ولا تزال واضحة مع أنها صنعت منذ نيف وثلاثة قرون.

وهناك صور أخرى مثل هذه تمثل بعض الحوادث الدينية منها وصول القديس بونين إلى ليون. وبعض تلك الصور كاد يمحى من طول الزمن.

قصر الأنفاليد في باريس

وفي باريس من التماثيل أو الأنصاب في الشوارع العمومية عدد كبير ذكرناه في غير هذا المكان. فنكتفي هنا بذكر أهم ضريح يعظمه الفرنساويون ويشاركهم في تعظيمه سائر الأمم، نعني ضريح نابوليون بونابرت في قصر الأنفاليد.

وقصر الأنفاليد بناء فخيم مؤلف من قاعات عديدة بعضها متاحف للأسلحة التاريخية وبعضها لمعروضات أخرى. أهمها القبة التي تتضمن ضريح نابوليون الأول، سنعود إليها بعد الإيجاز في وصف أهم ما يحويه قصر الأنفاليد من الآثار والتحف، وإن كانت هذه من قبيل المتاحف لكننا نذكر هذا على سبيل الاستطراد.

ففي ساحة القصر مدافع تاريخية منها 17 مدفعًا من جزائر الغرب عليها كتابة عربية، إلى أحد جانبيها مدفع صيني وإلى الجانب الآخر مدفع كوشنشيني. غير مدافع نمساوية صبت في فيينا بالقرن السابع عشر حملها نابوليون إلى باريس سنة 1806. ومدفع حمل في معركة سباستبول سنة 1856 وغيرها.

أما القصر فقد بناه لويس الرابع عشر. بدأ به سنة 1671 مساحته 126985 مترًا مربعًا عرض الواجهة 210 أمتار، أنشئ ليقيم فيه المتقاعدون من الجند الفرنساوي يسع 7000جندي. وقد تغير الغرض المراد به ذلك. واستخدموا قاعاته للمتاحف العسكرية منها متحف الطبجية والمتحف التاريخي. وفي متحف الطبجية نحو عشرة آلاف قطعة من البنادق والمدافع القديمة والحديثة مرتبة حسب أنواعها بينها الأعلام والأدراع والخوذ. وفي جملتها أسلحة ألمانية من أوائل القرن السادس عشر. وبين الأعلام علم جان دارك. وفيها أسلحة البوربونيين من لويس الرابع عشر فما بعده، وبينها سيوف فرنسيس الأول وهنري الثاني وشارل التاسع، وغيرهم شيء كثير.

وهناك أسلحة شرقية في قاعة خاصة بخزائن يختص كل منها بأمة من أمم الشرق فيها أمثلة من أسلحتها، مثل ملقا والهند والصين واليابان والبلقان وسركاسيا ومراكش وتركيا من السيوف والبنادق، بينها بندقية أمر نابوليون بصنعها في روتردام على الخصوص لسلطان مراكش. غير كثير من البنادق التركية وبنادق بربرية حملوها من سرقوسة سنة 1808، وبنادق عربية وخناجر فارسية وخزانة خاصة بالأسلحة الإسلامية فيها أدراع عربية على كل منها اسم لله منقوش بالعربية، وقاعات للألبسة الحربية باختلاف الأمم الآسيوية والأفريقية وأصناف الناس، بينها المركبة التي نقلوا عليها عظام نابوليون من جزيرة القديسة هيلانة.

أما المتحف التاريخي ففيه الأسلحة التي لها قيمة تاريخية من جملتها أربعة من سروج المماليك غنمها الفرنساويون في معركة الأهرام سنة 1798. وسيف نابوليون الأول وقبعته وطبنجته وكبوته [معطفه] ودرع له اخترقتها رصاصة في معركة واترلو. وفي قاعات أخرى تذكارات من حروب الجزائر (1830-1857) وحروب القرم سنة 1854 وحرب إيطاليا سنة 1859 والصين سنة 1860 والمكسيك سنة 1862 وحرب فرنسا وبروسيا سنة 1870، كل قاعة لنوع من الآثار، بعضها للثياب والبعض الآخر للأسلحة أو الرسوم أو الحلي غنمتها من حروبها في المستعمرات بالجزائر ومراكش والصحراء والسينغال والسودان ومداغسكر والهند الصينية وتونكين والصين. بينها رايات من واديو ومجوهرات

الحاج عمر من النيجر وسيف مرصع لإمبراطور أنام أخذ منه سنة 1885 وغير ذلك.

ضريح نابوليون في قصر الأنفاليد

هو عبارة عن قبة علوها 107 أمتار تشتمل ضريح نابوليون وكنيسته. والقبة عليها من الخارج نقوش مذهبة يشرف عليها القادم من بعد. إذا دخلتها وجدت في وسطها ضريح نابوليون وبين يديه هيكل الكنيسة. وإلى جانبي الضريح أضرحة جماعة من قواد لويس الرابع عشر. وبين يدي الكنيسة أربعة مذابح مستديرة يدخل إليها من قناطر سفلية صغيرة فيها أضرحة أعضاء أسرة بونابرت. ولا يستطيع الواقف عند ضريح ذلك الرجل العظيم إلا الاعتبار والتأمل في ما أنفقه القوم في تعظيم ضريحه وما نصبوا حوله من الأعلام والتماثيل. إن الدهشة تستولي على المتأمل من ميل البشر إلى تعظيم الفاتحين. لا تقدر وأنت واقف بين يدي ضريح هذا النابغة إلا الصمت والذهول لما يتجلى على المكان من الوقار، كأنك ترى بونابرت واقفًا بين قواده ووزرائه وكلهم مطرقون رهبة وإجلالًا - وقفنا برهة ونحن نراجع تاريخ صاحب هذا الضريح فتبين لنا أنه أكثر القادة طمعًا في السيادة وأقدرهم على القيادة وأشدهم استهواء لرجاله، حتى كانوا يلقون أنفسهم في النار تفانيًا في طاعته ولا يبالون. قضى نابوليون أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر وهو يحارب ويجالد فقلب العروش ودوخ الممالك ونثر التيجان وقتل النفوس. وقد مضى على سقوطه قرن ولا يزال العلماء مختلفين في تقديره، كأن الدهشة لا تزال آخذة بعقولهم. أما الذي نعلمه ولا خلاف فيه فهو أن نحو مليونين من الناس قتلوا في سبيل له أو عليه. وعقب تلك الحمى الاجتماعية ردُّ فعل عاد ببعض النفع للمجتمع البشري لا نظنه يعوض تلك الخسارة.

أما الضريح فإنه قائم تحت منتصف القبة على قاعدة من الرخام في حجرة من الرخام مستديرة كالحفرة قطرها 11 مترًا وعمقها ستة أمتار لا غطاء فوقها. وفي وسط الحجرة قبر نابوليون يحتوي على بقاياه التي نقلت من جزيرة القديسة هيلانة سنة 1840 وقد بني ذلك الضريح من سنة 1842 - [إلى] سنة 1861، وطول القبر من الأعلى أربعة أمتار في عرض مترين وعلوه أربعة أمتار ونصف

متر. وهو مؤلف من خمس قطع من البورفير (الرخام السماقي) من فنلاند وعليه نقوش ورسم التاج وأسماء المواقع الكبرى التي قاتل فيها نابوليون وهي: ريفولي والأهرام ومارنكو واسترليتس وبينا وفريدلاند وواغرام وموسكو. وحول الضريح تماثيل منتصبة عددها 12، ترمز عن [إلى] انتصارات نابوليون الكبرى. وعشر نقوش رخامية وست حزم فيها ستون راية مما اكتسبه من أعدائه. وفي داخل قبة الأنفاليد كثير من تماثيل العظام كالقواد وغيرهم من أصحاب بونابرت.

القصور والمراسح وغيرها

ومن قبيل الآثار في باريس القصور وهي عديدة كقصر الأليزه وقصر اللوفر وسيذكر في الكلام عن المتاحف. وكذلك قصر لوكسمبرج والتروكاديرو والبانتيون وغيرها. ومنها المراسح وهي أربعون مرسحًا وفيها الأوبرا الشهيرة. ومن قبيل الآثار أيضًا منازل العظماء من مشاهيرهم، كمنزل أوغست كُنت الفيلسوف الشهير ومنازل بلزاك وبيفون وكوفيه وهوغو. وفي كل منها آثار صاحبها، من طاولة السرير ومكتب وقلم وكتاب وغير ذلك، ووصف كل منها يستغرق فصلًا خاصًا، وليس ذلك غرضنا هنا. ومنها الميادين أو الساحات العمومية وهي نحو ستين ساحة أشهرها ساحة الأوبرا وساحة الربوبليك ولاكونكورد والتروكاديرو والكوكب وغيرها.

8- متاحفها

المتاحف أو مستودعات التحف والآثار لمنفعة الجمهور من مستحدثات هذا التمدن، اتخذته الأمم الراقية وسيلة لتوسيع معارف الناس وترقية نفوسهم. ولا نظنه بهذا المعنى يتعدى القرن الماضي. على أن الملوك والأمراء كانوا قبل ذلك يختزنون التحف في قصورهم للتفاخر بها. ويعد من هذا القبيل متحف الملك أحشويرش وهيكل أفسس ودلفي وأثينا وقصور البطالسة في الإسكندرية.

متاحف الفاطميين

وكان للعرب حظ وافر من هذه المتاحف لم يقتصروا فيها على جمع التحف الثمينة لكنهم أضافوا إليها كثيرًا من الآثار التاريخية والصناعية. نعني متاحف

الفاطميين بالقاهرة منذ نحو ثمانمائة سنة. وكانوا يسمونها الخزائن كخزانة الجوهر وخزائن الأسلحة والفرش والأمتعة والبنود. وقد يظن لأول وهلة أنها من قبيل مخازن اللوازمات الحربية ونحوها. لكننا عددناها من المتاحف لما كانت تشتمل عليه من التحف التاريخية المنسوبة لأصحابها من الخلفاء أو الأمراء، كالكؤوس البادِزَهر التي عليها اسم هارون الرشيد، وبيت هارون الرشيد الخزّ الأسوَد الذي مات فيه بطوس. وحصير الذهب الذي يُظن أنه جلبت عليه بوران بنت الحسن بن سهل للمأمون، وزنه 18 رطلًا. ورقعة للشطرنج والنرد أحجارها من الجوهر والذهب والفضة. وكان في خزائن الفرش مقطع من الحرير الأزرق التستري القرقوبي غريب الصنعة منسوج بالذهب وسائر ألوان الحرير كان المعز لدين لله أمر بعمله في سنة 353 هـ وفيه صورة أقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها ومسالكها شبه الخريطة. وفيه صورة مكة والمدينة مبينة للناظر، وعلى كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمه بالذهب أو الفضة أو الحرير وكتب في آخره «مما أمر بعمله المعز لدين لله شوقًا إلى حرم الله وإشهارًا لمعالم رسول الله في سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة، والنفقة عليه اثنان وعشرون ألف دينار»، وبيت أرمني أحمر منسوج بالذهب عُمل للمتوكل على الله لا مثيل له ولا قيمة صار إلى تاج الملوك، وصار إليه أيضًا بساط خسرواني دفع إليه فيه ألف دينار فامتنع عن بيعه.

وكان في خزانة السلاح درع المعز لدين لله وسيف الحسين بن علي ودرقة حمزة بن عبد المطلب وسيف جعفر الصادق. وكان عندهم في خزائن أخرى منديل القائم بأمر لله العباسي وغير ذلك. وناهيك بالجواهر والحلي الثمينة مما لم يعهد له مثيل عند غيرهم. هذه كلها ذهبت بالفتن في أثناء الدولة الفاطمية، وما بقي ذهب بذهاب الدولة.

على أن هذه المتاحف كانت مقفلة لا يدخلها غير أصحابها فلا نفع للناس منها وكذلك ما كان من هذا القبيل في الأجيال الوسطى بأوربا. وأقدم من أنشأ المتاحف بأوربا وفيها الآثار الصناعية والعلمية والتاريخية كوسمو الأعظم في فلورنسا بالقرن السادس عشر للميلاد. أي بعد ذهاب الدولة الفاطمية ببضعة قرون يليه متحف البابا ليون العاشر في الفاتيكان في ذلك القرن. والإيطاليان أسبق

دول أوربا إلى هذه المنقبة مثل سبقهم إلى إنشاء المدارس العلمية وهي أيضًا مما اقتبسوه عن العرب، واقتدت بهم سائر أمم أوربا، فأخذ الأمراء والملوك يجمعون التحف والمصنوعات ونحوها في خزائن بلا ترتيب ولا غرض معين غير التفاخر بها. ولم تتحول الغاية من جمعها إلى منفعة الجمهور إلا في القرن الماضي. وفي باريس من هذه المتاحف عدد كبير سنأتي على وصف أهمها وبيان ما شاهدناه فيها مما يهم القراء.

متاحف باريس

في باريس نحو أربعين متحفًا يمكن جمعها تحت عدة رؤوس حسب الغرض منها أو ما تحويه من الآثار أو التحف. منها متاحف عامة فيها كل أنواع التحف من المصنوعات على اختلاف فنونها ومن الآثار التاريخية والفنون الجميلة وغيرها، أهمها متحف اللوفر. ومنها متاحف فنية يراد بها تنشيط الفنون الجميلة كالرسم والحفر والتصوير مثل متحف لوكسنبرج. ومتاحف حربية لعرض الأسلحة ونحوها كالمتحف العسكري في قصر الأنفاليد وقد تقدم ذكره. ومتاحف علمية أو هي معارض لعرض المجاميع الجيولوجية والتشريحية والحيوانية والنباتية ونحوها. ومتاحف دينية يراد بها الاحتفاظ بالآثار الدينية الكنائسية كمتحف جيمي. ومتاحف تاريخية وغيرها. غير المتاحف الخصوصية التي تقدمت الإشارة إليها بين الآثار، مما ينسب إلى أصحابه من المشاهير في منازلهم كمنزل هوغو وأوغست كُنت وغيرهما. ولنبدأ بوصف ما شاهدناه في أهم متاحف باريس.

متحف اللوفر

تاريخه

هو أفخم متاحف باريس وأهمها من حيث بناؤه وما حواه من التحف. ولإنشائه تاريخ يطول بنا إيراده وإنما يقال بالإجمال إن اسمه مشتق من اسم غابة كانت هناك لصيد الذئاب اسمها لوبار واسم الذئب في لسانهم «لوب» فسمي المكان «لوبرا» ثم لوفر. ويقال إن أصل ذلك البناء قلعة بناها فيليب أوغست

في أوائل القرن الثالث عشر في جملة سور باريس. ثم اتخذها شارل الخامس مستودعًا لذخائره وكتبه وجعلها منزلًا لائقًا بالملوك. لكن ذلك البناء لم يبق منه شيء، وإنما بقي ما بناه فرنسوا الأول سنة 1546 واتصل العمل بعده على عهد هنري الثاني (1547-1559) ومن خلفه. وفي جملتهم كاترين مديتشي أرملة هنري المذكور وأولادها وهنري الرابع وغيرهم. ولم يتم بناء هذا القصر إلا في زمن نابوليون الأول فإنه أمر سنة 1805 بترميمه كله وأتم ذلك نابوليون الثالث. فاتسع القصر اتساعًا لا يضاهيه فيه قصر من قصور العالم، فإن مساحته التي عليها البناء نحو 198000 متر مربع أي ثلاثة أضعاف مساحة قصر الفاتيكان. ويقسم إلى قسمين رئيسيين اللوفر القديم واللوفر الحديث، منه جزء تشغله نظارة المالية. وفي ساحة القصر حدائق نصبوا التماثيل في أركانها - فيبدأ الزائر يهتم بذخائر اللوفر قبل دخوله فضلًا عما يشاهده من فخامة البناء وإتقان صنعه.

أما الذخائر والتحف التي يتضمنها ذلك القصر فهي مفرقة في طبقاته حسب أنواعها ومواضيعها. ففي الطبقة الأرضية الآثار الرخامية ونحوها مما يثقل حمله. ومن جملتها الآثار الآسيوية والمصرية ومنحوتات الأجيال الوسطى وأوائل النهضة إلى هذا العصر. وفي الطبقة الأولى فوق الأرضية معارض الصور الزيتية وسائر الفنون الجميلة من منحوتات ومسبوكات ومن سائر المصنوعات الثمينة قديمة وحديثة. وفي الطبقة الثانية معرض التصوير أيضًا ومعرض البحرية. وفي الأجنحة وغيرها معروضات أخرى.

أما تاريخ اتخاذ قصر اللوفر متحفًا فيرجع إلى القرن السادس عشر. بعد نهضة التمدن الحديثة بدأ الملوك بوضع بعض التحف أو المصنوعات الجميلة وأكثرها من إيطاليا. ولكنه لم يجتمع فيه ما يستحق الذكر إلا في زمن نابوليون الأول وقد جاء جنده بالغنائم من إيطاليا وغيرها وفيها الذخائر الكثيرة أضيفت إلى ذلك المتحف. وما زالت تجتمع التحف فيه حتى صار إلى ما هو عليه الآن، ويعد من أعظم متاحف العالم. وهو لسعته لو أراد الإنسان أن يطوف غرفه ماشيًا لاقتضى لذلك ساعتين على الأقل فكيف لدرس ما فيه أو وصفه؟ لذلك فإننا سنقتصر على ما يهم القراء منه.

المنحوتات

في متحف الرخاميات القديمة في الطبقة الأرضية من البناء 3000 قطعة مفرقة في قاعات عديدة، نذكر منها على الخصوص قاعة الآثار الأفريقية وفيها آثار شمالي أفريقيا، مصر وقرطاجة وتونس والجزائر. وقاعة الآثار الرومانية واليونانية على اختلاف الأعصر والمواضيع من تماثيل الأشخاص والوقائع، صناعتها تدهش المتأمل. منها تمثال شاب جالس وهو عار ينزع شوكة من أخمص قدميه، ملامحه واضحة لدرجة غريبة، ومنحوتات تمثل عادات الرومان واليونان، من جملتها رجل عاد من الصيد فنزع رداءه وعلقه على غصن شجرة وعلق صيده بجانبه، وأخذ يلاعب كلابه بأرنب يوهمها أنه يدفعه إليها ثم يرجعه. وتمثال آخر لرجل أخذ يلبس نعاله وهو يشد سيورها. غير عادات الرقص والموسيقى وتماثيل العظماء أو الرموز الدينية أو الميثولوجية، بينها تمثال فينوس ميلو ويعدونه أتقن تماثيل اللوفر، وقد تغزل به الشعراء والكتاب منذ القديم وأعجبوا بإتقان صنعه رغم نقص ذراعيه، وهو تمثال الزهرة حملوه من ميلوس. وفي بعض القاعات تمثال نصفي لإسكندر المكدوني الكبير ورأس هوميروس وتمثال [تماثيل] أبولون وديانا وباخوس ورمز عن التيبر بديع الصنع.

المنحوتات الشرقية

وقسم الآثار الآسيوية منها قاعة لآشور فيها الثوران الآشوريان الضخمان مما ينصبه الآشوريون ببيبان [بأبواب] الهياكل كما ينصب المصريون أبا الهول. والثور الآشوري رأسه رأس إنسان رمز عن العقل وله قوائم الثور وأجنحة النسر دلالة على القوة. وهناك كثير من القراميد الآشورية عليها الكتابة المسمارية باللغة الآشورية.

ومن جملة تلك الآثار أنقاض بلاد السوس، وفي جملتها مسلة حمورابي الشهيرة وعليها شريعته منقوشة بالحرف المسماري. وقد ذكرنا ترجمتها في السنة 13 من الهلال. وهي أقدم ما وصلنا من الشرائع المدونة (نحو سنة 2250 ق.م.) ومسلة نرام سين ملك أكاد (سنة 3750 ق.م.) وعليها صورة ذلك الملك يطارد أعداءه. والملك منيشتوسو ومسلته (نحو 4000 ق.م.) وغير ذلك.

وفي قاعة الآثار الفينيقية عدة نواويس فينيقية من الرخام الأسود والأبيض تشبه النواويس المصرية - بينها ناووس أشموناصر ملك صيدا عليه كتابة فينيقية هي أطول ما وجدوه من الكتابة على النواويس، وقاعة للآثار الفينيقية القبرسية فيها شيء من المصنوعات القديمة كالتماثيل والأعمدة والأقداح. وقاعة الآثار الإسرائيلية، استلفتت انتباهنا فيها على الخصوص مسلة ميشا ملك مؤاب في القرن التاسع قبل الميلاد، وعليها كتابة مؤابية تصف حروب هذا الملك مع اليهود، وهي أقدم الآثار الكتابية الأبجدية التي وقفوا عليها حتى الآن.

وقاعة الآثار المصرية، ويعدّ ما فيها من الآثار المصرية من أهم ما في المتاحف الأوربية من نوعها. في جملتها تمثال أبي الهول عظيم الحجم يستلفت الانتباه عند مدخل القاعة. وهناك ضريح تاهو من صنع العائلة الخامسة والعشرين المصرية، وهو أتقن ما صنع في ذلك العصر. وتمثال سيتي الثاني وسبك حوتب، ومثال (نسخة) لمنطقة الأبراج المصرية التي وجدوها في دندرة. وتمثال رعمسيس الثاني. وقاعة خاصة لمستكشفات ماريت باشا في السرابيوم بمصر وتمثال العجل أبيس.

ومتحف القرون الوسطى وبدء النهضة الأخيرة، فيه من التماثيل والمنحوتات المتقنة ما يدهش المتأمل، أكثرها تماثيل نصرانية. منها قاعة ميشال آنج النحات الإيطالي الشهير بينها تمثال رخامي لأميرين مغلولين يقال لهما العبدان صنعهما ميشال آنج [مايكل أنجلو] في أوائل القرن السادس عشر ليوضعا على ضريح البابا جول الثاني في رومية يريد أن يمثل بهما الفضيلة مقيدة. وتمثال شارل الخامس ملك فرنسا (توفي سنة 1380) وتمثال امرأته جان دي بوربون وغير ذلك من التماثيل المتقنة. وهناك قاعات عديدة للمنحوتات الحديثة يضيق المقام عن ذكرها فضلًا عن وصفها.

معارض الصور

وفي الطبقة الأولى من اللوفر معارض الصور الزيتية وغيـرها مما يستحيل الإفاضة فيه. ولا يقدر الكاتب على وصف مـا فـــي صـــوره مـــن دقـة الـصنع مـــا لم ينقل

الصور نفسها وهي تزيد على 3000 صورة يختلف حجمها من بضعة أمتار طولًا إلى أقل من متر. وكلها لمشاهير المصورين على اختلاف الأعصر والبلاد والأمم. ويعد هذا المعرض أغنى معرض من نوعه في متاحف العالم وأهمها. وفيه طائفة من أتقن ما صوره الإيطاليون والهولنديون والفرنساويون وغيرهم. ومجموعة مدهشة من الصور الزيتية على القماش. ولصور رفائيل مجموعة حسنة مرتبة حسب تدرجه في إتقان هذه الصناعة، وفي جملتها صورة القديس جورجيوس يقتل التنين وصورة الملاك ميخائيل وغيرهما.

ومن صور المصورين الإسبانيين شيء كثير نقلت من إشبيلية ومدريد فيها صورة الطفل مرغريت رسم فيلاسكس. وهناك صور من أحسن ما صنعه الإسبانيون والهولنديون ولا سيما جان فانديك الشهير ورامبران [رامبرانت] وفرنسال. ومن المعروضات الألمانية لهولبين وغيره. وللإنكليز في هذا المعرض 35 صورة بعضها لويلس وكونستابل وبوننتن ورينولد وغيرهم وغير ذلك مما يعجز القلم عن وصفه. ونعترف بعجزنا عن وصف ما ألم بنا من الدهشة عند وقوفنا أمام هذه المصنوعات البديعة. ولم يدهشنا إتقانها أقل مما أدهشتنا كثرتها. فإن قاعة واحدة منها طولها 375 مترًا جدرانها مغطاة بالصور الزيتية المتفاوتة الأقدار والأشكال متزاحمة صفوفًا بعضها فوق بعض. وفي جملة هذه الصور صورة جوكوندة الشهيرة التي سرقت بالأمس [استعادها اللوفر لاحقًا] وشاع أمرها.

وبالإجمال فإن تلك الصور بعضها يمثل المشاهير من الرجال أو النساء. والبعض الآخر يمثل العادات، كمجلس طرب بين أهل القرى في القرن السابع عشر، وولادة أمير، وفتاة عائدة من المدرسة، مأتم دفن، وبيع اللحوم، أو الحوادث التاريخية كموت سنيك، وموت شرويل، وضرب موسى الصخرة بعصاه، والعذارى الثلاث، وصلب المسيح، وتمثيل الفردوس، ومحاكمة دانيال، أو المناظر الطبيعية كتأثير الثلج في الطبيعة، ومقاتلة الذئاب، وأسد هاجم على جواد، وصورة الفجر. أو الميثولوجيا مثل هركيل وفينوس وأدونيس. ومنها صورة طولها عدة أمتار تغطي جدران الغرفة كلها. ومن أسماء المصورين روبن وفراغونار ورينول وماتيه وريغو وروبستي ودلتنيثورتو وجوردانو وشمباني وسنيدر ولارجليار وفان لو وفانديك ورفائيل وواتو وكوربت [كوربيه] وماير وغيرهم كثيرون.

والرسوم التي تمثل العادات الشرقية في هذا المعرض قليلة، منها صورة تمثل استقبال سفير بندقي جاء القاهرة بملابسه الرسمية في القرن السادس عشر رسمها بليني، طولها ثلاثة أمتار بمترين.

وهناك قاعات عديدة كل منها تختص بمصور شهير جمعت مصوراته معًا وتسمى القاعة باسمه، مثل قاعة فانديك وقاعة روبنسن وقاعة فرانس هال وغيرهم، وغير القاعات المنسوبة إلى البلاد كقاعة الإيطاليين وقاعة الهولنديين والفرنساويين. والمراد بها بيان ما تمتاز به كل أمة من التفنن بالتصوير لفائدة طلاب هذه الصناعة من التلاميذ أو الغواة، وللفن الفرنساوي عدة قاعات حسب الأعصر، كل قرن على حدة إلى القرن التاسع عشر.

معارض المصوغات والمجوهرات

وفي هذه الطبقة من اللوفر قاعة كبيرة يسمونها قاعة أبولون هي أجمل قاعات المتحف من حيث بناؤها وزخرفها. وقد وضعوا حول جدرانها أجمل الأثاث من زمن لويس الرابع عشر. وأقاموا في وسطها مواقف أو خزائن (فترينات) وضعوا فيها من المجوهرات والمصوغات أثمن ما في أوربا، منها إبريق من اليشب الأسمر صنع القرن السادس عشر. وإبريق أو مزهرية من اليشب الشرقي عليه ميناء في غاية الجمال، وإبريق من اليشب [نوع من الحجر الكريم]. وفي فترينة أخرى مجموع مصوغات من عصر النهضة الإيطالية وجواهر مصوغة في شكل قبة. وكؤوس من الجماشب عليها ميناء أو بلا ميناء. ومصوغات من صنع فرنسا وإيطاليا. وأدوات من العصر القوطي بينها كؤوس من البلور وأطباق من الذهب منزلة بالميناء صنع البندقية. وعلبة فيها ذراع شارلمان صنع ألمانيا في القرن الثاني عشر. وكأس للقديس لويس، عربي الشكل، عليه نقوش دينية ويعرف بكأس عماد القديس لويس. وغير ذلك من الأدوات المقدسة والكنائسية يطول بنا ذكرها، نكتفي منها بالمجوهرات الملوكية. وأول ما استلفت نظرنا منها ألماسة تسمى «ريجان» هي أجمل ألماسة معروفة وزنها 136 قيراطًا ابتاعها فيليب أورليان سنة 1717، وتقدر قيمتها اليوم بخمسة عشر مليون فرنك، وبجانبها ألماسة تسمى مازارين لونها هورتنسي بينهما ياقوتة كبيرة اسمها «كوت ديبريطاني»، وإلى اليسار

عقد من اللؤلؤ أمامه سيف شارل العاشر مرصع بالجواهر الثمينة على غمده الحرف الأول من اسم نابليون. وهناك مثال لتاج لويس الخامس عشر عليه أمثلة من مجوهراته. وبجانبه تاج نابوليون الأول صنع سنة 1804 تقليدًا لتاج شارلمان، أحجاره قديمة. وبينهما لوح تاريخي لذكرى صلح تيشن سنة 1779 صنع ألمانيا. وأمامه ساعة أمير الجزائر أخذت منه سنة 1830، وبروش لكاترين دي مديتشي من الألماس. وقس على ذلك عشرات من القطع الثمينة المصوغة بالذهب أو الفضة والمرصعة بأنواع الحجارة الكريمة من قديم وحديث صنع فرنسا أو إسبانيا أو غيرهما، من القرن الحادي عشر فما بعده، بينها أوسمة ومداليونات [ميداليات] مختلفة الأشكال.

وبجانبها قاعة اسمها قاعة المصوغات فيها المصوغات القديمة قبل النهضة الأخيرة (أنتيكا)، بينها خوذة غالية من الحديد الموشى بالميناء من زمن الرومان. وعقد أتروسكي وفضيات وجدت في بوسكوريال قرب بمباي هي 24 قطعة من الصناعة اليونانية الإسكندرية، بعضها لا يزال كأنه صنع بالأمس. وعدد كبير من الخواتم اليونانية والرومانية والأقراط الأتروسكية وقطع مصوغة وجدت في أزمير وغير ذلك. وفي قاعة أخرى صورة زيتية كبيرة تمثل بونابرت في زيارته المطعونين [المصابون بالطاعون] بيافا (سوريا).

وهناك قاعة خاصة بمصنوعات قديمة من البرونز وجدوها في أنقاض اليونان وغيرها من الأمم الأوربية القديمة، وقاعات كل منها خاصة بملك من ملوك فرنسا فيها رياشه وأدواته. إحداها للويس الرابع عشر وأخرى للخامس عشر فالسادس عشر، وكل منها تحوي ما يستغرق وصفه عدة صفحات. ومعرض للرسوم فيه 50000 رسم من أقدار مختلفة وضروب متنوعة، وآخر لمصنوعات الأجيال الوسطى، وقاعة لتحف أهداها روتشيلد للوفر تقدر قيمتها بعشرين مليون فرنك وتعرف باسمه.

مصنوعات شرقية

وقاعة خاصة بالقيشاني الشرقي فيها قطع صنع دمشق في القرن السادس عشر، وأخرى من القاهرة، وعلبة عليها نقش باللغة العربية يقرأ «المغيرة»، يظن

أنه ابن عبد الرحمن الناصر صاحب قرطبة نحو سنة 967 م، ومصابيح للمساجد. وكأس عليه اسم المظفر يوسف الأيوبي سلطان حلب سنة 1236-1260م.

ومعرض التحف الآسيوية، منها قاعة السوس وبلاد الكلدان وبابل وفينيقية. أهم ما فيها مسلة فينيقية للإله سلمان، وأخرى آرامية تعرف بمسلة تيماء ببلاد العرب. وأمثلة كثيرة من زجاج فينيقي ومصوغات فارسية قديمة، وعقود من الذهب وقطع نقود وجدت في ضريح من البرونز من القرن الرابع قبل الميلاد. ونقود بيزانتية ومصوغات سلوقية وتماثيل آشورية من عصر سرجون الأول، بينها خريطة مجسمة لنوموليس في بلاد السوس (سوزيانا) مُثلت فيها الأودية والجبال. وقاعة أخرى للتحف الفارسية القديمة وفيها قطع بنائية من زمن أرتاكزرسيس [أرتحششتا]. ومعارض لأدوات الحداد والمآتم المصرية وللآلهة المصرية، يراد بها الميثولوجيا المصرية. ومعارض للصناعة القديمة في ممالك التمدن القديم، ولا سيما بلاد اليونان.

وفي قصر اللوفر جناح خاص بمعروضات الشرق الأقصى مما وهبه الفضلاء لخدمة الجمهور، وكل قاعة باسم مهديها بعضه للصين أو اليابان أو فارس، ولا سيما السوس (سوزيانا) مما يطول بنا شرحه. وشاهدنا عند مدخل اللوفر قاعة فيها قطع من جدران فينيقية مصورة بالفسيفساء عثر عليها رينان سنة 1863 في كنيسة القديس خريستفورس قرب صور (سوريا) عليها رسوم حيوانات من أرانب وطيور وأسود وبقر وأسماك، منها قطعة على الأرض طولها 12 مترًا. ومثلها سبع قطع تختلف حجمًا ورسمًا. وضريح من رخام لكاهن قرطاجي، وقطع عليها نقوش حملت من قرطاجنة وغيرها.

وفي اللوفر من المصنوعات الجميلة المدهشة الأبسطة أو الستائر (غوبلين) المنسوجة بالصور تجلل الجدران من القرن الخامس عشر فما بعده، وهي ثمينة وتمثل صورًا تاريخية.

المكتبة الأهلية

المكتبة الأهلية الفرنساوية من أهم مكاتب العالم. ولا نريد الإفاضة في وصفها هنا وإنما أردنا الإشارة إليها إجمالًا لذكر ما شاهدناه في معرض الأوسمة

بجانبها. بناء المكتبة عظيم فخيم لا يزال العمل جاريًا في توسعته ليشغل نحو 16500 متر مربع. ويقال في تاريخ خزن الكتب فيها إن الكرولنجيين كانوا يعتنون بجمع الكتب الخطية، وكان للويس التاسع المتوفى سنة 1370 مكتبة خصوصية، وكذلك شارل الخامس ولويس الثاني عشر. لكن هذا الأخير يعد مؤسسًا للمكتبة التي نحن في صددها في أوائل القرن السادس عشر. واشتغل خلفاؤه في توسيعها وحشد الكتب وغير الكتب فيها حتى صارت إلى ما هي عليه الآن. وهي أربعة أقسام كبرى: (1) المطبوعات والخرائط، (2) المسودات الخطية، (3) الرسوم، (4) الأوسمة والتحف القديمة. وفيها قاعة للمطالعة واسعة جدًا. ففي قسم الرسوم نحو 2500000 قطعة محفوظة في نحو 14500 مجلد و4000 خريطة. وفي قسم المسودات الخطية 102000 كتاب.

وعلى بعض المسودات العربية في هذه المكتبة صور مرسومة من القرون الوسطى، منها صورة على مسودة قديمة تمثل فرسانًا من العرب على أفراسهم يستخدمون النار اليونانية.

وفي المكتبة معرض للمخطوطات والمطبوعات النادرة، بينها خطوط العلماء المشاهير وتواقيعهم بأيديهم، منهم رابلي وفيلون وراسين وروسو.

معرض الأوسمة

هو من جملة بناية المكتبة وله باب خاص من الخارج. سمي كذلك لما فيه من ضروب الأوسمة والنياشين يزيد عددها على 150000 قطعة، ولكن فيه تحفًا كثيرة هامة بعضها مصري، منها منطقة البروج التي عثروا عليها في دندرة ويرجع تاريخها إلى العصر الروماني. ومنها خزائن فيها تحف ثمينة تاريخية مثل ترس شيبيون بما عليه من النقوش الميثولوجية.

أثران عربيان

وأهم ما شهدناه هناك مما يهم القراء أثران عربيان يتوق كل عربي إلى رؤيتهما.

أولًا: سيف أبي عبد الله محمد بن علي صاحب غرناطة آخر ملوك العرب في الأندلس الذي غلبه الإسبان في أواخر القرن الخامس عشر للميلاد (سنة 897هـ) موضوع في خزانة مع تحف أخرى فوقفنا عنده برهة وراجعنا تاريخ صاحبه وكيف انقضت دولة العرب من أوربا بانقضائه.

ثانيًا: هدية هرون الرشيد لشارلمان ملك فرنسا. من المشهور على أقلام الكتاب نقلًا عن كتبة الإفرنج أن الرشيد أهدى شارلمان المذكور ساعة دقاقة هي أقدم ساعة في أوربا مع هدايا أخرى. ولم نجد ذكرًا لهذه الهدية في كتب العرب القدماء وكنا نتوقع أن نعثر عليها في متاحف أوربا. وقد بحثنا بحثًا دقيقًا في المتاحف التي ترددنا إليها في الصيف الماضي بفرنسا وإنكلترا وسويسرا فلم نقف لهذه الساعة على أثر، ولا ندري إذا كانت موجودة في بعض المتاحف الأخرى.

لكننا عثرنا في متحف الأوسمة الذي نحن في صدده على حجر شطرنج كبير الحجم يمثل فيلًا عليه راكب. وقد عرفوه بأنه بقية قطعة شطرنج أهداها هرون الرشيد إلى شارلمان.

متحف لوكسنبرج

هو متحف في قصر لوكسنبرج [لوكسمبرغ]، والقصر من أفخم قصور باريس بني بأمر ماري دي مديتشي أرملة هنري الرابع في أوائل القرن السابع عشر. واجهته الرئيسية طولها 90 مترًا، وقد رمم مرارًا وخصوصًا سنة 1804 بأمر نابوليون الأول، وجعله مقرًّا لمجلس الشيوخ وجعله غيره لغيرهم لكن نابوليون الثالث أعاده لهم. وأقام في هذا القصر كثيرون من الأمراء والأميرات وخصص جانب منه لعرض التحف الفنية كما عرضت تحف اللوفر، لكن بعض الزائرين يزور القصر لحضور جلسات المجلس بإذن خاص. وفي قاعة الاجتماع 300 كرسي للشيوخ و800 للحضور.

وإنما يهمنا من هذا المتحف ما حواه من المصنوعات الفنية حفرًا أو نحتًا أو تصويرًا. وتقسم تحفه إلى التماثيل والصور. وفيه طائفة حسنة من السجاد أو

الأستار المصورة بالنسيج مما يدهش الناظر. ومن العبث أن نحاول وصف ما هنالك، لأسباب تقدم بيانها، وإنما نكتفي بالإشارة إلى بعض ما يهم القراء معرفة وجوده.

فمن المنحوتات ما يمثل بعض الحوادث التاريخية كتمثيل هاجر وإسماعيل صنع النحات إيزلين كما يتوقع أن يكون حالهما من وصف التوراة لهما. وقتل قايين لأخيه هابيل. وتماثيل عظماء اليونان والرومان وغيرهم. منها تمثال داود النبي عاريًا وفي يده سيف. وقد استوقف خاطرنا تمثال امرأة عربية تطرز على المنسج. ومنها طائفة تمثل الفضائل أو الأخلاق أو العواطف، كالحرية والفرح والتقوى والحنو والحزن والتألم والخوف والسذاجة والمكر والخبث. أو تمثل بعض العادات منها فرس عربي وصاحبه بجانبه. وزنجي سوداني عليه عمامة وشملة، وجهه أسود أما العمامة فمن الرخام المعرق اللون يوهم الناظر أنه قماش منسوج.

وعلى كل تمثال اسم صانعه وفيهم نخبة من النحاتين المعاصرين منهم: مولين وديبوا ومارسيه وكورديه وايزلين ورودين [رودان] ودلابلانش وإدراك ولاكورنيه وبويش وبداسو وهانو وغيرهم.

أما الصور فإنها تشغل عدة قاعات، جدرانها مكسوة بالصور على اختلاف أقدارها، مما يزيد طوله على ستة أمتار إلى أقل من نصف متر. ومن الصور الكبرى صورة في صدر القاعة الأولى تمثل قايين مهاجرًا مع أهله وقد قوضوا خيامهم وساقوا أنعامهم بألوانها وأشكالها. وصورة واقعة تاريخية في مراكش فاز فيها السلطان وساق الأعداء إليه أمواتًا وأحياءً. وصور أيوب يتضرع لله. وصورة أليعازر قائمًا من الموت. وغير ذلك ما يعد بالمئات، وكل صورة يقتضي لوصفها عدة صفحات، وكلها لأشهر المصورين من معظم الأمم، وفي جملتهم ليفي وبوغورو وويرتس وديلوني، وكورمون صاحب صورة قايين وهابيل، وجرفكس وريبو وبونا صاحب صورة داود، وبارياس ورولنسن، وكونستان صاحب صورة موقعة مراكش. وهيبر وجيروم وغيرهم.

أما السجاجيد أو الستائر المعروفة عندهم باسم غـــوبلين فإنــها عـــديدة أكثرها

مبسوط على جدران قاعات المنحوتات، يزيد عددها على بضع عشرة أستار قد رسموا عليها بالنسيج صورًا تاريخية أو مجالس سياسية. في جملتها صورة لويس الرابع عشر في مجلسه ونحو ذلك. وهي من صنع القرون المتأخرة.

متحف كليني

هو في قصر أشبه بالأديار منه بالقصور. بني في الأجيال الأولى للنصرانية. يرجع في أصل بنائه إلى أواخر القرن الثالث للميلاد، ولم يبق من هذا البناء إلا غرف الحمام. ثم صار في القرن الرابع عشر تابعًا لدير كليني فبنى الرهبان على أنقاضه مسكنًا لهم على الطراز القوطي. تم بناؤه سنة 1490 على يد الرئيس جاك دامبواز وقد حافظ على شكله. وسكنته ماري ملكة إنكلترا، ثالثة أزواج لويس الثاني عشر وهي التي تسمى الملكة البيضاء، وغيرها. ولما حدثت الثورة الفرنساوية أصبح البناء ملك الأمة. وفي سنة 1833 جعله العالم الأثري اسكندر سومرار مستودعًا لتحفه، وأكثرها من مصنوعات الأجيال الوسطى وأوائل النهضة، ثم صار بعد موته للحكومة.

والتحف المشار إليها من أجمل المصنوعات القديمة من كل نوع، يزيد عددها على 11000 قطعة، فيها كثير من الأدوات الكنائسية والمنسوجات الدقيقة بينها ضروب من التطريز والتخريم، بعضه يشبه كثيرًا ما يستحدثه أصحاب الأزياء الجديدة في باريس. ولعل هؤلاء قبل أن يستنبطوا زيًّا جديدًا من المنسوجات أو المطرزات يطّلعون على ما في هذا المتحف وأمثاله من الأزياء القديمة ويستخرجون من مجموعها زيًّا جديدًا. ومما شاهدناه من التحف ستارة (غوبلين) عليها صورة أصلها لرفائيل.

وفيه قاعة للقيشاني وأشباهه تدهش المتأمل، أكثر ما فيها من فرنسا وإسبانيا وإيطاليا. وفيها خزائن مملوءة بمصنوعات البندقية من الزجاج والأطباق، عليها رسوم بديعة. رأينا على بعضها صورة شمشون ودليلة. وعلى طبق آخر رسم يونون وإيزيس. وعلى غيره ولادة باخوس. وقيشاني إسباني عربي من القرن الرابع عشر فما بعده، وغيره صنع رودس.

وقاعة الأدوات اليهودية فيها المفروشات والمسودات والنقود والمصوغات. وطائفة حسنة من المصنوعات العاجية والبرونزية. ورأينا من المصوغات تسعة تيجان من الذهب عثروا عليها بين سنة [سنتي] 1858 و1860 قرب طليطلة بإسبانيا، أكبرها مرصع باللؤلؤ والزفير الشرقي وغيرهما من الحجارة الكريمة، مرتبة بشكل حروف إفرنجية ترمز عن [إلى] اسم ركسيفونتس من ملوك الوسيقوط (من سنة 649-672 م). ورقعة شطرنج حجارتها من البلور المعدني صنع ألمانيا في القرن الخامس عشر. وهناك طائفة من أنواع الأسطرلاب والبوصلة والساعات من القرن [القرنين] السادس عشر والسابع عشر.

متحف جريفن

هو متحف خاص من نوعه. فيه تماثيل من الشمع لمشاهير الرجال المعاصرين وغالاهم [وعائلاتهم] بملابسهم وأزيائهم. وقد أتقن صنعها، حتى يصعب على الزائر أن يميز بين التماثيل المنصوبة منها والوقوف من الزائرين. وفي جملة التماثيل المشار إليها طائفة من رجال فرنسا وغيرهم مثل روشفور كوكلين وجول كلارسي وموريس بارس وكليمانسو وغيرهم. بين وقوف على انفراد أو أزواج وجماعات كأنهم يتحدثون أو يلعبون، وقد مثلوا مواقف تاريخية مشهورة مثل عائلة لويس السادس عشر لما بلغها خبر الثورة وقد دخل الغوغاء عليهم. وروبسبير ودانتون وديمولين وبيلي ولافت ولويس السادس عشر في سجنه. ومحكمة الثورة الفرنساوية وفيها القضاة. ومدام رولان ساعة المحاكمة. لا ينقص أحد منها غير النطق والحركة، وميرابو في موقف الخطاب. والقبض على شارلوط كوردي. ونابوليون وجوزفين يسمعان الموسيقى، وهما في موقف آخر مع مداموزيل أوغيه. ولويس نابليون، ومرات [مارا] مع جمهور من السيدات. ونابوليون ساعة موته في جزيرة القديسة هيلانة وغير ذلك. وكل جماعة في غرفة فيها الرياش والألبسة والأدوات كما كانت في وقت الحادثة مما يدهش الناظرين.

وفي الطبقة السفلى أمـكنة كالدهاليز والسراديب مـــثلوا بها أحوال النصرانية في أوائل أحوالها، يوم كـــان المسيحيون يتكتمـــون بـــصلواتهم وطقوسهم، وما كانوا يقاسونه من العذاب والاضطهاد. نقلنا منها صورة مأتـــم والقوم وقوف حول الميت

يصلون عليه ويخافون الخروج به. لا يقدر الزائر لتلك الأماكن إلا التخشع لما يظهر في ملامح أولئك المسيحيين من التقوى والخشوع وصدق الاعتقاد.

ورأينا في جملة التماثيل تمثال جان دارك على جوادها بأسلحتها وبيدها العلم وقد وقف بجانبها حارسان من رجالها. ومجلس البابا بيوس العاشر في كنيسة سكستين وقد جلس على عرشه وبين يديه الكردينالية بين جالس وواقف وجاثٍ. وبالجملة فإن متحف جريفن هذا من مدهشات الصناعة. وهناك متاحف أخرى في باريس يضيق المكان عن ذكرها نشير منها إلى متحف جيمي وهو من المتاحف الدينية وفيه الآثار الدينية على اختلاف أشكالها باختلاف الأمم القديمة والحديثة.

9- متاحفها في ضواحي باريس

فرسايل [فرساي]

هي بلدة على نحو 20 كيلومترًا من باريس فيها قصر لويس الرابع عشر ومن خَلَفه من ملوك فرنسا. سكانها نحو 50000 نفس وفيها الشوارع المنتظمة والساحات الفسيحة والقصور الفخيمة. وقد بنيت في الأصل على بقعة رملية لا ماء فيها، وإنما رغب لويس المذكور في بنائها لصفاء جوها ونقاوة هوائها. فأنفق في إنشاء قصره وجَلْب الماء إليها مالًا طائلًا. وأحصوا عدد الذين اشتغلوا في ذلك فبلغوا 36000 رجل و6000 حصان. وبلغت النفقة عليها في أيام لويس الرابع عشر ما يقدر الآن بنحو خمسمئة مليون فرنك. غير الذين سخّروا في العمل بلا أجرة. ولعل هذا الملك السعيد اقتدى بما فعله عبد الرحمن الناصر صاحب قرطبة ببناء الزهراء، أو المنصور بن أبي عامر ببناء الزاهرة، أو ابن الأحمر ببناء الحمراء في غرناطة. وتقدر نفقات الزهراء بنحو 50000000 دينار أي نحو ما أنفقه لويس هذا على قصره في فرسايل. ولكن عدد المشتغلين في بناء الزهراء كانوا 100000 و1500 دابة. على أن الزهراء أمحت الآن وعفت آثارها. وأما فرسايل فلا تزال باقية والفرنساويون يبالغون بالاحتفاظ بها.

واتخذ لويس المذكور فرسايل مسكنًا له سنة 1682 ومنها كان يصدر الأوامر لحكومته أو جنده. وفيها تزوج مدام دي منتنون سنة 1684 بعد وفاة ماري تريز، وصارت فرسايل بعد ذلك مقرًّا لملوك فرنسا، وفيها عقدت أكثر الاجتماعات السياسية الهامة في أثناء القرنين الماضيين قبل الثورة وبعدها وتقلبت على أحوال عسر ويسر. وفيها أُمضيت معاهدة سنة 1783 بين فرنسا وإنكلترا على أثر استقلال أمريكا. وفيها نزل وليم الأول إمبراطور ألمانيا من 5 أكتوبر سنة 1770 إلى 6 مارس [آذار] سنة 1871 بعد تغلبه على الفرنساويين، وتُوِّج فيها إمبراطورًا على الألمان.

متحف فرسايل

هو في قصر فرسايل مسكن لويس الرابع عشر نفسه. والقصر وحده، بما يكتنفه من الحوادث التاريخية، يعد من أهم التحف، ولبنائه تاريخ طويل. وهو كالبلد الكبير بما فيه من القاعات والغرف والدهاليز والأروقة والمراسح والمجالس. يسع نحو عشرة آلاف نفس. طول واجهته الكبرى 580 مترًا فيها 375 نافذة. تم بناء القصر في القرن السابع عشر بما فيه من الرياش الفاخر والتحف التاريخية أو الصناعية. وأنشأوا بين يديه الحدائق التي تأخذ بالأبصار، بما فيها من البرك والأشجار والغياض والبساتين. فلما كانت الثورة الفرنساوية بيع الرياش ونقل ما كان هناك من الصور الجميلة إلى اللوفر. لكن لويس فيليب أعاد إلى فرسايل رونقها، فجعل قصرها هذا متحفًا جمع فيه أهم مفاخر الفرنساويين التاريخية والفنية سماه «المتحف الوطني» ويعرف أيضًا بمتحف فرسايل.

ويقسم هذا المتحف إلى قسمين كبيرين (1) قاعات لويس الرابع عشر وأهله وخلفائه، فهي كالمتحف بإتقان صنعها وما على جدرانها وسقوفها من النقوش البديعة. (2) المتحف التاريخي الذي أنشأه لويس فيليب وفيه عدد عظيم من الصور والتماثيل أكثرها متوسط القيمة من حيث الصناعة. لكنه أراد أن يمثل بها تاريخ فرنسا بحسب أطواره، ورتب ذلك في قاعات عديدة لا يكاد يجد الزائر وقتًا كافيًا للمرور فيها فضلًا عن درسها، فنكتفي بالإشارة إلى أهم ما فيها.

ففي الجناح الشمالي مــن القــصر كنيــسة كــان يصــلي فــيها أهــل ذلك القصر

متقنة النقش والوضع، عليها كثير من النقوش الرخامية المذهبة والصور الدينية. منها صورة القيامة في وسط القبة. وعلى كل من المذابح صورة. وقاعات الصور التاريخية تقسم بحسب العصور أو الأدوار، منها قاعات تاريخ فرنسا من كلوفيس إلى لويس السادس عشر، فيها صورة زيتية كبيرة تمثل أهم حوادث التاريخ في تلك المدن لأشهر المصورين مثل دلاروش وروجيه وشيفر وغيرهم. وقاعات الحروب الصليبية تمتاز بإتقان جدرانها وما عليها من النقوش مع شارات قواد تلك الحروب (الآرمات)، فضلًا عن الصور الكبرى التي تمثل الحوادث التاريخية الهامة، بينها صورة تتويج إمبراطور القسطنطينية سنة 1204م وأخرى تمثل واقعة عسقلان سنة 1177م بين الإفرنج والمسلمين. وصورة معركة طولوسة بإسبانيا بين الإفرنج والعرب سنة 1212م. وصورة طواف الصليبيين حول أورشليم سنة 1099م. وفي إحدى هذه القاعات باب على النمط القوطي من مصنوعات فرسان رودس أهداه السلطان محمود الثاني لفرنسا سنة 1836م. ومن الصور التاريخية هناك صورة حصار رودس سنة 1480م، وأخذ القسطنطينية سنة 1204م نقلًا عن صورة في اللوفر. وصورة فتح القدس سنة 1099 وقطع الصليبيين البوسفور سنة 1097 وهم زاحفون على الشرق لفتح بيت المقدس، وقاعات خاصة بصور تاريخية من سنة 1794-1830بينها صورة نابوليون الأول مجروحًا في راتسبون سنة 1809. وصور أخرى عديدة يضيق المقام عن ذكرها.

وفي قاعات الحوادث التاريخية العصرية في القرن التاسع عشر عدة صور تهمّ قراء العربية على الخصوص، لأنها شرقية تمثل وقائع الفرنساويين مع العرب في الجزائر تحت قيادة الأمير عبد القادر المشهور، فإنه حاربهم أعوامًا طويلة حتى كادوا ييأسون من قهره ثم فقوا [وفقوا إلى] ذلك بالاستيلاء على «الزملة» وهي بلد نقّال فيه ما يحتاج إليه الجند من الصنّاع والعمال والخفر، وفيها أهله وأعوانه وأمواله وخزائنه ومؤونته. والزملة عبارة عن خيام تحمل على الجمال في الصحراء ويحمل معها كل ما يحتاج إليه القوم من المؤونة والذخيرة، فإذا أرادوا النزول نصبوا الخيام بترتيب معين فيعرف كل واحد خيمته وعمله. وقد عمد الأمير عبد القادر إلى اختراع هذه الزملة في أواخر حربه مع الفرنساويين بعد أن أصبحت بلاد الجزائر تتقد بالحروب فلم يعد يأمن الإقامة في مكان.

فلما تعبت فرنسا من مناهضته أغرت صاحب مراكش على معاضدتها. وعلم عبد القادر في أواخر سنة 1847 بقدوم المراكشيين لغزو زملته ولم يكن فيها أكثر من خمسة آلاف والمراكشيون يزيدون على خمسين ألفًا. فخاف الأمير على رجاله وإن لم يعرف الخوف قبلًا. فعادت إليه نخوته فهجم ليلًا بذلك الجيش القليل وفرق شمل المراكشيين، ثم عادوا فاجتمعوا ثانية فهاجموه فطاردهم وظهر عليهم لكنه خسر جانبًا من رجاله فرأى الانسحاب أفضل له، فرجع إلى الجزائر فوصل مكانًا علم بعد وصوله إليه أن الجيش الفرنساوي على مسافة ثلاث ساعات منه، ورأى أن جيشه قد أنهكه السفر والحرب فخشي أن يقع هو وزملته في أيدي الفرنساويين لأنه لا يستطيع الرجوع والمراكشيون من ورائه يطاردونه - ولكنه عاد فرأى أن يبذل قصارى جهده فجمع إليه رجاله وخطب فيهم مفصحًا عما هم فيه من الضيق وقال «أراكم قد وفيتم بما بايعتموني عليه وبذلتم جهدكم في معاضدتي. وأما الحالة الراهنة فتقتضي علينا بالتسليم للعدو، وعندي أن التسليم للفرنساويين خير من التسليم للمراكشيين، فما رأيكم؟».

فأجابوه أنهم على رأيه فنظر إليهم، فإذا هم عدة من أحسن الرجال وأشدهم وقد رافقوه في حروبه خمس عشرة سنة فشق عليه أن ينتهي جهاده بهذا التسليم للعدو، ولكنه أذعن لحكم الضرورة قسرًا وهو غير خائب، لأنه جاهد الجهاد الحسن أكثر من 15 سنة حتى نفدت الحيلة.

وعلى ذلك تم التسليم، لكن المصور تصوّر هجوم الفرنساويين على الزملة وعبد القادر غائب، فمثل ذلك أحسن تمثيل في صورة طولها عدة أمتار شاهدناها في إحدى الغرف [غرف] قاعات متحف فرسايل، ووقفنا عندها ساعة نتأمل ما تولى رجال عبد القادر من الذعر لما رأوا خيول الأعداء تكاد تأخذهم، فبرزت النساء من الخيام مذعورات وأخذ الخدم في مساعدتهن في ركوب الجمال التماسًا للفرار. وهرب بعض الأتباع، وفيهم اليهود أصحاب خزينة عبد القادر. ونَفَرَ ما كان معهم من الحيوانات الأهلية وبينها الغزلان [التي] طلبت البرّية. وبان الرعب في كل حي وظهر الاضطراب في كل شيء، فقلبت الخيام وأجفلت الجمال وذعر الأطفال وبكت النساء مما يستوقف البصر.

وفي تلك القاعة صـــورة نافرة تمـــثل نابـــوليون وقد أطلق ســـراح عـــبد القادر في

أمبواز سنة 1852. وصور زيتية لحصار قسنطينة سنة 1837، وصورة أخرى لمعرض في المكسيك سنة 1838، وصور عديدة لوقائع حربية في القرم سنة 1854، من جملتها أخذُ ملاكوف ومعركة ألما ومعركة سلفرينو وغيرها، وكلها كبيرة الحجم.

والقسم الأوسط من القصر تُسمى قاعاته بأسماء آلهة اليونان كالزهرة والمريخ وأبولون وغيرها. فيها صور زيتية وستائر مصورة نسجًا مما يسمى (غوبلين)، أكثرها يمثل حوادث تاريخية فرنساوية، من جملتها ستارة تمثل الكونت فوانت في حضرة لويس الرابع عشر، باسم ملك إسبانيا. وأخرى تمثل اجتماع لويس المذكور وفيليب الرابع ملك الإسبان. وأخرى لزواج لويس الرابع عشر بماري تريز وغير ذلك. ومنها قاعة السلم، جدرانها مبطنة بالرخام وعليها أمثلة من الأوسمة البرونزية. وقاعة الزجاج طولها 72 مترًا وعرضها عشرة أمتار وعلوها 13 مترًا مزخرفة زخرفة باهرة. لها واجهة من زجاج تطل على حديقة فرسايل وعلى جدرانها صور عديدة تاريخية لأزمنة مختلفة يطول بنا شرحها. وهناك غرف مختلفة لجلوس الملك أو طعامه، وعلى جدرانها صور بينها تمثل وقائع «دون كي شوت». وهناك ساعة رقاصة كبرى تدل على الساعات والأيام والأشهر، ومنها غرفة الرقاد للويس الرابع عشر بفراشه وخزانته وكراسيه وسائر ما يلزم. وفيها مات سنة 1715 بعد أن حكم 72 سنة.

وقاعات الملكة مصورة الجدران وفيها كانت تنام الملكة ماري تريز حتى توفيت سنة 1683. وماري لزبنسكي ثم ماري أنطوانيت وفيها صورة هذه الملكة وعدة ستائر (غوبلين). ومنها قاعة خاصة باستقبال الأعيان كانت الملكة تستقبلهم فيها بأوقات معينة، وعلى جدرانها ستائر إحداها تمثل زيارة لويس الرابع عشر لمعمل هذه الستائر وقاعة عرس الملكة وقاعات أخرى لمدام دي منتنون وغيرها.

وفي الجناح الجنوبي من القصر قاعات عديدة للصور التاريخية، منها قاعة المعارك فيها صور أشهر المعارك الكبرى، في جملتها معركة تورس بين العرب بقيادة عبد الرحمن الغافقي والإفرنج بقيادة شارل مارتل سنة 732م، وهي التي فاز بها الفرنساويون وردوا العرب عن أوربا.

وصورة شارلمان في بادربون يستقبل وفود ويتيكند يقدمون الطاعة سنة 785م. وصور أخرى تمثل الكونت أندس يدفع النورمنديين عن باريس سنة 885م. ومعركة بوفين سنة 1214 ووصول هنري الرابع إلى باريس سنة 1594. ومعركة ريفولي سنة 1797. وواقعة أوسترليتس سنة 1805، ويانا [إيينا] سنة 1806، وواغرام سنة 1809. وجملة ما في هذه القاعة 34 صورة و50 تمثالًا نصفيًّا لكبار الملوك والأمراء.

وفي الطبقة العليا من هذا الجناح قاعات عديدة، بعضها خاص بالثورة الفرنساوية، فيها صور أهم حوادثها وأشهر رجالها. مثل الاحتفال بالإخاء الوطني سنة 1790، وصور مدام رولان وماري أنطوانت [أنطوانيت] في الهيكل، ومقتل مرات، وتمثال نصفي لميرابو خطيب تلك الثورة، وتمثالا لافيت [لافاييت] ولويس 17. وهناك قاعة خاصة لتصوير أعمال نابوليون الأول وحوادث عائلته ومشاهير الأمة في عهده. منها صورة تمثل قواد الحملة المصرية صورت سنة 1799، وغير ذلك شيء كثير يختص بنابوليون وحوادثه المدهشة في بيته وفي جيشه وأسفاره وحروبه وأولاده. وفي قاعات القسم الأوسط من هذا القصر شيء كثير من الرسوم لتمثيل الحوادث التي جرت لفرنسا في القرن الثامن عشر، في جملتها صورة كبيرة تمثل وصول سفير عثماني اسمه محمد أفندي إلى قصر التويلري سنة 1721، وصورة أخرى لوصول سعيد باشا سفير الباب العالي سنة 1742. وبينها غرف لنوم ولي العهد وأمه وغيرهما من أهل البلاط.

تريانون

وفي فرسايل غير هذا القصر قصران يعرف كل منهما باسم تريانون، أحدهما الأكبر والآخر الأصغر كان يتردد إليهما لويس الرابع عشر مع بعض العائلات أو الأعوان، وهما متقنا البناء وفيهما تحف تاريخية أو فنية، ففي الكبير منهما تحف من الرياش الثمين النادر. ومن جملة ذلك كؤوس من الوهج (الملكيت) أهداها القيصر إسكندر الأول إمبراطور روسيا إلى نابوليون الأول. وفي التريانون الكبير أيضًا معرض المركبات، فيه ثماني مركبات، إحداها لنابوليون الأول ركبها لما تعين قنصلًا أول، وأخرى ركبها يوم زواجه، ومركبة قلدوا بها مركبة شارل العاشر، وغيرها.

وفي فرسايل حدائق غناء جرّوا إليها الماء في بحيرات مديّرة بأنابيب، إذا فتحت تفجر الماء من أفواهها وصعد في الهواء على أشكال مختلفة وارتفاعات متفاوتة. وهم يحتفلون بفتحها في أوقات معينة من النهار يشهد الناس منظرها مما يشرح الصدر وينزه الخاطر، وقد يجتمع الألوف وعشرات الألوف في بعض الأيام لهذه الغاية.

قصر مالميزون

وعلى عشرة كيلومترات من باريس قصر مالميزون في ضاحية من أجمل ضواحي باريس، فيها الحدائق والغياض على أجمل أسلوب. واشتهر هذا القصر بجوزفين امرأة نابوليون لأنها اعتزلت فيه بعد طلاقها سنة 1809 إلى وفاتها سنة 1814. امتلكته ماري كريستين سنة 1842-1861، وأقامت فيه الإمبراطورة أوجيني زوجة نابوليون الثالث ردحًا من الزمن. وفي سنة 1900 اشتراه داود أوزيريس المثري الفرنساوي الشهير (توفي سنة 1907) وأهداه للأمة مع ما يحيط به من البساتين.

ليس أدعى إلى التهيب والاعتبار بمصير الإنسان من زيارة هذا القصر ومشاهدة ما لا يزال فيه من الرياش والأدوات كما كان في زمن تلك الإمبراطورة السيئة الحظ زوجة أعظم القواد وأطمح طلاب المجد. فإنك تسمع من السكينة السائدة هناك نداء يخترق الأسماع ويستولي على القلوب «إن الإنسان مهما بلغ من جبرأوته [جبروته] وعظمته لا يبقى له غير أعماله ولا يذكر له منها إلا ما أفاد به بني نوعه». مررنا في غرف ذلك القصر الفخيم لا نسمع فيه غير وقع أقدامنا وكل منا مطرق يتأمل. مررنا بقاعة الاستقبال فقاعة الطعام فغرف النوم والكتابة والبلياردو والموسيقى، وشاهدنا الخزائن والمقاعد والستائر والأرائك والمناضد. وعلى جدران القصر الصور الزيتية تمثل المشاهد الجميلة والحوادث الهامة - جيء بها إلى ذلك القصر خدمة لأهله ولكنهم ذهبوا وبقيت هي.

شاهدنا طاولة نابوليون التي كان يكتب عليها بيده وخزانة الكتب التي كان يرجع إلى كتبها عند التحقيق. والقلم الذي كان يقبض عليه بأنامله. وفي قاعة البلياردو صُوَر في جملتها صور حملها بونابرت من مصر سنة 1799، منها صورة

تمثل بعض المشائخ بألبستهم العربية المصرية جاءوا لمقابلة بونابرت، وعدة سجاجيد جميلة.

وفي القاعة التي كانت الإمبراطورة جوزفين تستقبل فيها الزائرين سجادة ثمينة. وفي غرفة الموسيقى آلات موسيقية كانت تستخدمها الإمبراطورة لترويح النفس، وطاولة كان يلعب عليها بونابرت. وقس على ذلك سائر ما هنالك من الأثاث والأدوات والصور، منها صورة أم نابوليون ومنسج جوزفين وأدوات نابوليون وتمثاله وهو صغير. وعلبة شغل لجوزفين هدية من مدينة باريس. وسرير سفر لنابوليون وسرير جوزفين مجلل بالأطلس وصورتها سنة وفاتها. وعلى أكثر الكراسي الحرف الأول من اسمها «J» وخزانة فيها مظلاتها ونعالها وجزادينها.

لا تقدر وأنت تنظر إلى تلك البقايا الا أن تتصور نابوليون واقفًا أو جالسًا هنا وهناك وجوزفين وما يخطر لها في عزلتها.

السوريون في باريس

ونختم وصف باريس ومتاحفها وأحوالها بما شاهدناه فيها من تقدم السوريين في التجارة والأدب والفنون الجميلة. لقينا فيها عشرات من أصحاب المتاجر وقد جاروا الفرنساويين بالتجارة ولهم منزلة رفيعة بين علية القوم وأحرزوا ثقة أصحاب المعامل والمصارف. ولأكثرهم معاملات واسعة مع الشرق والغرب وأكثر اشتغالهم مع سوريا وأمريكا الشمالية والجنوبية يبعثون إليها السلع من مصنوعات باريس على اختلاف أصنافها. فمن البيوت التجارية السورية في باريس محلات رحيم وبو شديد وشحادة وسليمان ودقرت وشقير وبركة وداود وجاسر إخوان ودوماني ومانوك وقزّي وبيجاني وشحيري وزوين ويانسوني وحوس (فرع لمحل صيدناوي) وغيرها من البيوت التي تتعاطى أصناف التجارة. وقد اختص بعضهم بتجارة المجوهرات أشهرهم كساب ونصبة وأبو حمد، وبالعطريات محل بشارة ملحمة وله شهرة واسعة في فرنسا وإنكلترا بما يصطنعه من العطريات المعروفة باسمه، وقد نال جوائز السبق في المعارض الصناعية. وعرفنا من الماليين الكونت قريصاتي مدير البنك الفرنساوي المصري في باريس وهو من البنوك الكبرى وله

فرع في مصر. وقس على ذلك مما يدل على اقتدار الشرقي على مجاراة الغربي إذا تساوت الأسباب والوسائل.

مما يوجب الفخر أيضًا أننا عرفنا في باريس نفسها غير واحد من الأدباء السوريين يجارون أدباء فرنسا في آداب لسانهم، يكتبون في أكبر جرائدهم السياسية في أهم المواضيع الحيوية، أو يؤلفون الكتب وينظمون الشعر بالفرنساوية بما لا يقل عما يفعله أدباء فرنسا أنفسهم. منهم شكري غانم ناظم رواية «عنترة» وقد قبل تمثيلها في الأوبرا الفرنساوية. وخير الله خير الله صاحب كتاب «سوريا» [وهو] يكتب المقالات السياسية في جريدة «الطان» الشهيرة. والدكتور جورج سمنة له مجلة علمية تصدر بالفرنساوية بباريس اسمها Correspondances d'Orient، وميشيل بيطار مترجم رواية «العباسة أخت الرشيد». وهناك طبقة من أصحاب الفنون الجميلة يشتغلون للإفرنج أنفسهم. منهم موريس نجار يؤلف القطع الموسيقية للأجواق الفرنساوية التمثيلية وهو يرتزق هناك بهذه المهنة. ووديع صبرا من أصحاب المواهب الموسيقية وقد عرفه الباريسيون. وفيليب موراني مصور فني يشتغل بالتصوير في باريس. وغير هؤلاء من الأدباء وأصحاب الفنون الجميلة. وقد اقتصرنا على الشرقيين المشتغلين بالفرنساوية للفرنساويين في باريس. ونعرف طائفة من المشتغلين بهذه اللغة وآدابها بمصر والشام سنعود إلى ذكرهم في فرصة أخرى. وقد يكون هناك كثيرون لم نطلع على آثارهم أو لم تبلغنا أخبارهم. وإنما أردنا تقرير حقيقة يسرّ تقريرها كل شرقي، نعني «أن الشرقيين إذا توفرت لهم الأسباب جاروا أرقى الأمم المتمدنية».

ثانيًا - إنكلترا

1- نظام حكومتها

إن نظام الحكومة الإنكليزية من النوع الملكي المقيد، وإنكلترا من أعرق الأمم في الدستور وهي أم الحكومات الدستورية، يرجع الحكم فيها إلى رأي الأمة فلا تسن الحكومة قانونًا أو تنفذ رأيًا إلا بعد موافقة الأمة عليه. وينوب عن الأمة مجلسان يباحثان الحكومة ويجادلانها أو يقترحان عليها، هما: مجلس الأعيان ومجلس العموم ويعبر عنهما بالبرلمان، تأسسا في أوائل القرن الرابع عشر. ويلتئم البرلمان بإيعاز الملك بعد إشارة المجلس الخصوصي قبل وقت اجتماعه بخمسة وثلاثين يومًا على الأقل. وجرت العادة أن يوالي اجتماعه بين فبراير [شباط] وأغسطس [آب] من كل سنة للنظر فيما يعرض عليه من الشئون. وبعد المباحثات والاقتراحات يصدر قراراته بأغلبية الأصوات.

يتألف مجلس الأعيان من الأشراف ويبلغ عدد أعضائه نحو 650 عضوًا وتنال عضويته إما بحق الإرث أو باقتراح الملك أو باستحقاق المنصب كالأساقفة ونحوهم أو بالانتخاب. ويتألف مجلس العموم من أعضاء ينتخبهم عامة الشعب لينوبوا عنهم، وفيهم من ينوب عن المقاطعات أو المدن أو المراكز أو نحوها من إنكلترا وسكوتلاندا وأيرلاندا. ويشترط في المنتخب أن يكون بالغًا رشده وأن يكون اسمه مقيدًا في سجل المنتخبين. وللحكومة شروط في نيل حق الانتخاب لا محل لها هنا. ويبلغ عدد المنتخبين نحو سدس الأهلين، ثلاثة أرباعهم من إنكلترا والباقون من سكوتلاندا وايرلاندا. وانتخاب أعضاء البرلمان سري ولا ينتخب عضو لم يتجاوز سنه 21 سنة، ولا يجوز انتخاب أحد من الأشراف لعضوية مجلس العموم.

والقوة التنفيذية في الدولة الإنكليزية في قبضة الوزارة أو مجلس الوزراء لكنها تصدر باسم جلالة الملك. على أن هذا المجلس يتوقف تعيينه على مجلس العموم فهو يعين رئيس الوزارة بأكثرية الأصوات وهذا يشكل الوزارة. ولذلك كانت الحكومة في أيدي الشعب. ومجلس الوزراء أو النظار عندهم مؤلف من 18 وزيرًا، كل منهم يتولى رئاسة دائرة من دوائر الحكومة وهي ثماني عشرة دائرة أو وزارة: الخزينة والعدلية والختم الخاص والخارجية والهند والداخلية والمالية والمستعمرات والحربية البحرية وايرلاندا والتجارة والمحلية والمعارف وسكوتلاندا والزراعة والأسماك والبريد ولانكستر، على كلٍّ منها رئيس.

2- عظمتها وعمرانها

إن المملكة الإنكليزية بما يلحقها من المستعمرات أعظم الممالك المتمدنة وأكثرها سكانًا وأوسعها ثروة. وهي تتألف من بريطانيا العظمى وتشتمل على إنكلترا وويلس [ويلز] وسكوتلاندا وأيرلاندا. ومن مستعمراتها الكثيرة في القارات الخمس. فمساحة بريطانيا121391 ميلًا مربعًا وعدد سكانها نحو 45000000 نفس. وأما المستعمرات فإنها أوسع من ذلك كثيرًا تقدر مساحتها بأضعاف مساحة بريطانيا. فهي تزيد على 11559000 ميل مربع وعدد سكانها يزيد على ستة أضعاف سكان بريطانيا أي نحو 300000000 نفس تتفرق على هذه الصورة:

مستعمراتها	مساحتها بالأميال [المربعة]	عدد سكانها
في أوربا	119	213615
في آسيا	1637215	238664609
في أفريقيا	2880311	43467615
في أمريكا	3865265	7426463
في أوستراليا	3176022	5120996
(المجموع)	11558932	294893298

وتناهز ميزانية الحكومة الإنكليزية الآن نحو 200 مليون جنيه تجمع من الضرائب المختلفة وتنفق في مصالح الحكومة والجندية والديون وغيرها.

ثروة الأمة الإنكليزية

وإذا نظرنا إلى ثروة الأمة الإنكليزية رأينا ما يدهش العقل. وقد عقد أحد الباحثين فصلًا إضافيًّا في مجلة القرن التاسع عشر الإنكليزية في هذا الموضوع: خلاصته أن تجارة بريطانيا الخارجية بلغت في العام الماضي نحو 1800000000 جنيه أكثرها حمل في البحار. وأن ثروة الأمة الإنكليزية نحو 25000000000 جنيه. ودخلها في السنة نحو 3300000000 جنيه. وما من دولة تداني الأمة الإنكليزية في الثروة. والمشهور أن الأمة الفرنساوية تدانيها أو تفوقها. ولكن كاتب المقالة المتقدم ذكرها يجعل ثروة فرنسا نصف ثروة إنكلترا أي نحو 12000000000 جنيه ويقول إن أقرب الأمم ثروة إلى الإنكليز الولايات المتحدة الأمريكية فإنه يقدر ثروتها بنحو 21000000000 جنيه.

وأكثر ثروة الأمة الإنكليزية في بريطانيا يليها الهند وكندا وأوستراليا على هذه النسبة:

	ثروة الأمة	دخلها
إنكلترا وويلس [ويلز]	13716779000	1740000000
سكوتلاندا	1451625000	173500000
ايرلاندا	714279000	103000000
الهند	3600000000	608000000
كندا	2072000000	259000000
أوستراليا	1312000000	164000000
جنوب أفريقيا	600000000	75000000
نيوزيلاند	320000000	40000000
الحمايات وغيرها	1200000000	170000000
الجملة	24986683000	3332500900

وقابل الكاتب بين دخل الأمة الإنكليزية وما تنفقه في الدفاع عن حوزتها، فبلغ نحو ثلاثة جنيهات عن كل مئة جنيه من الدخل أي 102000000 جنيه.

ويهمنا من هذه المملكة الواسعة في هذا المقام لندن العاصمة، لأننا درسناها أكثر من سواها وفيها المتاحف والآثار، سنصفها مع بعض البلاد الأخرى فيما يلي:

3- حالتها العلمية

التعليم في إنكلترا ثلاث درجات: الابتدائي والثانوي والعالي، فنقتصر هنا على وصف التعليم العالي في الكليات والجامعات. وأقدم هذه المعاهد العلمية بني خارج لندن. وأقدم جامعات لندن أنشئت سنة 1836 وظلت هذه وحيدة في لندن إلى أوائل القرن الحاضر فأنشئ سواها كما ستراه. وأما خارج لندن فيرجع تاريخ بعض الكليات إلى الأجيال الوسطى. وأرقاها جميعًا جامعتا أكسفورد وكمبردج، وسنعود إليهما عند وصف هذين البلدين من رحلتنا. أما سائر الجامعات والكليات في بريطانيا فأقدمها أنشئ في سكوتلاندا في القرن الخامس عشر. وهذا جدول بأسماء جامعات بريطانيا وكلياتها حسب سني إنشائها:

اسم الجامعة	مقرها	سنة تأسيسها
جامعة سنت أندرو	سكوتلاندا	1411
جامعة كلاسغو	سكوتلاندا	1450
جامعة أبردين	سكوتلاندا	1494
جامعة أيدنبرج	سكوتلاندا	1582
جامعة دبلن	ايرلاندا	1591
جامعة درهام	إنكلترا	1831
جامعة لندن	لندن	1836
جامعة فكتوريا	لندن	1880

يتبع

تابع

جامعة برمنهام [برمنغهام]	برمنهام	1900
جامعة ليفربول	ليفربول	1903
جامعة ويلس	ويلس	1903
جامعة ليدس	ليدس [ليدز]	1904
كلية جامعة لندن	لندن	1905
جامعة شفيلد	شفيلد	1905
جامعة برستول	برستول	1909
جامعة ايرلاندا الوطنية	دبلن	1909
جامعة بلفاست	ايرلاندا	1909

وهناك جامعات وكليات أخرى في سائر مدائن إنكلترا الكبرى مثل منشستر وغيرها. وأكثر الجامعات مؤلف من كليات تختلف عددًا باختلاف أهميتها. ففي جامعة لندن 24كلية وفي جامعة أكسفورد 22 كلية وفي كمبردج 17 كلية وتختلف أيضًا في عدد الأساتذة والتلاميذ. ولكن، يقال على الإجمال إن الأساتذة في تلك الجامعات يتجاوزون بضعة آلاف والتلامذة يعدون بعشرات الألوف. ولأكثر هذه الجامعات أوقاف متوارثة ينفق من ريعها على التعليم، وفيها المعامل الكيماوية والبكتريولوجية والمعارض التشريحية والجيولوجية والنباتية والحيوانية وغيرها. أما المدارس الابتدائية والثانوية فيضيق المقام عن وصفها.

ومعظم هذه المدارس تنفق الحكومة عليها، على أن جمعيات التعليم كثيرة في إنكلترا مما أنشئ لتهذيب الناشئة من الفقراء: منها جمعية في لندن تسمى «لله وللوطن» أنشئت منذ 47 سنة لجمع اللقطاء والمتشردين من الذكور والإناث وتعليمهم وتربيتهم وتثقيف عقولهم، وهي تجمع الإعانات من أموال المحسنين، وقد بلغ المال الذي جمعته إلى الآن نحو 4000000 جنيه، منها 235000 جنيه جمعت في السنة الماضية. وبلغ عدد الذين آوتهم من الأطفال والمساكين في السنة المذكورة 9049 غلامًا وهي تعتني بهؤلاء المساكين وتعلمهم الصنائع وتبعث بهم

إلى المستعمرات ولا سيما كندا. وتشترط في قبول المعوزين أن يكونوا مقطوعين لا نصير لهم. ولا يقبل منهم إلا ما بين الطفولة إلى السن 14، ولها بضعة عشر مركزًا في لندن والولايات المتحدة. ورئيسها اسمه الدكتور برناردو.

وللإنكليز فضل كبير على العلم الحديث ولا سيما بما يتعلق بالاختراعات المحسوسة التي توقف عليها تسهيل المواصلات وتقريب المسافات كالسكك الحديدية والآلات البخارية وكثير من الصنائع الحديثة كالنسيج والغزل والخياطة. ومنهم شارل داروين صاحب مذهب النشوء والارتقاء وشكسبير مؤسس نهضة الأدب العصري وولتر سكوت وملتن، غير أصحاب الاكتشافات العلمية في الطب والكيمياء والطبيعيات وعلم الحياة والاجتماع ومنهم ليستر وجنر وهكسلي وسبنسر، غير رجال السياسة والإدارة أصحاب الأدمغة الكبيرة.

ومن قبيل الحالة العلمية تكاثر المكاتب وغرف المطالعة وهي عديدة. وكذلك الصحافة، فإن في لندن وضواحيها نحو 400 صحيفة بعضها يطبع مئات الألوف من النسخ كل يوم - غير المراسح للتمثيل والمعارض العلمية والجمعيات العلمية والأدبية والأكاديميات وغير ذلك مما يطول شرحه.

في إنكلترا اليوم حركة فكرية وإقدام على الكتابة والتأليف في المواضيع المختلفة، وقد أحصى بعضهم أشهر الكتاب الإنكليز المعاصرين ورتبهم حسب المواضيع وخلاصة ذلك كما يأتي:

عدد الكتّاب	عدد الكتّاب
125 في الأدب	35 في التاريخ الديني
172 في التراجم والمذكرات	52 في تاريخ إنكلترا
57 في الدين	40 في التاريخ الحديث
89 في التمثيل	120 في سائر التواريخ
16 في انتقاد التمثيل	120 في كتّاب الصحف
35 في الاقتصاد السياسي	60 في القضاء

يتبع

تابع

60 في التهذيب	150 في اللغة الإنكليزية وآدابها
55 في الآثار القديمة	200 في سائر اللغات
25 في هندسة البناء	20 في الموسيقى
55 في الفنون الجميلة	45 في الفلسفة
570 في الفكاهات والروايات	180 في الشعر
48 في السياسة	49 في علم العمران
38 في الطب	50 في الصيد وتوابعه
49 في التاريخ الطبيعي	140 في اللاهوت
15 في الرياضيات	145 في السياحات ونحوها
12 في الجيولوجيا	
3027 (الجملة)	

لندن

هي عاصمة المملكة الإنكليزية طولها 14 ميلًا ومتوسط عرضها نحو عشرة أميال ومساحتها بالتقريب نحو 130 ميلًا مربعًا. فيها 8000 شارع إذا اتصلت حتى يتألف منها شارع واحد كان طوله 3000 ميل. وأحصوا أبنيتها بنحو 650000 بناء، منها 1500كنيسة و6500 محل عمومي و1700 ناد و500 أوتيل [فندق]. وهي أكثر مدائن العالم سكانًا. يقدر سكانها بنحو 6000000 نفس أكثرهم من الإنكليز طبعًا. لكن فيها جماعات كبيرة من الأمم الأخرى. حتى قالوا إن فيها من السكوتلانديين أكثر مما في أبردين ومن الإيرلنديين أكثر مما في دبلن. وفيها من اليهود أكثر مما في فلسطين. ومن الكاثوليك أكثر مما في رومية. وسنعود إلى وصف المتاحف والتحف ونكتفي هنا بذكر الفروق بين لندن وباريس:

الفرق بين لندن وباريس

(1) إنهما توأمان في الفخامة والعظمة ولكن لندن أوسع مساحة وأضخم

أبنية وأظلم جوًّا. وأما باريس فإنها أجمل منظرًا وأكثر زهوًا وأشرق سماءً وأصفى هواءً.

(2) ليس في لندن أماكن للجلوس في سبيل اللهو أو الراحة كالقهوات والبارات التي ذكرناها في باريس. فالغريب إذا احتاج إلى الراحة في غير المنازل ليس له إلا المقاعد في الحدائق العمومية أو يمر بالشوارع للفرجة. وفي لندن حانات كثيرة لأنواع الخمور وحوانيت لشرب الشاي أو القهوة أو غيرهما من المرطبات أو المخدرات، لكنها كالمخازن التجارية تطلب ما تريده وتتناوله وتنصرف كما تفعل لو أردت تناول الطعام في مطعم. وليس عندهم مجالس للتسلية إلى موائد كما في القاهرة مثلًا. والقاهرة من حيث القهوات وأماكن اللهو كثيرة الشبه بباريس. على أن بعضهم أنشأوا في لندن أماكن من هذا القبيل تشبه ما في باريس لكنها قليلة وليست على قوارع الطرق.

(3) إن الماشي في شوارع باريس إذا اقتضى أن يوسع لمقبل عليه خوفًا من التصادم تحول نحو اليمين كما يفعل أهل القاهرة. فالمركبات والدواب والناس يتحولون في شوارع باريس إلى يمينهم أما في لندن فبعكس ذلك. لأن المارة في شوارعها إذا تلاقوا تحول كل منهم إلى يساره. وقد نبهوا الناس إلى ذلك بألواح كتبوا عليها قولهم «إلى اليسار» فإذا تلاقى اثنان وتحول كل منهما إلى يمينه لا يتصادمان وكذلك إذا تحولا إلى اليسار. أما إذا تحول أحدهما إلى يمينه والآخر إلى يساره فإنهما يتصادمان. ولذلك فالفرنساوي والإنكليزي إذا تلاقيا ومشى كل منهما على ما تعوده في بلده لا بد من تصادمهما!

(4) ليس في لندن أماكن عمومية للفحشاء كما في باريس لأن الحكومة الإنكليزية تحظر على الناس الاتجار بها، خلافًا لمعظم حكومات أوربا. وقد أحسنت إنكلترا، ويا حبذا لو اقتدت مصر بها في ذلك فأخذته عنها كما أخذت غيره من أسباب المدنية - ولكن مصر أباحت إنشاء تلك الأماكن اقتداء بفرنسا وغيرها من الدول التي تبيحه، وقد أخطأت كما بيَّنا ذلك في الهلال.

(5) إن هيبة التدين ظاهرة في لندن أكثر مما في باريس ولا سيما في أيام الآحاد. فإن تلك المدينة الضخمة التي تعج أسواقها بالناس عجيجًا في أثناء

الأسبوع وقد بسطت فيها البضائع وعرضت السلع على قوارع الطرق، تصبح في يوم الأحد خالية خاوية لا تجد فيها بائعًا ولا شاريًا ولا صانعًا ولا عاملًا. وإنما يخرج الناس بعد الصلاة للنزهة في الحدائق العمومية أو غيرها في لندن وضواحيها. وهكذا تفعل سائر مدن إنكلترا وقراها، حتى السكك الحديدية فإن حركتها تخف في أيام الآحاد والأعياد. فالإنكليز من أكثر أمم أوربا تدينًا وقد نفعهم ذلك في كثير من أحوالهم الاجتماعية.

(6) إن عادة البخشيش شائعة في لندن لكنها أقل كثيرًا مما في باريس لقلة القهوات والملاهي كما قدمنا.

(7) لا تجد في الشوارع العمومية من بنات الرصيف ما تجده في باريس.

وسنعود إلى لندن عند الكلام عن المتاحف والآثار.

4- نظام الاجتماع فيها

نظام الاجتماع في إنكلترا يشبه على إجماله نظام سائر الممالك الأوربية من حيث العائلة والحكومة والمدرسة والكنيسة. لكنه يمتاز في إنكلترا بخصائص لا يخلو ذكرها من فائدة. هاك أهمها:

(1) طبقات الأمة

لا يخفى أن إنكلترا أم الحكومات الدستورية وأقدم من اعترف بحقوق العامة، ومع ذلك فالأمة عندهم مؤلفة من طبقتين متباينتين لا تختلط إحداهما بالأخرى - نعني الخاصة والعامة، أو الشرفاء والعمال، والأعيان والعموم. وذلك من بقايا القرون الوسطى التي كان فيها اللورد صاحب الأرض وله السيادة هو وأهله على بلده، وسائر الناس أعوان له أو عمال في مزارعه. وكان ذلك شأن أكثر أمم أوربا في عصر الإقطاع. لكن أكثرهم عدلوا عنه وساووا بين طبقات الأمة في الحقوق والواجبات، إلا الإنكليز فلا يزال لأهل السيادات القديمة حقوق يمتازون بها عن سواهم في بعض الأحوال السياسية والاقتصادية. ولكل من هاتين الطبقتين شأن خاص مستقل عن شأن الطبقة الأخرى. ونواب الأمة طبقتان في مجلسين،

مجلس الأعيان ومجلس العموم. وقد ترى مثل هذين المجلسين في بعض الأمم الأخرى لكنه عند الإنكليز مبني على تسلسل الأرستقراطية من الأجيال الوسطى. ولا يزال كثير من الأرضين ملكًا للشرفاء يتوارثونها ولا يبيعونها بيعًا قاطعًا، وإنما يبيعون مرافقها إلى أجل معين. والغالب أن يبيعك الشريف الأرض [لـ] تملكها إلى 999 سنة فتدفع له ثمنها أو حق صيرورتها إليك بعد تلك المدة. ويبقى له عليك مال يتقاضاه كل سنة يتم الاتفاق عليه يسمونه في اصطلاحهم (chief) وقد يحتالون في تمليك الأرض حيلة شرعية فيتفق الشاري والبائع على مبلغ يدفعه الشاري مرة واحدة بدل الأقساط السنوية نحو ما تفعل الحكومة المصرية في استبدال معاش المستخدمين. فإذا دفع الشاري ذلك المال صار مالكًا للارض. عرفنا صديقًا لنا في منشستر ابتاع منزلًا من أحد الشرفاء بألفي جنيه دفعها معجلًا وبقي عليه الأقساط (التشيف) نحو مائة جنيه يدفعها كل سنة. وأخبرنا أنه ينوي أن يستبدل الأقساط بألفي جنيه أخرى فيصير المنزل ملكًا له.

فالإنكليز عندهم الحرية والإخاء وليس عندهم المساواة. على أنهم عاملون على نزع تلك الامتيازات من الشرفاء. وقد أفلحوا في كثير من مطالبهم لكن المساواة الكلية يبطئ الوصول إليها لتأصل الأرستوقراطية في نفوس القوم من أجيال متوالية، حتى تراها في كثير من آدابهم الاجتماعية. ومن آثارها المحسوسة أنه ليس في قطر [قطارات] السكك الحديدية درجة وسطى بين الأعيان والعموم. فالقطار عندهم فيه عربات من الدرجة الأولى وعربات من الدرجة الثالثة. ولا تجد درجة ثانية في قطرهم إلا ما يتصل منها بالقطر الفرنساوي وغيرها على الحدود.

(2) ضرائب الدخل

لا تخلو دولة من ضرائب تضربها على رعاياها تسد بها نفقات رعايتهم والقيام على حراستهم أو القضاء بينهم. لكن الإنكليز يزيدون على ذلك نوعًا من الضرائب اقتضاه تفاوت الثروة في طبقات الأمة. فجعلوا مقدار الضريبة بنسبة تلك الثروة، ويعولون في تقديرها على الدخل لا على رأس المال. فيفرضون على الغني أو التاجر مبلغًا من دخله السنوي يسمونه ضريبة الدخل. أصلها إعانة فرضتها الحكومة على الأمة للاستعانة بها على محاربة الفرنساويين سنة

1512 فقرر البرلمان يومئذ أن يدفع العامة 3⁄15 من دخلهم تلك السنة، والكهنة الخُمس. وفي سنة 1798 زادوها لمثل ذلك السبب. وما زالوا يزيدون الضرائب وينوعونها ويعدلونها حتى بلغت ما هي عليه الآن. وهي تختلف حسب السنين ولكنها نحو خمسة في المئة من الدخل أو شلين في الجنيه. ولا يدفع هذه الضريبة إلا الذي يبلغ دخله 160 جنيهًا في السنة فما فوق. ولهم شروط لمن يزيد دخله على ذلك إلى 700 جنيه. فهؤلاء يعفونهم من بعض الضريبة. أما من زاد دخله على 700 جنيه فيدفع الضريبة كاملة. وقد بلغ دخل الحكومة من هذه الضريبة نحو 32000000 جنيه في السنة. غير ضرائب الجمارك وعوائد الروحيات وسائر المسكرات والمخدرات. وغير حق الرخص والإذن في معاطاة المهن على اختلاف أشكالها.

(3) العامة والعناية بهم

للعامة في إنكلترا مشاكل من اعتصاب وإضراب كما في فرنسا، لكن للإنكليز عناية خاصة بهم ولا سيما طبقات العمال والخدم. لعل ذلك من بقايا واجبات الأرستوقراطية في العهد القديم. لأن رب البلد (اللورد) كان يرى نفسه مسئولًا عن حال أتباعه من حيث أسباب معائشهم. ولو تتبعت تاريخ وضع ضرائب الدخل المتقدم ذكرها لرأيتها تنوعت وتعدلت طبقًا لمصلحة العمال أو الفقراء من أصحاب التجارات الصغرى. كانت في أول وضعها شاملة كل إنكليزي مهما قلَّ دخله. ثم أخذوا يعدلونها حتى أعفوا منها أصحاب الدخل القليل الذي لا يزيد على 160 جنيه [جنيهًا]. وخففوها عن الذين لا يزيد دخلهم على 700 جنيه. وأبقوها على سائر الناس كما رأيت. ولا يخفى أن الأموال التي تجمع من الضرائب تنفق في مرافق الأمة بلا تمييز بين الغني والفقير - أو هي لمصلحة الفقير أكثر مما لمصلحة الغني. وهي عناية بالعامة كالزكاة في صدر الإسلام تؤخذ من الأغنياء وتنفق في الفقراء.

والحكومة الإنكليزية تعد نفسها وصية على الفقراء من رعاياها فتضع القوانين لمصلحتهم وتجبرهم على اتباعها. أو هي تتولى تنفيذها عليهم - لعلها تتقي اعتصابهم أو إضرابهم. من ذلك قانون صدر في الصيف الماضي، ونحن في

إنكلترا، وضعته لمنفعة الخدم وصغار المستخدمين اسمه National lnsurance Act في 140 صفحة كبيرة. مآله ضمان مستقبل كل مستخدم في المملكة الإنكليزية سنه بين 16 و70 سنة يقل دخله السنوي عن 160 جنيهًا. وكل عامل يشتغل بيده لحساب نفسه ولو زاد دخله عن 160 جنيهًا في السنة. فتفرض على كلّ من هؤلاء أن يختزن من دخله مالًا يعينه في شيخوخته أو مرضه - جعلت ذلك إجباريًّا لا يرى العامل مفرًّا منه بوجه من الوجوه. وهو يشمل الممثلين في المراسح وأساتذة المدارس الصغرى والثانوية وكتاب المصارف والمتاجر وخدام المنازل وعمال المعامل، وفيهم أصحاب العاهات البدنية وساقة المركبات والنوتية وغيرهم، وكل عامل له رئيس يدفع له أجرة.

وكيفية ذلك الضمان أن الحكومة طبعت أوراقًا كالسراكي [الصكوك] أو الاستمارات في اصطلاحنا تفرقها في العمال. وعلى العامل أن يقدم واحدة منها كل أسبوع وعليها طوابع مختومة يشترك هو ورئيسه والحكومة في دفع قيمتها. وتختلف تلك القيمة باختلاف راتب العامل. فالرجل الذي تزيد أجرته على شلينين ونصف شلين في اليوم يدفع هو أربعة بنسات في الأسبوع ورئيسه يدفع ثلاثة بنسات والحكومة تدفع بنسين. الجملة تسع بنسات (نحو ثلاثة غروش ونصف) تلصق بقيمتها طوابع على الاستمارة وتختم وتقدم للحكومة كل أسبوع. وإذا كان العامل صاحب هذه الأجرة امرأة تعامل مثل معاملة الرجل إلا [أن] ما تدفعه هي فيكون ثلاثة بنسات بدلًا من أربعة ويختلف مقدار المدفوع باختلاف درجة العامل ومقدار أجرته.

والحكومة تحفظ للعامل ما يقدمه كل أسبوع وتختزنه لحسابه وقد تستثمره له فيضمن مستقبله رغم إرادته. ومعظم هذا الضمان من رئيسه والحكومة، وهي لا تضرها لكن تنفع العامل المسكين. وفي ذلك القانون شروط وأحكام تفصيلية لا محل لها. لكنها بلا شك من أحسن ما استنبطته القرائح لمصلحة العمال وضمان مستقبلهم على نفقة الحكومة وأصحاب الأموال. فضلًا عما فيها من المشقة على أصحاب التجارات أو المعامل، فإن كل واحد منهم مكلف بالتوقيع على السراكي أو الاستمارات بيده كل أسبوع، وقد يكون عنده مئة عامل أو ألف.

5- أخلاق الإنكليز

(1) الثبات والتعويل على الحقيقة

للإنكليز أخلاق بارزة واضحة تختلف عما لسواهم من الأمم يمكن تلخيصها بكلمتين، نعني: (1) «أنهم يجنحون في أعمالهم وشؤونهم إلى الحقيقة المحسوسة دون الظواهر»، (2) «أنهم ثابتون في مبادئهم وعاداتهم ومشاريعهم». فإذا عرفت ذلك فيهم هان عليك تعليل أكثر ما يعرض لك من أخلاقهم. والإنكليزي هادئ الخلق يندر أن تتغلب عليه الحدة حتى تخرجه عن طور إرادته، ولذلك تجدهم يبحثون في أهم المسائل وأحرج المشاكل ويتجادلون ويتناقشون بهدوء وسكينة. ويغلب في أدلتهم أن تبنى على العقل أكثر مما على العواطف. ويظهر لك الإنكليزي جامدًا وقد ترى في نفسك تفوقًا عليه بسرعة الخاطر، لكنك عند العمل تجده أثبت منك قدمًا وأصبر على التعب وأقدر على المشاريع الكبرى. وترى فيه سكوتًا وطول أناة في موقف يستفز سواه ويهيج غضبه، وليس ذلك من بلادة في طبعه وإنما هو من قبيل ثباته في أعماله وتعويله على الحقائق فلا يكترث بالصغائر بل يجعل همه الغرض الذي يسعى إليه، لا يبالي بما يقف في طريقه من العقبات، ولا سيما إذا كانت تلك العقبات أمورًا وهمية، كالكلام في الصحف ونحوها، إذا لم يكن مبنيًا على حقائق محسوسة - فهو يهمه أن يصل حماره إلى العباسية ولا يلتفت إلى شقشقة المكاري في أثناء الطريق.

(2) الكبرياء والأنانية

ومن الأخلاق المشهورة عن الإنكليز أنهم متكبرون يترفعون عن مخالطة سواهم من الأمم. وهي تهمة لا تخلو من الحقيقة. إن الإنكليزي معجب بنفسه يفتخر بدولته وأمته، وينفرد عن سائر الأمم فلا يزاوجهم أو يختلط بهم إلا بما تقتضيه المصلحة التجارية أو السياسية. ولا عجب فإننا في عصر الأنجلوسكسون كما كان العرب في إبان دولتهم والرومان قبلهم. ولكل أمة عصر إذا تفوقت فيه على سواها توهمت امتيازها الفطري عليهم بالجبلة الأصلية - وهي طبعًا لا تنال ذلك التفوق إلا لمواهب فيها تمتاز بها عن سواها.

ومما يوجه إلى الإنكليز من الانتقاد أنهم أنانيون يحبون الاستئثار بالمنافع لأنفسهم، وهو خلق فطري في الإنسان لا يختص بأمة دون أخرى، لكنه يظهر في الإنكليزي لأنه لا يبالي أن يظهره ويتمسك به. ولا يهمه ما يسميه الآخرون أريحية أو نجدة ويعدونها من أسمى المناقب، فهو لا يعرض نفسه للخسارة لمنفعة سواه، كما يفعل الفرنساويون مثلًا أو كما يفعل العرب ويعدونه من مفاخرهم. ولذلك كان العرب أسرع اختلاطًا بالفرنساويين مما بالإنكليز.

ومن مقتضيات الجنوح إلى الحقائق أن الإنكليزي صريح في أقواله وأعماله لا يقول غير ما يعتقده ولو ساءك قوله، فيظهر ذلك منه مظهر الجفاء. ولكنه يعد المجاملة ضربًا من العبث، فلا يزال يتجنبك حتى يتعرفك ويثق بك، فيمد لك يده ويصافحك ويكون عند ذلك من أخلص الأصدقاء وأظرف الجلساء.

(3) التربية الأدبية والعقلية

ومن مقتضيات ذلك الخلق أيضًا ما تراه من ثبات الإنكليز في أفضل وسائل التربية البدنية والعقلية، ولا سيما الرياضة وهم قدوة الأمم فيها. وقد ألف ديمولان الكاتب الفرنساوي كتابه «سر تقدُّم الإنكليز»، ليحرض قومه على الاقتداء بهم في التربية والأخلاق والتعليم وغير ذلك. واختص غوستاف لابون [لوبون] أخلاق الإنكليز بالإطراء في كتابه «العوامل الأخلاقية في تكوّن الأمم»، فالإنكليزي رأى بعين الحقيقة أن هذا الضرب من التربية مفيد له فاتبعه ووضع له قواعد أساسها الفائدة الحقيقية بلا زخرف ولا تنميق. وزادهم ثباتًا فيها أنهم فطروا على احترام آراء رجال التاريخ وأصحاب المواهب منهم والعمل بها بلا جدال أو نقد - لعله من بقايا خضوعهم للشرفاء في عصر الإقطاع. ولهذه المنقبة فضل كبير في جمع كلمتهم وتأييد مساعيهم، لأن الأمة إذا عملت برأي عقلائها كانت كلها عقلاء، بخلاف الأمم التي يزعم كل من أفرادها أنه صاحب الرأي الأصوب والنفوذ الأعلى، ويرى الانصياع لرأي سواه صغارًا ومذلة، كما هو شأن الأمم الضعيفة التي صارت إلى الشيخوخة وآذن الزمان بفساد أمورها وانقضائها.

(4) الصدق والوفاء

المشهور أن الإنكليزي على الإجمال بطيء الخاطر غير مفرط الذكاء، لكنه ناجح على الغالب في أعماله ومشاريعه، فما هي علة نجاحه؟ العلة الحقيقية أنهم يعملون بالقواعد التي قرر عقلاؤهم أنها وسيلة النجاح وقد رسخت في أذهانهم بالتربية للأسباب التي قدمناها، وهي تعلمهم أن التاجر أو الصانع يجب أن يعول في أعماله على الحقائق مع المنفعة المتبادلة. فجعلوا معوّلهم على الصدق والأمانة والثبات، وهي أهم أسباب نجاحهم في أعمالهم الكبرى والصغرى، وقد اشتهر ذلك عنهم حتى جرى مجرى الأمثال. والمشهور بين تجار الأرض أن الإنكليزي إذا سألته عن سعر بضاعته أعطاك آخر سعر يوافقه، ولا يفتح بابًا للأخذ والرد أو المساومة كما تفعل سائر الأمم.

(5) المحافظة على التقاليد

قد رأيت الأمة الإنكليزية لا تزال حتى الآن محافظة على الأرستوقراطية رغم أعرافها في الدستورية - حتى الدستور عندها لا يزال محفوظًا بالتقليد، أي إنهم لم يدونوا قواعده وشروطه بما يسميه العثمانيون القانون الأساسي أو نحوه. وإنما يجرون به على التقاليد الماضية، فيحكمون في شئونه بالقياس على أحكام سابقة أصدرها أسلافهم مع مراعاة مقتضيات الأحوال. وإذا عرضت مسألة لم يسبق الحكم فيها حكموا فيها وعدّوا حكمهم سابقة لمن يأتي بعدهم.

فالإنكليز من أكثر الأمم محافظة على التقاليد المتوارثة، وذلك من قبيل الثبات في أخلاقهم. ولهذا السبب كانوا من أشد الناس احترامًا لرجال التاريخ منهم ينصبون لهم التماثيل ويعملون بأقوالهم. ولنفس هذا السبب جروا في استعمارهم على احترام تقاليد الأمم التي تدخل في سلطانهم أو حمايتهم. فلا يتعرضون لهم في شيء من أديانهم أو عاداتهم، بل يساعدونهم على القيام بشعائرهم الدينية أو الوطنية. ولذلك كان الشرقيون أكثر ارتياحًا إلى سيادتهم مما إلى سواها لولا ترفعهم وبعدهم عن المجاملة.

(6) التدين والنظام

ومن قبيل الثبات والمحافظة على التقاليد أنهم متمسكون بعقائدهم الدينية. ورغم تطرف أكثر الأمم من جيرانهم وزملائهم في الحرية الدينية حتى جاهروا بمناوأة رجال الكهنوت ومطاردة الجمعيات الدينية، فالإنكليز ما زالوا متمسكين بأهداب الدين يحافظون على طقوسه وتعاليمه ولا سيما الراحة يوم الأحد، فقد ذكرنا كيف يقفلون الحوانيت والمخازن وغيرها في أيام الآحاد والأعياد.

ومن هذا القبيل أيضًا خضوعهم للنظام وتقديسه والإذعان له باحترام وافتخار لا يستنكف من ذلك كبيرهم ولا صغيرهم. ولا يرى الملك بأسًا أن يعترف بالخطأ بين يدي أصغر رعاياه ولا يعد ذلك حطّة، وإنما هو من نتاج جنوحهم إلى الحقيقة واحترامهم إياها. وتجد كتبهم المدرسية مشحونة بالحكايات التي تعلم هذه المنقبة وأمثالها من الصراحة بالقول والاعتراف بالخطأ. غير القدوة الحسنة التي يستفيدها التلاميذ من أساتذتهم أو والديهم أو كبارهم في هذا السبيل.

(7) الشعور بالواجب

إن الشعور بالواجب عام في الممالك الراقية لكنه ظاهر كل الظهور في أخلاق الإنكليز. فالإنكليزي يعرف ما عليه من حق أدبي أو مادي فيؤديه في حينه بلا مطالبة أو استحثاث. يفعل ذلك بهدوء وسكينة، لأنه من أكثر الناس عملًا وأقلهم كلامًا. فإذا وعدك بزيارة كن على ثقة أنه مُنجز وعده، وإذا كلفته بخدمة فمن التأدب عندهم أن لا يؤكد لك نجاحه فيها وإنما يقول «إني سأجرب»، فإذا قال هذا قائل منهم عدّوا قوله وعدًا أكيدًا. وهكذا، إذا عزم أحدهم على تكليف آخر بخدمة أو مطالبته بحق له أو وعد يتوقعه فإنه يجعل طلبه بصورة الاستفهام أو الشك. فيقول مثلًا «ماذا تظن لو فعلت كذا»، فيجيبه «أظنني فاعلًا كذا»، فيعد ذلك وعدًا لا بد من قضائه. وهذه التعابير تكون غالبًا في الطبقة الراقية من القوم.

(8) المرأة الإنكليزية

المرأة في إنكلترا تشبه سائر نساء أوربا في أكثر الأحوال الاجتماعية والأدبية

لكنها تفرق عنهن بما يقتضيه الخلق الإنكليزي أو التربية الإنكليزية من بعض الوجوه، فهي أميل إلى الحقائق في آدابها وعاداتها وأزيائها. ويمتاز الزي الإنكليزي غالبًا بالبساطة لأنهم يلاحظون فيه المنفعة الحقيقية - شأنهم في كل شيء. وإذا رأيت إنكليزية بثوب مزخرف فإنها تقلد به غير الإنكليز، ومن هذا القبيل، انصرافها إلى الرياضة البدنية بالألعاب المشهورة عندهم حتى لعب السيف وركوب الخيل. ولذلك كانت الإنكليزية صحيحة البنية نشيطة الحركة ممشوقة القوام مشرقة الوجه قوية الإرادة، وقد أخذت تتشبَّه بالرجال وتجاريهم في أعمالهم. وتطرفت طائفة من المتهوسات حتى طلبن حق التصويت في مجلس النواب وبالغن في ذلك وخرجن به عن طورهن الذي خلقن له واستخدمن العنف في مطالبهن، ولا نظنهن إلا راجعات إلى الصواب. وحُكمنا على المرأة الإنكليزية من هذا الوجه مثل حكمنا على المرأة الفرنساوية عند كلامنا عن أخلاق الفرنساويين: «إن المرأة الإنكليزية خُلقت لتهتم بشئون بيتها وعائلتها فإذا تحولت عن ذلك إلى أعمال الرجال خرجت عن طبيعتها».

على أن المرأة الإنكليزية في أصل فطرتها كثيرة الخضوع لرجلها تستهلك في سبيل راحته وراحة سائر العائلة، ولو مهما كلفها ذلك. لكنها وهي عذراء تتمتع بما يتمتع به الشاب من الحرية الشخصية في ذهابها وإيابها وقيامها وقعودها. فإذا تزوجت انقطعت إلى بيتها ولم يعد يهمها سواه مع احترام زوجها ومعرفة حقه. فلعل المطالبات بحقوق الرجال من غير المتزوجات.

(9) طريقتهم في الاستعمار

وترى الخلق الإنكليزي الأساسي - نعني التعويل على الحقيقة مع الثبات - ظاهرًا في طرقهم السياسية، كالاستعمار مثلًا فإن لهم فيه طريقة تخالف طرق المستعمرين. فهم ينظرون من وراء الاستعمار إلى الفائدة الحقيقية، لا يهمهم زخرف السيادة وأبهة الدولة والتفاخر بسعة السلطة بقدر ما تهمهم المصلحة الحقيقية في الاستعمار. وقد وجدوا بعين العقل أن المصلحة الحقيقية من الفتح أو الاحتلال إنما هي المرافق الاقتصادية أو المالية فيوجهون سعيهم إليها. ولا يهمهم بعدها أن تكون لهم سيادة إن لم يكن الغرض منها المنفعة الاقتصادية. ومن

ثباتهم وطول أناتهم صبرهم على استثمار مطامعهم الاستعمارية أعوامًا متطاولة، ترسخ في أثنائها أقدامهم أو تسنح لهم فرص يغتنمونها ويؤيدون بها حقوقهم.

ولهذا السبب رأيتهم لا يتعجلون وضع الحماية أو إعلان السيادة بل بعكس ذلك يتساهلون مع مستعمراتهم في الاستقلال الإداري حتى لا يبقى فرق يُذكر بينه وبين الاستقلال الحقيقي. ويهمهم من البلد الداخل في حيازتهم أو تحت نفوذهم أن تكون مصالحهم المادية رائجة فيه - ولا يبالون أن يجيئهم ذلك بطريق الاحتلال أو الحماية أو الاستعمار. وعلى هذا المبدأ حلوا قيود أوستراليا وكندا والترانسفال وغيرها. ولا نرى مانعًا من أن يفعلوا ذلك في الهند وغيرها إذا تحققوا ضمان مصالحهم الاقتصادية وبقاء علائقهم الودية وأن تكون لهم الأفضلية من الاعتبارات الأخرى. فالسطوة التي بلغت إليها الأمة الإنكليزية في هذا العصر تتوقف على أخلاقهم أكثر مما على ذكائهم. إن الأخلاق، التي ذكرنا أمثلة منها، جعلت أربعين مليون إنكليزي يحكمون نحو 350 مليون نفس من أمم شتى في القارات الخمس، وفيهم القوقاسي والمغولي والهندي والزنجي وغيرهم من طبقات الناس يتكلمون عشرات من اللغات المختلفة. إن الإنكليز استطاعوا ذلك بأخلاقهم المتينة وأساسها الثبات والتعويل على الحقيقة، والا فإن بين الأمم الداخلة في سلطانهم شعوبًا لا يقلون عنهم ذكاء ويفوقونهم في كثير من المواهب العقلية وإنما تنقصهم الأخلاق اللازمة للتغلب أو الاستقلال.

(10) المدنية الحديثة ومدنية العرب

الإنكليز من أوضح الأمثلة للأخلاق الملائمة لروح هذه المدنية - وإن كانت لا تلائم المدنيات الأخرى. إذ لكل مدنية قواعد تبنى عليها دعائمها ولا تصلح إلا بها، فمدنية العرب أساسها مناقب العرب في صدر الإسلام، أهمها الأريحية والنجدة والجوار والوفاء والحلم وسعة الصدر وكرم الخلق ونحوها مما لا يلائم المدنية الحديثة. كان الخليفة أو الأمير يعفو أحيانًا عن القاتل لاعتبار قام بنفسه، من قول سمعه أو فكر خطر له، ويعد ذلك أريحية. وكان القوم يتواصون بالعفو عند المقدرة والأخذ بأسباب الكرم، يقيمون بيوت الضيافة ينزل فيها الأضياف أشهرًا لا يسألهم أحد من هم. وكان لهم ضرب من الارتزاق بالسخاء من الخليفة،

فمن حوله وأتباعهم وحواشيهم وأعوانهم يقيم في بيت الأمير أو العامل عشرات أو مئات من الناس يأكلون ويشربون ويلبسون ولا عمل لهم، وقس على ذلك مما فصلناه في «تاريخ التمدن الإسلامي». فهذه المناقب بعيدة عن مقتضيات المدنية الحديثة التي أساسها مبادلة الحقوق والواجبات، لا حلم ولا عفو ولا أريحية ولا نجدة، وإنما ينال المرء من الرزق أو المنصب على قدر سعيه ومواهبه بمقتضى القواعد الاقتصادية والاعتبارات السياسية. فلا يرتقي في هذا السلك غير العارف بأحكام السياسة الذي ينظر إلى حقائق الأشياء بالنظر إلى مصلحة الأمة ويحافظ على العدالة وشروطها لا ينفق غرشًا إلا في طريقه. وغير ذلك من المناقب الشائعة في أوربا لهذا العهد - ولكل دولة أيام ورجال.

6- آثارها

لإنكلترا آثار معنوية في نفوس العقلاء مرجعها إلى الإعجاب بأخلاقهم وتربيتهم ونظام عائلاتهم - حتى أعداؤهم فإنهم يعترفون لهم بسمو الأخلاق وثباتها ويحرضون أقوامهم على تحدّيها.

أما الآثار البنائية فإنها كثيرة في إنكلترا، ولا سيما في لندن. وقد ذكرنا شيئًا منها في كلامنا عن هذه المدينة وعددنا ما فيها من الأبنية والشوارع وغيرها. ولا يستطيع المار في شوارعها وساحاتها غير الإعجاب بما يراه منصوبًا هناك من التماثيل الفخيمة لمشاهير الرجال، فإن الإنكليز كثيرو الاحترام لأسلافهم يقيمون لها [لهم] التماثيل كما يقيمونها للقديسين. وكما يعجب الفرنساويون ببونابرت وينصبون تماثيله في شوارعهم وحدائقهم وساحاتهم وقصورهم، فالإنكليز يفعلون نحو ذلك بتماثيل ولنتن [ولينغتون] ونلسن ونحوهما. وناهيك بالقصور الكبرى والمعابد الفخيمة فإنها كثيرة في لندن فنكتفي بالإشارة إلى أشهرها مما وفِّقنا لزيارته في هذه الرحلة فنقول:

(1) كنيسة القديس بولس

إنها قائمة في منتصف المدينة وهي أفخم أبنيتها وأعلاها ومن أقدمها عهدًا. لم يتفق المؤرخون على أصل بنائها ولكنهم متفقون على أنه كان في مكانها معبد

من زمن الرومانيين ثم خرب وأقاموا مكانه كنيسة سنة 610م واحترقت سنة 961م فأعيد بناؤها، وتوالى عليها الخراب والترميم مرارًا حتى جددت كلها في أواخر القرن السابع عشر على يد مهندس شهير اسمه خريستوفر رين. بدأوا ببنائها سنة 1675 وتمت سنة 1710 وأنفق في سبيل ذلك 850000 جنيه أخِذت من الأهلين بضريبة وضعتها الحكومة على الفحم الوارد إلى لندن، وكان رين هذا يستولي في أثناء هذه المدة على راتب سنوي مقداره 200 جنيه في السنة.

بنيت هذه الكنيسة على مثال كنيسة القديس بطرس في رومية لكنها أصغر منها. ومع ذلك فهي أكبر كنائس العالم بعد كنائس رومية وميلان وإشبيلية وفلورنسا. شكلها كالصليب الروماني. طولها 500 قدم وعرضها 118 قدمًا وعلو قبتها 364 قدمًا. قطر قبتها مئة قدم وقدمان. وقطر قبة كنيسة القديس بطرس في رومية 139 قدمًا. ويزيد أهميتها في نظر الزائرين ما على جدرانها من النقوش والصور وما أقاموه في جوانبها من تماثيل عظماء الإنكليز وأكثرهم من كبار القواد. فهي بهذا الاعتبار معرض عظمة إنكلترا، وإنما يفوقها بذلك دير وست منستر الآتي ذكره.

مدخلها الأكبر من جهة الغرب، وهي قائمة في الداخل على ركائز ضخمة مربعة الجوانب تشبه ركائز جامع السلطان أحمد في الآستانة وتشبهها أيضًا بالشرفة المستديرة المحيطة بأعلى تلك الركائز. يتوهم الداخل لأول وهلة أنها كنيسة كاثوليكية لكثرة ما يراه فيها من الصور لكنه لا يلبث أن يرى معظم تلك الصور تمثل مشاهير الرجال. لا يستطيع الداخل إليها إلا التهيب مما يشاهده من فخامة البناء وسعة المكان وما نصِب في جوانبه من التماثيل الرخامية والبرونزية، فيحسب نفسه في ساحة الحرب أو في ساعة الدينونة، وقد اجتمع نخبة الرجال ليؤدوا حسابًا عما فعلوه أو ليتفاخروا في من كان أشدهم بطشًا وأكثرهم فضلًا في تعزيز العلم البريطاني. وفي الجناح الأيسر من صحن الكنيسة تماثيل جماعة يعرفهم القراء، وكان لهم دخل في شئون مصر والسودان مثل الجنرال ستيوارت قائد الفرقة التي تعجلت الذهاب إلى الخرطوم لإنقاذ غوردون سنة 1884 وكنا في جملتها، فأصيب قائدها ستيوارت برصاصة في بطنه في معركة انتشبت بيننا وبين الدراويش قرب المتمة، وسقط ونحن نراه، ولا ننسى تلك الساعة الرهيبة

لأننا كنا في أشد ساعات الخطر. وتمثال الجنرال غوردون، وقد قتل في الخرطوم قبل وصول الحملة بيومين. وتمثال دوق ولنتن صاحب معركة وترلو، وتماثيل الجنرال بتكن والجنرال بونسي، قتلا في وترلو، والأميرال نابيه قائد الأسطول الإنكليزي في البلطيك سنة 1854. وهناك طائفة من الأدباء وأرباب الأقلام بينهم رينولدس المصور، وباتريك نابيه وهلاند المؤرخان.

وقس على ذلك التماثيل العديدة في الجناح الأيمن والمواقف الأخرى، يعرف القراء من أصحابها الأميرال نلسون الذي أغرق الأسطول في أبي قير سنة 1798 واشتهر بمواقع رفع فيها شأن الإنكليز في كوبنهاغن وترافلغار وغيرهما، وقد نقشت أسماء تلك المواقع على قاعدة تمثاله، وقد خسر ذراعه اليمنى في واقعة قادس فجعلوه في التمثال متشحًا برداء يغطي تلك الذراع. ومنهم الجنرال أبركرومبي الذي قتل في أبي قير سنة 1801. والجنرال مور الذي قتل في كرونا بإسبانيا. والأميرال هو الذي أنقذ جبل طارق سنة1782 وفي بعض الحنايا تذكار للمقتولين في حرب القرم وحوله الأعلام التي كانت لهم هناك.

ومن المشاهد الهامة في هذه الكنيسة قبتها، لما تشرف عليه من الأبنية البعيدة، فقد صعدنا إلى قمتها بسلّم درجاته ستمائة وعشرون درجة فأشرفنا على لندن كلها كما أشرفنا على باريس من قمة برج إيفل. أما القبة فلها شأن خاص شاهدنا مثله وراء محراب كنيسة إريني بالآستانة، نعني تفخيم الصوت، فإن حول قاعدة هذه القبة من الداخل شرفة مستديرة قطرها نيف ومئة قدم ومحيطها نحو 320 قدمًا، يشرف المار فيها على صحن الكنيسة وتسمى «قاعة التهامس» دخلناها من باب في بعض جوانبها فرأينا شيخًا يهمس في الحائط بصوت يكاد لا يسمعه الواقف بجانبه، فأومأ إلينا أن نذهب إلى مقعد في الجانب الآخر من تلك الشرفة، فمشينا ونحن نسمع الصوت يرتفع كلما بعدنا عن ذلك الشيخ، فلما وصلنا إلى الطرف الآخر سمعناه كالخطيب يتلو علينا خطابًا في تاريخ هذا البناء.

وتحت أرض الكنيسة سراديب مرصفة بالفسيفساء فيها تماثيل وأضرحة للمشاهير أيضًا. منها ضريح للدوق ولنتن من الرخام السماقي قائم على قاعدة من الغرانيت وحوله الأعلام التي اكتسبها من إسبانيا والبرتغال وفرنسا، وبجانبه

المركبة التي حملت جثته. وضريح بكتن زميله في وترلو. وفي مكان آخر يقابل منتصف القبة ضريح نلسون فيه تابوت مصنوع من خشب السارية الوسطى من سواري الدارعة الفرنساوية (لوريان) التي أحرقها أسطوله في أبي قير سنة 1798، وبجانبه ضريح رفيقه كولنوود وضريحان لنابيه ونورتسك. وتماثيل جماعات من رجال الأدب والتاريخ بينهم السير وليم هورد رسل أعظم مُكاتب حربي في القرم. وأضرحة لنساء شهيرات في العلم وغيره.

(2) قصر جيلد هول

اشتهر هذا القصر بقاعته التي تلقى فيها الخطب العمومية. وفيها خطب روزفلت منذ بضع سنين، خطابه المشهور الذي ذكر فيه مصر وسياسة إنكلترا فيها. يمر الزائر من كنيسة القديس بولس إلى جيلد هول بشوارع هي أكثر شوارع لندن ازدحامًا - في جهة اسمها شيبسايد يساوي متر الأرض فيها 250 جنيهًا.

بني هذا القصر للمرة الأولى في أوائل القرن الخامس عشر مقرًّا لقضاة ومجالس البلدية، ثم تخرب وأعيد بناؤه وأنشئت فيه القاعة المذكورة وطولها 152 قدمًا وعرضها 50 وعلوها 89 قدمًا، تجتمع فيه [فيها] المجالس البلدية للانتخابات ونحوها وتتلى فيها الخطب العامة. وفيها حوكم جماعة من المجرمين العظماء مثل أرل سيري واللادي جان غراي وغيرهما. وفيها تماثيل مشاهير الإنكليز ولا سيما ولنتن ونلسن وشتام وبت ومور. وفي قاعة أخرى تماثيل أخرى في جملتها تمثالان خشبيان غريبا الشكل يعرفان بياجوج وماجوج ولم نعلم سبب هذه التسمية.

وفي جيلد هول مكتبة فيها 143000 مجلد معروضة للناس، وفيها متحف صناعي للساعات وغيرها من المصنوعات الدقيقة - وخرائط كبيرة وقاعة صور فيها صور تاريخية، منها صورة معركة جبل طارق بين الإنكليز والإسبان سنة 1782، وصور كثيرين من الملوك، وصورة يوبيل الملكة فكتوريا الماسي سنة 1897 بالمركبة التي كان يجرها ثمانية أفراس. وتحت الأرض سراديب مثل سراديب كنيسة القديس بولس فيها قبور ونواويس قديمة.

(3) بنك إنكلترا

نحن الآن على مقربة من بنك إنكلترا الشهير فلا ينبغي لنا أن نمرَّ به سكونًا. بني سنة 1734وأعيد بناؤه كما هو الآن سنة 1827، ليس في ظاهره نافذة لكنهم يضيئونه من الداخل مبالغة في الاحتفاظ به. أما البنك نفسه، أي العمل المالي المعروف بهذا الاسم، فقد أنشىء سنة 1697 وظل هو البنك الوحيد في لندن إلى سنة 1834 فأنشئت بنوك أخرى. لكنه لا يزال أعظمها جميعًا ويمتاز عنها كلها بأن الحكومة أذنت له بإصدار الأوراق المالية (بنك نوط). كان رأس ماله الأصلي 12000000 جنيه ثم تضاعف مرارًا. عدد عماله ألف عامل ولا يخلو من 20000000 جنيه ذهب مختزنة في سراديبه المتينة، و25000000 جنيه عملة ورق بين أيدي الناس. وهو ينوب عن الحكومة الإنكليزية فيما يتعلق بالديون التي عليها وقيمتها 673000000 جنيه بين قبض ودفع وترصيد.

وفي البنك مطبعة تطبع أوراقه (البنك نوط) يصدر منها 50000 قطعة كل يوم من فئة خمسة جنيهات إلى ألف جنيه. ويطبع فيها أيضًا البنك نوط الهندي. وآلاتها بغاية الإتقان وطريقة طبعها تستدعي الإعجاب. ومن عادات هذا البنك أن يتلف كل ما يرجع إليه من أوراقه ولا يدفع للناس إلا أوراقًا جديدة خارجة من تحت يد الطابع - لكنه لا يتلف الأوراق المرتجعة حال استلامها بل يحفظها خمس سنوات في خزائن من حديد لئلا يقتضي الأمر مراجعة شيء منها لشهادة قضائية أو نحوها ثم تحرق. ويبلغ عدد ما يجمع عندهم منها في السنوات الخمس 80000000 ورقة وزنها 90 طنًّا وقيمتها المالية 1750000000 جنيه. وإذا فرشت الواحدة بجانب الأخرى في خط واحد تألف منها درج طوله 13000 ميل. وفي البنك آلة لوزن الجنيهات الذهب وفرزها تزن 33جنيهًا في الدقيقة فما كان منها ناقصًا لفظته خارجًا. وفي البنك مخزن لحفظ المجوهرات. ويحرس البنك شرذمة من الجند ليلًا ونهارًا.

(4) برج لندن

واقع على ضفة التيمس وهو من أقدم أبنية لـندن وأشهرها. كان معقلًا للملوك ثم جعلوه سجنًا للمجرمين العظماء مـن الملـوك أو القواد أو الأمـراء. حـوله خندق

عميق يحيط به ردم سنة 1843، وجعلت الحكومة برج لندن الآن ثكنة للجند ورممت جدرانه ليبقى حصنًا. شكله مربع غير منتظم. مساحة أرضه 13 فدانًا عليها عدة أبنية يحيط بها سور مزدوج عليه الأبراج. يقال في تاريخ بنائه إنه يرجع إلى وليم الظافر. أقدم قصوره الآن «البرج الأبيض» بني في القرن الحادي عشر. وهو فخيم وله ذكر رهيب في التاريخ لكثرة من سجن أو قتل فيه من العظماء. أشهر ضحاياه السير توماس مور قتل سنة 1535، وحنة [آن] بولين قتلت سنة 1536، وتوماس كرومويل قتل سنة 1540، ومرغريت بول سنة1541 ، والملكة كاترينة هورد سنة 1542، والأميرال سيمور سنة 1549، واللورد سمرست سنة 1553، واللادي جان غراي وزوجها سنة 1554، والسير جون إليوت مات فيه سنة1632 ، وغيرهم كثيرون. وممن سجنوا ولم يقتلوا جون بليول ملك اسكتلاندا سنة 1296، ووليم ولسن الاسكتلاندي سنة 1350، وداود برويس ملك اسكتلاندا سنة 1347، وجون ملك فرنسا أخذ أسيرًا في بوتيه [بواتييه] سنة 1356، ودوق أورليان والد لويس الثاني عشر ملك فرنسا سنة 1415، والملك هنري السادس، وغيرهم. وكان في البرج مأسدة نقلت إلى مسرح الحيوانات العام.

وفي هذا البرج تحف تاريخية لا يوجد مثلها في سواه منها الأسلحة والألبسة والمجوهرات أهمها المصوغات الملوكية [التي] سيأتي ذكرها. وأول ما يستلفت نظر الشرقي عند دخوله الباب الخارجي للبرج مدفع عثماني أهداه السلطان عبد المجيد لإنكلترا سنة1857 . وإذا دخل البرج فأهم ما يشاهده هناك المصوغات الملوكية الإنكليزية، وقد ذكرنا المصوغات الملوكية الفرنساوية التي شاهدناها في متحف اللوفر لكن هذه أفخم وأثمن.

إن هذه المصوغات أو المجوهرات معروضة في غرفة صغيرة في وسطها دكة مثمنة الأضلاع يكاد يقرب شكلها من الاستدارة. عليها رفوف مرتبة بعضها فوق بعض بشكل هرمي، وضعوا تلك المصوغات عليها بحيث يراها المشاهدون. لكنهم أحاطوا تلك الدكة بسياج من شبك الحديد وألواح من الزجاج. وبين الدكة والحائط ممر يكاد لا يتسع لمرور اثنين والحرس وقوف لمراقبة المتفرجين. والمصوغات المشار إليها أكثرها تيجان مرصعة بالحجارة الكريمة بعضها قديم والبعض الآخر حديث وهي: (1) تاج القديس إدورد [إدوارد] صنع لتتويج

شارل الثاني، سرقه الكولونيل بلود سنة 1671 في جماعة من رفاقه بعد أن قتلوا الحارس لكنهم لم يفوزوا بغنيمتهم. (2) تاج الملك إدورد السابع، صنع في الأصل للملكة فكتوريا سنة 1838 ثم جدد للملك إدورد سنة 1902 وهو من المصوغات الحديثة، مرصع بجواهر لا يقل عددها عن 2818 ماسة و300 لؤلؤة وجواهر أخرى. في مقدمه ياقوتة يقال إنها كانت للأمير الأسود أعطاه إياها دون بادرو صاحب قسطيلية [قشتالة] سنة 1367، وقد وضعها هنري الخامس على خوذته في معركة أجنكورت. تحتها ماسة كبيرة تعرف بالماسة الكولينية قدمتها حكومة الترنسفال إلى الملك إدورد سنة 1907، وهي تنسب إلى ماسة اسمها كولينا سيأتي ذكرها، وفي مؤخرة التاج حجر صغير يقال إنه كان لإدورد المعترف. (3) تاج ولي العهد من الذهب الخالص غير مرصع. (4) تاج زوج الملكة ذهب مرصع. (5) تاج الملكة ذهب مرصع. تاج الملكة هو طوق من الذهب مغشى بالماس واللؤلؤ وقد صنع كلاهما للملكة ماريا ديست زوجة جيمس الثاني. (6) صولجان الملك إدورد من الذهب الخالص طوله أربعة أقدام ونصف ووزنه 90 رطلًا مصريًّا. قبضته ضخمة كالتاج يقال إن فيها قطعة من ذخيرة عود الصليب. (7) الصولجان الملوكي طوله قدمان وتسعة قراريط عليه صليب مرصع بالحجارة الكريمة. (8) صولجان الحمامة أو عصا المساواة على رأسها تمثال حمامة باسطة جناحيها. (9) صولجان آخر فيه صليب مرصع. (10) الصولجان العاجي للملكة ماريا ديست فوقه حمامة من العقيق الأبيض. (11) صولجان الملكة ماري زوجة وليم الثالث (12) مثال ماسة «كوه نور» الشهيرة وهي من أكبر حجارة الماس المعروفة، وزنها 162 قيراطًا. والماسة الأصلية الآن في قصر وندسر وكانت قبلًا في حوزة ملك لاهور، ووصلت إلى أيدي الإنكليز سنة 1849 لما فتحوا البنجاب. وشاهدنا مصوغات أخرى ثمينة منها أساور التتويج والمهماز الملوكي وإبريق زيت التتويج بشكل النسر والخاتم والملعقة والمملحة وغير ذلك. ويقدرون قيمة هذه المصوغات بمبلغ 3000000، جنيه وفي تلك الغرفة خزانة (فترينة) فيها أمثلة من الأوسمة الكبرى ومثال للماسة الترنسفالية المسماة كولينا. أما كولينا الأصلية فقد قسموها إلى الماسة التي تقدم ذكرها في مقدم تاج الملك إدورد وقسموا الباقي إلى ماسات وضعوها على الصولجان.

وفي برج لندن معرض للأسلحة والأدراع فيه أمثلة من المدافع والبنادق والسيوف والحراب والفؤوس لبعضها ذكر تاريخي، منها: سيف جلاد ملك أود وأسلحة هندية الأصل أو عربية. ومنها المدفع الذي غنمه الفرنساويون من مالطة سنة 1798 وحملوه على الدارعة سنسيبل الفرنساوية فاسترجعه الإنكليز وهم على الباخرة سيهورس بقيادة القبطان فوت. وهناك أمثلة من آلات العذاب كالجامعة التي تقبض على الإبهامين معًا والفلق الذي يقبض على القدمين والأطواق بالإحاطة بالأعناق. وبينها فأس لقطع العنق صنع سنة 1679 وبجانبه البلاطة التي يسند العنق إليها عند القطع. ومن الأدوات الحربية التاريخية ملاءة التفّ بها الجنرال وولف لما جرح سنة 1759 وعليها مات. وثوب الدوق والمركبة المدفعية التي حملوا عليها جثة إدورد السابع.

وفي قاعة أسلحة الفرسان كثير من الأدراع والرماح والخوذ والسهام على اختلاف الأعصر من القرن الرابع عشر فما بعده. وتماثيل أفراس عليها تماثيل فرسان بالألبسة الرسمية والأدراع الثمينة. أحدها يمثل هنري الثامن على جواده وعليه درعه. وآخر يمثل جيمس الثاني سنة 1688، وآخر يمثل شارل الأول وعليه درع مغشاة بالذهب. وهناك غرفة لها ذكر تاريخي لأنها كانت قاعة المجلس وفيها تنازل ريتشارد الثاني عن الملك وغرف أخرى كانت سجونًا استخدموها الآن لحفظ السجلات وغيرها.

وفي ساحة البرج بقعة فيها نحاسة مربعة نقش عليها ما معناه «أنه في هذا المكان قطع رأس الملكة حنة». وقد شاهدنا الأبراج والمخادع التي كانوا يستخدمونها للسجن ويأتون فيها ضروب الظلم والفتك بلا حساب ولا تقدير. وناهيك بفنون التعذيب مما تقشعر له الأبدان - إن من يطلع على ذلك ويرى ما عليه الأمة الإنكليزية اليوم من أسباب المدنية ومحاربة الجهل ومطاردة الظلم، يعلم أن الأمة لا بد لها من المرور في أطوار من جملتها هذا الطور من الهمجية، وإن ذلك ليس خاصًا ببلد دون آخر ولا أمة دون أخرى.

دار الضرب

وفي هذا البرج بناء خاص لضرب النقود بني سنة 1811 ثم توسع سنة 1882 وقد أتقنت فيه صناعة الضرب وآلاته، ومنها ما يصنع 120 قطعة من النقود في الدقيقة. وقد بلغ ما ضُرب سنة 1909 ما قيمته 15000000 جنيه، منها 11800000 قطعة فئة جنيه، و4000000 نصف جنيه، و3816000 نصف ريال و3993000 فلورين، و 6900000شلين، و7028000 نصف شلين، و5600000 ربع شلين، و21256000 بنس، فقسْ عليه.

(5) قصر وستمنستر

هو قصر فخيم واقع على ضفة التيمس ينعقد فيه البرلمان الإنكليزي. وهو ينعقد في قاعتين فخمتين منه، إحداهما لمجلس الأعيان والأخرى لمجلس العموم. وقبل الوصول إلى قاعات البرلمان يمر الزائر بقاعات عديدة. الأولى مغشاة بالصور، في جملتها صورتان إحداهما تمثل معركة وترلو وقد فاز فيها الإنكليز، والأخرى تمثل واقعة ترافلغار وقد مات فيها نلسن. طول الواحدة منها نحو 15 مترًا. يُتصل منها إلى قاعة أخرى جدرانها من الخشب الملون عليه صور أشهر ملوك إنكلترا. ومنها دخلنا قاعة الأعيان في غير وقت الاجتماع. طولها 90 قدمًا وعرضها 45 قدمًا وعلوها 45 قدمًا. أرضها مغطاة بصفوف من المقاعد مغشاة بالجلد الأحمر تسع نحو 650 شخصًا. وللقاعة 12 نافذة زجاجها مزين بصور ملوك إنكلترا وملكاتها منذ الفتح. وتضاء القاعة ليلًا بالكهربائية فتزداد جمالًا. وعلى الجدران بين النوافذ تماثيل للبارونية الذين أخذوا الدستور من الملك جون. غير ما على الجدران من النقوش البديعة بينها الصور الجميلة للملوك وبعض المواقف الدينية. وفي صدر القاعة عرش يجلس عليه الملك يصعد إليه ببضع درجات، وإلى يمينه مجلس ولي العهد. وخرجنا من طرف القاعة الآخر إلى غرفة فيها تعاليق ومواقف للبرانيط والأردية - لكل من الأعضاء تعليقة عليها اسمه. ومن هناك انتهينا إلى دهليز جدرانه مزدانة بالصور التاريخية. ومنها إلى قاعة متوسطة الحجم فدهليز آخر اتصلنا منه إلى قاعة مجلس العموم. طولها 75 قدمًا وعرضها 45 وعلوها 41 قدمًا. وهي تشبه قاعة مجلس العموم بشكلها لكنها

أقل فخامة وأبسط رياشًا. عليها مقاعد مكسوة بجلد أزرق مخضر لا يسع أكثر من 476 شخصًا مع أن عدد أعضاء هذا المجلس نحو 67وقد ترتبت المقاعد صفوفًا. وكرسي الرئيس في صدر القاعة عند طرفها الشمالي وإلى يمينه مقاعد لنواب الحكومة كالوزراء ونحوهم، وإلى يساره رؤساء حزب المعارضين. وبين يدي الرئيس طاولة يجلس إليها الكاتب. ويجلس المخبرون ومكاتبو الجرائد على مقاعد فوق مجلس الرئيس. وفوقها مقاعد للسيدات. وتجاه مجلس الرئيس في الطرف الآخر من القاعة مقاعد للزائرين.

(6) دير وستمنستر

لهذا الدير شأن عظيم عند الإنكليز لأنه مجتمع مفاخرهم ومدافن عظمائهم أو تماثيلهم. يحوي من تلك المفاخر أكثر مما يحويه كل مكان سواه، ولا يدفن فيه أو ينصب تمثاله في أرضه إلا الممتازون بالشرف والفخر في خدمة الأمة والوطن. والإذن في دفن ميت هناك أعظم شرف تقدر الأمة أن تمنحه لذلك الميت.

والدير بناء قديم ولبنائه تاريخ طويل. شكله يشبه من الداخل شكل كنيسة القديس بولس. طوله 513 قدمًا وأعرض نقطة فيه 200 قدم وعلوه مئة قدم وقدمان وعلو برجه 225 قدمًا. دخلناه من بابه الشمالي، ولم نكد نتوسط المكان ونلتفت ذات اليمين وذات الشمال حتى وقع بصرنا على ما هنالك من قبور العظماء وتماثيل الكبراء، وقد ساد السكوت وتجلت هيبة الموت فغلب علينا التهيب، وخيل لنا أننا نسمع من كل قبر نداء ونرى في كل تمثال خطيبًا. لا غرو ونحن بين بقايا أعظم رجال إنكلترا وفيهم القائد الباسل والسياسي المحنك والشاعر المفلق والخطيب المفوه والعالم الحكيم والمخترع العظيم. وقد تكاتفوا جميعًا في خدمة أمتهم فنهضوا بها إلى أسمى منازل الدول. فأخذتنا العبرة، وتذكرنا حال دولتنا في العالم السياسي فتشاغلنا عن تلك الهواجس بما بين أيدينا من مفاخر الآخرين. إذ لا فائدة من تلك الذكرى وإن عرفنا الداء إذ لا سبيل لنا إلى الداء [الدواء]. وتجولنا إلى [في] أنحاء الدير نتفقد المدافن والتماثيل ونقرأ أسماء أصحابها، فإذا فيهم نخبة الساسة والعلماء والشعراء والخطباء وغيرهم يعدون بالمئات. ويضيق هذا المقام عن تعدادهم فنذكر أمثلة من ذلك في مجاميع حسب الأماكن، منهم:

وليم بت السياسي المتوفى سنة 1778، وجون هولس دوق نيوكسل (1711) وجورج كانين السياسي (1827)، والجنرال مالكولم واللورد بالمرستون واللورد منسفيلد والأميرال ورين والسير روبرت بيل السياسي (1850). وفي مجموع آخر جورج غوردون ارل ابردين، والسير توماس رافلس (1826) وتشارلس جيمس فوكس وكبتن مونتاغيو، وغيرهم. وهناك زاوية خاصة بالشعراء والأدباء فيها تماثيل جورج غروت الشاعر، وماكولي المؤرخ، ودوق ارغيل الشهير، وشكسبير إمام شعرائهم، وروبرت برنس وتنسن وشارلس دكنس وجون ملتن ولونفلو، وغيرهم من الشعراء والأدباء. وهناك زوايا للشرفاء وأخرى للأساقفة وغيرهم، ممن يستغرق تعداد أسمائهم فقط عشرات من الصفحات فكيف بذكر مناقبهم.

7- متاحفها

المتحف البريطاني

هو أعظم متاحف إنكلترا ومن أعظم متاحف العالم. يشتمل على التحف والآثار مثل اللوفر بباريس، ويمتاز عنه باشتماله على مكتبة نفيسة يندر مثلها بين مكاتب أوربا. وبناء المتحف فسيح، تأسس سنة 1700 ونما ببنائه ومحتوياته حتى بلغ ما هو عليه الآن، فنذكر تحفه التاريخية أولًا ثم نأتي إلى مكتبته.

دار التحف

هي عبارة عن المنحوتات والمصنوعات والمنقوشات من الآثار التاريخية والفنون الجميلة والتحف والذخائر وغير ذلك. ويصح أن يقال في وضعها إنها جمعت آثار الإنسان من أول عهد العمران إلى الآن في القارات الخمس. وفيها من كل شيء أحسنه، مرتبة على الدول والأمم في قاعات لآثار الآشوريين والبابليين والفينيقيين والمصريين والحثيين والفرس واليونان والرومان والهند والصين واليابان والعرب في الجاهلية والإسلام وأمم أوربا الحية وآثارها، وأمثلة من مصنوعات الأمم المتوحشة وآثارها ومظاهر عاداتها في أفريقيا وأوستراليا وأمريكا وجزائر المحيط. ومصنوعات الأمم المتمدنة من الفنون الجميلة

والتصوير والنقش والحفر، وفيها أمثلة تدهش الناظر، ولكن هذا القسم من التحف في اللوفر أحسن منه في المتحف البريطاني وأوسع. وفي هذا المتحف مجموعة نفيسة جدًّا من النقود قديمها وحديثها ومجموعة للأوسمة وطوابع البريد وغير ذلك - غير آثار الإنسان قبل التاريخ.

وكل قسم من هذه التحف يشغل عدة قاعات، وبينها من النوادر ما لا يوجد عند الأمم الأصلية التي أخذت التحف منها. مثال ذلك أن بين التحف المصرية مخطوطات من البردى لا مثيل لها في المتحف المصري بالقاهرة، وفيها حجر رشيد، نعني الحجر الذي حلوا منه القلم المصري القديم (الهيروغليف) على أثر حملة بونابرت. فإن هذا الحجر اتصل إلى المتحف البريطاني قبل إنشاء المتحف المصري. شاهدناه في صدر الآثار المصرية في خزانة وهو أسود اللون مكسور من أعلاه. وفي المتحف المصري نسخة من هذا الحجر لكنها غير التي استعانوا بها على حل القلم المصري. وهناك آثار مصرية ثمينة وموميات عديدة ومصوغات.

وقس على ذلك الآثار الآشورية والبابلية، ولعلها في المتحف البريطاني أغنى منها في سواه، وبينها ألوف من السجلات القرميدية المنقوشة بالحرف المسماري، بينها القرميدة التي عليها قصة الطوفان كما يرويها البابليون. غير قراميد الصكوك والعقود والمراسلات، وتماثيل قديمة جدًّا يظن أنها نحتت نحو 4500 قبل الميلاد. وفيها آثار نينوى وقصور آشورية كاملة نقلت من بين النهرين إلى هذا المتحف بجدرانها وسقوفها وتماثيلها. وفي جملتها تماثيل رجال اشتهروا بالتاريخ، مثل أسرحدون نقلًا عن صورته على صخر عند نهر الكلب في بيروت، وغير ذلك مما يطول بنا شرحه.

وهناك قاعات للآثار الدينية على اختلاف الأعصر والأمم. وفيها من المشابهة في الظواهر ما يدهش العقل. ومجموعة للساعات القديمة والحديثة والأسطرلاب وغيرها من صنع الأجيال الوسطى. وقد بحثنا بينها عن الساعة التي أهداها الرشيد لشارلمان فلم نقف على خبرها. وشاهدنا بين هذه التحف تمثال طاوس [طاووس] من فولاذ عليه نقوش فارسية وكتابة عربية، وهو تمثال «طاوس» إله اليزيديين حملوه من بلد قرب ديار بكر. طوله متر وبعض المتر، واقف على قاعدة كالطاعة [كالطاسة] المقلوبة وعليها نقوش.

وفي قاعة المصنوعات الزجاجية مصنوعات عربية من مصابيح وكؤوس ونحوها عليها كتابة عربية بعضها من القرن الثالث عشر للميلاد، وبينها قطع زجاجية عليها كتابة من عهد الدولة العباسية.

وفي قاعات العادات والأزياء والمصنوعات الشرقية سيوف بعضها تاريخي ينسب إلى بلاده في الهند والصين، وفي جملتها السيوف الدمشقية الشهيرة والفارسية والهندية والأفغانية لكل منها شكل خاص. الفارسية منحنية والهندية والأفغانية معتدلة وكذلك الدمشقية ولكنها شديدة الصقل. قبضتها من ذهب، بعضها بحد واحد والبعض الآخر بحدين، وقس على ذلك السروج وأشكالها.

مكتبة المتحف البريطاني

يعرف القراء غنى هذه المكتبة بالكتب العربية مما يقرأونه في «تاريخ آداب اللغة العربية» عن الكتب الموجودة فيها. ويزيد عدد الكتب في هذه المكتبة على مليون كتاب في اللغات المختلفة والمواضيع على اختلاف الأعصر. بينها مجموعة نفيسة من المخطوطات العربية، وفيها معرض لتاريخ الخطوط بينها خطوط مشاهير الملوك والقواد والعلماء، منها توقيع [تواقيع] ملوك إنكلترا من ريكاردوس الثاني إلى الملكة فيكتوريا وتوقيع ملوك آخرين، ومن خطوط مشاهير العلماء والشعراء والقواد شيء كثير. غير المخطوطات القديمة للكتب الهامة، ولا سيما التوراة في العبرانية والسامرية واليونانية.

وهناك مجموع لتاريخ الطباعة فيه أمثلة من المطبوعات من أول عهد الطباعة إلى الآن منها نسخة من التوراة باللغة الألمانية طبعها غوتنبرغ سنة 1455 بيعت نسخة منها سنة 1897 بمبلغ 4000 جنيه وهي أقدم المطبوعات على الإجمال. ثم قاعات لتاريخ الطباعة في كل مملكة على حدة.

وفيها أمثلة من الكتب المصورة بالألوان، بعضها كتب حوالى العاشر للميلاد. ومن المخطوطات الشرقية أقدمها إنجيل في العربية والسريانية كتب على رق غزال في القرن العاشر للميلاد. وأقدم الكتب المخطوطة في العربية القرآن، ومنه نسخة في المكتبة الخديوية يظن أنها كتبت في القرن الثامن. ومن المخطوطات العربية

المصورة بالمتحف البريطاني مقامات الحريري كتبت في القرن الثالث عشر، وقد نشرنا صورة لها في الجزء الثالث من «تاريخ آداب اللغة العربية».

متاحف أخرى

وفي لندن متاحف أخرى عديدة يطول بنا وصفها أهمها «تيت كاليري» ويسمى متحف الصناعة الإنكليزية وهو يشبه متحف لوكسنبرج في باريس. فيه أمثلة من صنع أمهر المصورين والنحاتين الإنكليز. أكثرها خيالي يراد به الفن من حيث تشخيص العادات والأخلاق أو الوقائع التاريخية تصويرًا بالألوان أو نحتًا على الرخام. ومن أجمل المنحوتات المتقنة فيه تمثال ولنتن على جواده، وصورة منحوتة تمثل حادثة الابن الضال، ونحوها من الوقائع الشهيرة. ومن الصور صورة المارشال روبرتس على جواده، ونابوليون على الباخرة التي حملته إلى منفاه، وأخرى تمثل الطوفان وغير ذلك.

ومتحف ولس: أصله من المتاحف الخصوصية أهدته اللادي [الليدي] ولس المتوفاة سنة 1897للأمة الإنكليزية وهو يساوي 4000000، جنيه واشترت الحكومة المنزل لوضع المتحف فيه بثمانين ألف جنيه سنة 1900. ويمتاز عن سائر المتاحف بدقة ما يحويه من المصنوعات، ويظهر للمتأمل في تحفه أن جامعها تأنق في انتقائها وسخى في ابتياعها وأنه ذو ذوق سليم في الصناعة. ومن جملة ما شاهدناه فيها طاولة كتابة من زمن لويس الخامس عشر وصورة الملك جورج الرابع ومصنوعات مختلفة من القرن [القرنين] 17و18، وهناك مجموعة صور محفورة في العاج أو الذهب أو العظم أو منزلة بالميناء في غاية الدقة. ومجموع ساعات وأسطرلابات وإبر مغنطيسية من صنع القرون الأخيرة وآلات هندسية. ورأينا مصباحًا عربيًّا عليه كتابة عربية منقول [منقولًا] من أحد جوامع القاهرة. وهناك قاعة للأسلحة والأدراع والمدافع، بينها بنادق قبضاتها منزلة بالعاج عليها نقش جميل مدهش، وأدراع مذهبة نحو ما شاهدناه في برج لندن لكنها أتقن وأثمن - وقاعات عديدة للصور الزيتية، منها صورة تمثل رحيل يعقوب مع أبنائه إلى مصر، وغير ذلك من الصور والمحفورات والمصنوعات.

ومتحف مدام تيسو: وهو كثير الشبه بمتحف جريــفن فــي بــاريس، فيه مشاهد

تاريخية ممثلة بالشمع كما حدثت، حتى يتوهم الناظر أنه يرى الحقيقة كما هي. كل مشهد في غرفة خاصة، منها موقف ولنتن عند سرير نابوليون وهو ميت وتمثيل موت نلسن ومقتل غوردون في الخرطوم وتولية الملكة فيكتوريا، والملك جون يوقع ما يسمونه «ماجنا كارتا»، ومشاهد أخرى شاهدنا مثلها في متحف جريفن. وتماثيل حديثة منها الملك إدورد وقبطان التيتانيك وسان يتسان صاحب الانقلاب الصيني، وجمهور من عظماء الإنكليز منهم: غلادستون وسالسبوري وتشمبرلن ولويد جورج واسكويث وإمبراطور الروس ومفاتيح قلعة متس. ومشاهير أمريكا، مثل روزفلت وتافت وغيرهما، وإذا وقع نظرك على أحدهم ظننته ينظر إليك ويوشك أن يخاطبك.

ومتحف فكتوريا وألبرت: وهو أثري تاريخي، فيه مصنوعات إيطالية قديمة أكثرها ديني، بينها أمثلة من طرز البناء الإيطالي ومصنوعات إيطالية من البرونز والطاسات والأباريق والتماثيل والأصنام الصغيرة. وصور صنع بلنسية بإسبانيا في أوائل القرن الخامس عشر، وهناك مصنوعات يونانية أكثرها كنائسي. وفي بعضها مصنوعات عربية، منها قطعة من إفريز كتبوا عليه أنه منقول من جامع المؤيد بمصر. وساعة شمسية عليها كتابة عربية كاملة طولها متر وعرضها نحو نصف متر لم يذكروا مكانها. وقطعة من عتبة سبيل، وغير ذلك. ومن التماثيل الضخمة في هذا المتحف تمثال من عمود تراجان في رومية في قطعتين طول كل منهما نحو 20 مترًا وعرض قاعدتهما 21 قدمًا بقدمنا. وهناك عدد كبير من الآثار الدينية، وأمثلة عديدة من آثار رومية منقولة بالجبس، بينها رؤوس عشرات من القواد الرومانيين والقديسين. وعدة قاعات فيها أنواع من النسج والتطريز نحو ما شاهدناه في متحف كليني بباريس. ولا شك أن أصحاب الأزياء (المودة) يستفيدون من الاطلاع عليها لوضع الزي الجديد. ومنحوتات تمثل حوادث دينية في القرنين 13 و14، وعلب وأقفال من العاج المخرم، في جملتها علبة صنعت في صقلية في القرن 13م على النمط العربي عليها صور مذهبة.

وفيها مصنوعات أخرى دقيقة تشبه ما في متحف ولس. وقاعات للأزياء والملابس حسب الأعصر والبلاد وهي مجموعة نفيسة لتاريخ الألبسة الشرقية والغربية. ويمتاز هذا المتحف عن سواه بهذه المصنوعات وإتقانها. ومنها سجادة

طولها نحو 13 مترًا كتب عليها «946 للهجرة» وأنها حملت من جامع أردبيل، وقس على ذلك.

ومن المتاحف التي تستحق الذكر في لندن المتحف الوطني (نيشنال كاليري)، وهو مجموع مصورات ومصنوعات مثل متحف لوكسنبرج بباريس.

بلاد الإنجليز خارج لندن

جمعت لندن أهم المتاحف والآثار ولكن في غيرها كثيرًا مما يستحق الذكر. ونذكر منه ما وُفقنا إلى رؤيته في أثناء هذه الرحلة في كمبريدج وأكسفورد ومنشستر.

كمبريدج: وجدنا كمبريدج بلدًا عامرًا بالمدارس والكليات يكاد يكون قوام عمرانه على تلامذة المدارس وأساتذتها ومن يلحق بهم. وربما بلغ عددهم جميعًا نحو 4000نفس. أما أهل البلد فلا يزيدون على 45000 نفس. ومما استلفت انتباهنا أبنية تلك المدارس التي تتألف من مجموعها «جامعة كمبريدج» الشهيرة، فإنها متشابهة الشكل قديمة الطِّرز وهو طرز الأجيال الوسطى. والبناء عبارة عن مربع، كل ضلع منه مؤلف من غرف متناسقة صفًّا واحدًا في ثلاث طبقات، بعضها للتعليم والبعض الآخر للأكل أو النوم. ووسط المربع حديقة أو فسحة خالية. وفي كل مدرسة كنيسة، وتتألف المدرسة الواحدة من ثلاثة مربعات أو أربعة متقاربة يستطرق بعضها إلى بعض. وأبواب الغرف صغيرة على نسق واحد بسيط كثيرة الشبه بالأبنية الشرقية، وقد سهل علينا الأستاذ براون مشاهدة أجزاء هذه الأبنية واستلفت انتباهنا إلى باب غرفته وهو ثخانة الحائط، فإذا كان الأستاذ في غرفته أغلق الباب الداخلي فقط فإذا خرج أغلق البابين جميعًا.

والسبب في بقاء هذه المدارس على الطرز القديم أنها تأسست في الأجيال الوسطى فبنيت على طرزها وحافظ أصحابها على ذلك الطرز. وقد وصفنا جامعة كمبريدج وعدد مدارسها وتلامذتها غير مرة في الهلال.

وفي كمبريدج متحف لا يذكر بالنظر إلى متاحف لندن. لكننا شاهدنا فيه

ترسًا مستديرًا عليه نقوش فارسية، بينها اسم السلطان نادر شاه فإذا كان المراد به القائد الفارسي المشهور بهذا الاسم كان هذا الترس من التحف الثمينة.

أكسفورد: وهي تشبه كمبريدج من أكثر الوجوه، وقد عرفت بجامعتها واشتهرت بمكتبتها المعروفة بمكتبة بودليان فإنها من المكاتب النفيسة في الآثار الشرقية. وقد جاء ذكرها مرارًا عديدة في أثناء ذكر أماكن الكتب في «تاريخ آداب اللغة العربية». وفي كمبريدج مكتبة نفيسة لكن هذه أوسع وأغنى. وقد سهل علينا الأستاذ مرجليوث رؤية كتب عربية نادرة فيها. ذكرناها في أماكنها من «تاريخ آداب اللغة». وفي مكتبة أكسفورد كتب خطية إنكليزية وأيرلندية دينية مصورة من القرن الثامن للميلاد.

منشستر: هي مدينة صناعية تكاد تكون معملًا كبيرًا لكثرة ما فيها من المعامل والمتاجر. يتوسم القادم فيها ذلك قبل وصوله إليها بما يشاهده من الدخان المتكاثف فوق أبنيتها. ولذلك كان أكثر سكن أهلها في الضواحي. وهي مثال للجد والعمل وتنافس المواهب الصناعية والتجارية. وقد أتيح لنا مشاهدة معمل للغزل بجوارها فيه نحو 100000 مغزل و20000 مغزل مزدوج و900 عامل. وتدير مغازله آلات بخارية قوتها 2500 حصان. رأينا القطن يدخل بآلات ويخرج مغزولًا خيوطًا دقيقة في غاية الضبط. ويضيق بنا المقام عن وصف تجارة هذه المدينة، وفي شهرتها ما يغني عن الإطناب. وقد سرّنا ما شاهدناه فيها من تقدُّم إخواننا السوريين فقد عرفنا منهم طائفة حسنة من كبار التجار كما شاهدنا في باريس. وبينهم غير واحد من أصحاب الثروة والتجارة الواسعة. وهم على الإجمال أهل سمعة حسنة، وقد تخلق أكثرهم بأخلاق الإنكليز من المحافظة على الوقت والصدق في المعاملة والتأني في الحكم - وهي مزية للسوري على سواه، نعني مقدرته العجيبة في تطبيق أحواله على الوسط الذي يعيش فيه. فتجده في فرنسا كأنه فرنساوي بحركاته وكلامه ومعاملته وسائر أحواله وهكذا بإنكلترا أو أمريكا. والتجار السوريون في منشستر لهم معاملات واسعة مع أبناء بلادهم في أقطار العالم شرقًا وغربًا ولعملائهم ثقة عظيمة فيهم مثل ثقتهم بالتجار الإنكليز. ومن البيوت التجارية السورية في منشستر، محلات كحلا وغبريل وجبارة ومطر ومجدلاني وخوري وحداد وفرح وبحمدوني وغيرهم.

ثالثًا - سويسرا

ضاق المقام عن الإفاضة في وصف سويسرا، وقد زرنا منها جنيف ولوزان وايفيان، وهي من أحسن مصايف العالم لوقوعها حول بحيرة من أكبر البحيرات. تحف بها الشواطئ المكسوة بالغابات الغضة والقرى العامرة. وكنا لما زرنا الآستانة منذ بضعة أعوام أدهشنا بوسفورها بما على شاطئيه من التلال المكسوة بالأشجار والقصور. وقلنا إنها فريدة في العالم، فلما شاهدنا جنيف وضواحيها إذا هي كثيرة الشبه بالبوسفور من حيث مناظره الطبيعية.

وفي جنيف بعض المتاحف والمعارض. وفيها جامعة شهيرة، وكذلك لوزان فإن جامعتها كبيرة. وأما ايفيان فقد عرفت بمائها العذب يحمل بالقناني المختومة إلى أنحاء العالم المتمدن.

ونختم كلامنا عن هذه الرحلة بفائدة اجتماعية فلسفية شاهدناها في فرناي بجوار جنيف، وهي القرية التي قضى فولتير أعوامه الأخيرة فيها، ومنزله هناك معروض للفرجة بما فيه من الأثاث والأدوات في غرفة للنوم والمكتب والمائدة، مما يبعث على التفكير في مصير الإنسان. وإنما أثر في خاطرنا على الخصوص تمثال لفولتير نصبه أهل القرية في مدخل قريتهم فوق قاعدة من الرخام نقشوا عليها بالفرنساوية ما ترجمته:

«إلى فولتير المحسن لفرناي. وقد عمَّر لأهلها أكثر من مئة بيت وبنى لهم كنيسة ومستشفى وحوضًا للماء وسبيلًا وكان يقرضهم النقود بلا ربا، وقد جفت [جفف] المستنقعات وأنشأ أسواقًا للبيع والشراء، وأطعم أهلها في مجاعة سنة 1771».

وقفنا عند هذا التمثال برهة ونحن نعيد قراءة ما نقش عليه. وإنما أدهشنا منه قوله «وبنى لهم كنيسة». والقراء يعرفون فولتير ونظره في الكنائس وما يتبعها، فكيف يبني للناس كنيسة؟ إنه لم يبنها لما يرجونه هم منها لأخراهم بل بناها لاعتقاده أنها من أهم أسباب سعادتهم، وأنهم لا يستغنون عن الدين في معاملاتهم. وفي ذلك عبرة للذين يتوهمون استغناء الناس عن الدين.

الرحلة إلى فلسطين
1913

فلسطين
تاريخها وآثارها

أولًا - فذلكة تاريخية

تشتمل فلسطين على وادي الأردن وما يليه نحو الغرب إلى شواطئ البحر المتوسط. وأشهر مدنها بيت المقدس والخليل (حبرون) ونابلس ويافا وغزة وغيرها. وقد اختلفت حدودها باختلاف الدول مما لا محل له هنا. وهي من أقدم ممالك التمدن الشرقي القديم. وقد تقلبت على أطوار تاريخية مختلفة، واشتركت في كثير من الأحوال السياسية التي انتابت مصر وفينيقية. ويقسم تاريخها إلى أعصر تبدأ قبل التاريخ وتنتهي بدخولها في سيادة العثمانيين ولا تزال.

1- أحوالها قبل التاريخ

يؤخذ من بعض آثارها البنائية أنها قضت بضعة آلاف سنة في أثناء العصر الحجري. ومن آثار هذا العصر أطلال قديمة على مقربة من بيت المقدس شمالًا تعرف بقبور بني إسرائيل. ومن أمثالها كثير في بقايا فلسطين القديمة.

وأما سكان فلسطين القدماء فأقدم من ذكرهم التاريخ الحويون والفرزيون واليبوسيون والعمالقة والمديانيون والأميميون والزوزميون والرفائيون وغيرهم ممن ذكرتهم التوراة، وإنما نعرف من أحوالهم ما جاء عرضًا في بعض النصوص، إلا العمالقة فقد بيّنّا ماهيتهم في كتاب «تاريخ العرب قبل الإسلام».

ولما جاء الإسرائيليون فلسطين في القرن الثالث عشر قبل الميلاد وجدوا فيها أناسًا طوال القامات في جوار الخليل (حبرون) سموهم الرفائيين، ومعهم

الحثيون وهم أمة ضخمة كان لها شأن عظيم في ذلك العهد حاربها الفراعنة وتغلبوا عليها. وقد عثر النقابون على آثارها في سوريا وآسيا الصغرى. وجاء في التوراة أن العبرانيين طاردوا هذه الأمم ولم يبقَ منهم إلا بقية في غزة وأشدود وغات.

وبالجملة فالأمم التي عمرت فلسطين قبل التاريخ قلما نعرف شيئًا عن أصولها، ولكن أكثرها من الساميين، بينهم قبائل من العرب نزحوا إليها من أقدم أزمنة التاريخ. ولعل بعضهم جاءها من عهد حمورابي فمن بعده إلى الأنباط قبيل التاريخ المسيحي. والمظنون أن الساميين القدماء تغلبوا على الفلسطينيين الأصليين بأسلحة من البرنز [البرونز] كانوا قد توصلوا إلى استخدامها. وكان الفلسطينيون لا يعرفون غير الأدوات الحجرية فغلبوهم على ما في أيديهم. ولم يبق إلى زمن موسى غير الرفائيين.

ويظهر من تدبر أحوال فلسطين القديمة وتفحص آثارها أنه حدثت فيها نهضة عمرانية قبل موسى ببضعة قرون، أي نحو القرن الثامن عشر قبل الميلاد، إذ عثروا على آثار من بقايا ذلك العصر بينها أدوات خزفية ليست من الآثار الوطنية. وكان الباحثون في شك من أمرها، ثم تبين لهم أنها تشبه أدوات عثروا عليها مؤخرًا في أنقاض جزائر بحر إيجه، ولا سيما كريد [كريت]. فاستدلوا بذلك وبغيره على نزول الكريديين [الكريتيين] بلاد فلسطين نحو القرن العشرين قبل الميلاد وأنهم نقلوا تمدنهم إليها.

وكان الاعتقاد الشائع أن الفينيقيين هم الذين اخترعوا أحرف الهجاء كما بيّنّا ذلك في الهلال غير مرة. لكن الاكتشافات الأخيرة في كريد وضعت شكًّا في ذلك، لأنهم وقفوا هناك على نقوش بقلم كالقلم الفينيقي أقدم مما وقفوا عليه بفينيقية بعدة قرون.

وعلى كل حال فالراجح أن التمدن الفلسطيني القديم جاءها من جزائر اليونان مع النازحين إليها من أهلها - وما زال اليونان ينزحون من جزائرهم إلى شواطئ البحر المتوسط من أقدم أزمنة التاريخ حتى الآن. وإذا كانوا قد جاءوها فاتحين فهو أقدم فتح غربي في بلاد الشرق.

2- فلسطين في سلطة العبرانيين

أما تاريخ فلسطين بعد التاريخ فأقدم ما عرف منه علاقاتها مع وادي النيل بالتجارة والسياسة في القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وعلى الآثار المصرية نقوش تؤيد ذلك، بينها أسير فلسطيني عثروا على صورته منقوشة في هيكل رعمسيس الثالث بمدينة أبو.

ثم جاء العبرانيون في زمن موسى والفلسطينيون قد أضعفهم الترف وأخذت منهم حضارة كريد كل مأخذ وآن زوالهم. فغلبهم العبرانيون واستولوا على بلادهم وأنشأوا فيها دولة اشتهر من ملوكها داود وسليمان في القرن الحادي عشر قبل الميلاد. ولكل منهما آثار في بيت المقدس سيأتي الكلام عليها. ثم انقسمت مملكتهم إلى ممالك أشهرها يهودا في أوائل القرن العاشر، ولكل منها تاريخ لا محل له هنا. وعاصمتهم الكبرى أورشليم أو القدس أو بيت المقدس.

وللعبرانيين أو اليهود تأثير خالد في أحوال العالم قديمًا وحديثًا. نعني ما خلفوه من الشرائع والتقاليد. وهي أساس أشهر أديان العالم حتى الآن. وفي أيامهم شاع استعمال الحديد في فلسطين. وظهرت الأحرف الهجائية وانتشرت في العالم المتمدن على أيدي جيرانهم الفينيقيين. وزها الأدب في زمن داود وسليمان، وكان هذان الملكان أولهما شاعر والثاني مؤلف. فإن مزامير داود من أحسن الشعر العبراني. وكتاب «الأمثال» من أفضل كتب الأدب والحكمة، غير ما لسليمان من الأقوال الشعرية في «نشيد الأناشيد» و«الجامعة» كما هو مشهور. واشتهر غيرهما في الحكمة والأدب حوالى ذلك العصر ذكروا منهم عيثان وهيمان وكلكول ودردا، وارتقت هندسة البناء في أيام العبرانيين وأحسن مثال لذلك هيكل سليمان. وقد احتفروا قناة يحمل فيها الماء من عين العذراء إلى بركة سلوان. وهناك كثير من ثمار هندسة البناء عندهم. لكنهم لم يتقدموا في الصنائع الأخرى، فصناعة الخزف ما زالت كما نقلها الكريديون تمامًا.

وكان سليمان ذا همة ومطامع فأحب الاقتداء بالفينيقيين في التجارة والاستعمار. ولم يستطع مباراتهم في البحر المتوسط فوجه عنايته إلى البحر الأحمر فأنشأ فيه أسطولًا حمل إليه الذهب من أوفير وغيرها وجاءت إليه منها ملكة سبأ.

3- من السبي إلى ظهور الإسلام

ولما انغمس العبرانيون في الترف وتبسطوا في الحضارة جاءهم الآشوريون وغلبوهم على بلادهم وحملوهم إلى بابل في أوائل القرن السابع قبل الميلاد. وظلوا في الأسر هناك نحو سبعين سنة تغيرت في أثنائها أحوالهم ونشأ منهم جيل جديد يختلف عن الأجيال السالفة فتغير لسانهم وتنوعت آدابهم. وأخذوا بعد رجوعهم إلى بلادهم يلمون شعثهم ويدبرون شئونهم فأصلحوا أورشليم، وضبط لهم عزرا الكاهن كتب الشريعة كما وصلت إلينا، ولم يمض زمن حتى جاءهم الإسكندر المكدوني فسلموا إليه سنة 333 ق.م. وأصبحوا من ذلك الحين يخضعون لمن تغلب على سوريا أو فلسطين.

فدخلوا سنة 320 ق.م. في سلطة بطليموس سوتر صاحب مصر. ثم استولى عليهم أنتغيونس صاحب الشام. وقام النزاع بين سوريا ومصر على فلسطين وانتهى بعد مائة سنة. وفي سنة 175 ق.م. عزم أنطيوخوس أبيفانس على محو ديانة اليهود، وأن يعوض عنها بآداب اليونان. فتصدى له المكابيون وحاربوه وانتهى أمرهم معه سنة 142 ق.م. باستقلال مملكة يهودا تحت سلطتهم الدينية يتولاها كاهنهم الأعظم. وما زالت كذلك إلى سنة 63 ق.م. إذ حمل عليها بومبيوس الروماني وفتحها، ثم تمكن هيرودوس بمساعدة الرومان من الاستيلاء على أورشليم. ونصب نفسه ملكًا عليها سنة 37 ق.م. تحت رعايتهم.

وتوفي هيرودوس سنة 4 ق.م. فتنازع السلطة جماعة من أهله فاغتنم الرومان تنازعهم وأيدوا سلطانهم فيها فخضع اليهود مرغمين، لكنهم ما لبثوا أن عادوا إلى الثورة فغضب الرومان وحاصروهم في أورشليم على زمن طيتس حصارًا اشتهر في التاريخ. وثبت اليهود في حصارهم هذا ثباتًا بيّناه في الهلال. ولم ينفعهم الثبات فغلبهم الرومان وهدموا بلدهم وتشتت شمل اليهود من ذلك الحين. وخضعت أورشليم للرومان خضوعًا تامًّا وما زالت في سلطتهم حتى ظهر الإسلام في أوائل القرن السابع للميلاد.

واصطبغت فلسطين في قرونها الأخيرة قبل الإسلام بالصبغة الرومانية والآداب اليونانية. وبذل الرومانيون جهدهم في طمس آداب اليهود وشريعتهم.

وهدم هدريان هيكل سليمان وبنى على أنقاضه هيكلًا باسم جوبيتير. ويقال إنه بنى هيكلًا على اسم الزهرة. وتقلبت على الهيكل أحوال أخرى سيأتي ذكرها في مكانه. وإنما نريد الإشارة إلى رغبة الرومان في اضطهاد اليهود وتذليلهم حتى أخرجوهم أخيرًا من مدينتهم، فنزحوا إلى طبرية وأقاموا فيها ودونوا هناك كثيرًا من آدابهم وأخبارهم وأحكامهم غير ما كانوا دونوه في أورشليم.

وفي فلسطين كثير من الآثار الرومانية كالطرق الحجرية وأسماء بعض البلاد مثل نابلس وبانياس وسفسطية [سبسطية] وطبرية وغيرها. ناهيك باللغة اليونانية فإنها شاعت شيوعًا عامًّا في أكثر الطبقات. وانتشرت الصناعة اليونانية، وخصوصًا الفسيفساء في أكثر الأبنية بالمدن والقرى.

وفي أثناء ذلك ظهرت النصرانية وتنصر إمبراطور القسطنطينية وأخذ المتنصرون يحجون من أوربا إلى أورشليم، وفي مقدمتهم الإمبراطورة هيلانة، وهي التي اكتشفت قبر المسيح وعيّنت مكانه سنة 326م، وأقدم من كتب خبر ذلك رحالة مجهول الاسم جاء من بوردو سنة 333م ووصف ما شاهده في بيت المقدس من الآثار. ولما انقسمت المملكة الرومانية إلى قسميها الشرقي والغربي سنة 394م دخلت فلسطين في القسم الشرقي وتحولت صبغتها اليهودية إلى صبغة مسيحية وتكاثرت فيها الكنائس والأديار، ولا سيما في زمن جستنيان نصير النصرانية ومحيي معالمها. ولم يحدث في أورشليم في أثناء ذلك ما يكدر الأهلين إلا حمل كسرى أنو شروان على فلسطين سنة 616 ثم عاد عنها، وما زالت في حوزة الروم حتى فتحها المسلمون.

فلسطين بعد الإسلام

استولى المسلمون على فلسطين في صدر الإسلام. وقد دخلت أورشليم أو بيت المقدس في حوزتهم صلحًا، ويختلف استيلاؤهم عليها عن سائر بلاد سوريا وفلسطين أن أهلها لم يرضوا بتسليمها إلا بوجود عمر بن الخطاب، فجاء الإمام عمر بنفسه من المدينة إلى أورشليم وعقد الصلح على يده، وأصبحت أورشليم في حوزة المسلمين من ذلك الحين.

ولما استولى المسلمون على فلسطين تنفس اليهود الصعداء وعادوا إلى الاطمئنان وكانوا عونًا للعرب في ذلك الفتح لأنهم كانوا ناقمين على الروم. لكنهم قاسوا بعض الاضطهاد من بعض الخلفاء أو السلاطين أو الأمراء.

وتوالى على بيت المقدس ما توالى على غيره من بلاد الشام في حوزة المسلمين، وظلت كنيسة القبر المقدس في أيدي النصارى كما كانت قبلًا. لكن المسلمين استخدموا هيكل سليمان فبنوا في وسطه قبة عظيمة عرفت بقبة الصخرة. بناها أولًا عبد الملك بن مروان ثم جددها غيره ولا تزال باقية إلى الآن. وبنوا في جانب آخر من الهيكل مسجدًا سموه المسجد الأقصى وسنعود إلى وصفهما[1].

وأهم ما حدث هناك بعد الإسلام «الحروب الصليبية»، وهي عبارة عن اتحاد ملوك أوربا وأمرائها في الأجيال الوسطى وحَمْلهم على الشرق لتخليص القبر المقدس من أيدي المسلمين، فاجتمعت كلمتهم على هذا العمل رغم ما كان بينهم من التنازع والتخاصم. كما اتحدت كلمة عرب الجاهلية في نصرة الإسلام بعد أن كانوا قبائل متفرقة. لكن الإفرنج لم يطل نجاحهم ولا ثبتت قدمهم لأسباب كثيرة، من أهمها أنهم لم يخلصوا في اتحادهم ولا كانت لهم أخلاق أولئك العرب. فتح الإفرنج بيت المقدس وأقاموا فيه نحو قرن حتى أخرجهم منه صلاح الدين سنة 1187م، ولم يتم خروجهم من فلسطين كلها إلا سنة 1248م، وقد خلفوا فيها كثيرًا من الآثار البنائية والآداب اللاتينية ولا تزال آثار ذلك ظاهرة هناك حتى الآن.

وعادت فلسطين بعد خروج الصليبيين إلى الدولة الأيوبية ومن خلفها من السلاطين والمماليك بمصر. وما زالت في حوزتهم حتى فتحها العثمانيون سنة 1516م على يد السلطان سليم الفاتح، وأصبحت من ذلك الحين ولاية عثمانية ولا تزال.

على أنها قاست في أثناء سيطرة العثمانيين، كلها أو بعضها، منازعات بسبب بعض رجال المطامع طلاب السيادة مثل فخر الدين المعني، وعلي بك الكبير، وأحمد باشا الجزار، والشيخ ظاهر العمر، ونابليون الأول، وإبراهيم باشا ابن

(1) لم تنجح جميع أعمال التنقيب في القدس في الكشف عن آثار تؤكد صحة هذه الفرضية (م).

محمد علي وغيرهم مما لا محل له هنا. وآخر ما أصابها من الطوارئ الاجتماعية والاقتصادية قدوم الإرساليات الدينية النصرانية لإنشاء المدارس ونشر التمدن الحديث. ثم عود اليهود إلى استعمارها.

ثانيًا - آثارها

أكثر بلاد فلسطين آثارًا القدس وأكثر آثارها دينية. ولها أهمية كبرى لأنها حج أرباب الأديان الإلهية الكبرى من أقصى العالم. فنبدأ بها ونقدم الكلام بفذلكة في إقليمها وموقعها.

القدس - إقليمها

هي أشهر مدن العالم لقدم عهدها ودخولها في التاريخ المقدس وعلاقتها بأديان الأمم المتمدنة. وهي أورشليم التوراة وتدعى أيضًا بيت المقدس والبيت المقدس. ولها تاريخ طويل جاء ملخصه في كلامنا عن تاريخ فلسطين في الهلال الماضي. وكنا قبل شخوصنا إليها ونحن في يافا نتوقع أن نلقاها حارة الإقليم قياسًا على ما نعرفه من المدائن السورية وهو الغالب في مدن السواحل، وإنما جذبنا إليها ما حوته من الآثار المهمة، فركبنا إليها القطار الحديدي من يافا ولم نكد نتوسط الطريق حتى رأينا القطار يجري صعودًا في جبال كثيرة الشبه بجبال لبنان، وقد هب النسيم عليلًا منعشًا كائنا [كأننا] بين عاليه وبحمدون. وشكل الجبال في هذا الطريق كثير الشبه بما في لبنان، وفيها الفاكهة من العنب والتين والخوخ وسائر الأثمار، وإن كانت في حاجة إلى العناية لاستثمارها مما سنعود إليه في كلامنا عن الحالة الاقتصادية.

أشرفنا على القدس فإذا هي واقعة على مرتفعات جبلية حولها أودية شهيرة في التاريخ. وتحيط بالأودية جبال أسماؤها على ألسنة الأطفال في المدارس لكثرة ورودها في التوراة. فاستلفت انتباهنا أولًا لطافة نسيمها وجفاف إقليمها.

ولا عجب فإنها مرتفعة عن سطح البحر مثل ارتفاع عاليه في لبنان. فيرى المصريون فيها مصيفًا جميلًا لا يخافون فيه حرًّا. وإنما يفضلها لبنان بالمياه المتدفقة في الصهاريج من مياه المطر، والينابيع نادرة فيها.

والمدينة على مرتفع، أصله بضعة تلال، لكنه الآن كالتل الواحد مكسوّ بالأبنية. ويحيط بالمدينة من أكثر جهاتها الأودية إلا من الشمال حيث امتدت الأبنية الحديثة. فيليها من الجنوب والغرب وادي ابن هنوم ويسمى وادي الرباب. وفي الشرق وادي قدرون أو وادي ستي مريم ووادي يهوشافاط، وأشهر الجبال المحيطة بتلك الأودية جبل الزيتون في الشرق، يفصله عن القدس وادي قدرون ووادي ستي مريم.

والقدس القديمة تشبه المربع المنحرف محاطة بسور من بناء السلطان سليمان القانوني في أواسط القرن العاشر للميلاد. ارتفاعه 38 قدمًا ومحيطه نحو ميلين ونصف. له ثمانية أبواب بعضها مقفل منذ أجيال. وشوارع المدينة ضيقة مرصفة بالحجارة على طريقة الترصيف في ذلك العصر. وهي مقسومة إلى أحياء باعتبار الطوائف والعناصر. ولكل منزل صهريج تجمع فيه مياه الأمطار. وقد أخذ أهل هذا العصر بالبناء خارج السور. وأكثر أبنيتهم في الشمال وما يليه، بينها قصور وحدائق على النمط الحديث. وأهم أبنيتها الأديار والمعابد والمزارات، حتى يصح أن يقال إنها «معبد كبير».

سكانها عددهم نحو 90000 نفس، منهم 70000 إسرائيليون ونحو 12000 من المسلمين و18000 من المسيحيين بوجه التقريب، يقسمون إلى أمم شتى. وسنعود إلى ذلك في كلامنا عن الحالة الاجتماعية والعلمية.

آثارها

وفي القدس آثار كثيرة حتى تكاد لا تجد مكانًا فيها ليس له ذكر تاريخي في التوراة أو غيرها. وكثير من روايات القوم عن تلك الآثار يحتاج إلى تحقيق لا محل له هنا. وأشهر الآثار وأهمها كنيسة القيامة حج المسيحيين والحرم الشريف حج المسلمين، فنقدم الكلام فيهما:

كنيسة القيامة

هي بناء قديم ضخـــم واقع في نحو منتصـــف المـــدينة القديـــمة مع ميل قليل نحو الشمال والغرب. وقد اشتهـرت هـــذه الـــكنيسة وزادت أهميـــتها لـــوجود قبر المسيح

فيها ويسمى القبر المقدس. والعلماء مختلفون في هل هو قبر المسيح حقيقة؟ أي هل هذا هو المكان الذي قبر فيه المسيح بعد صلبه كما جاء في الأناجيل؟ وأما العامة فإنهم على ما تسلموه من آبائهم بلا بحث. وقد تسلل هذا الاعتقاد من زمن الملكة هيلانة والدة الملك قسطنطين، لأنها جاءت إلى القدس وبحثت عن قبر المسيح فوجدت الصليب وبنت كنيستين هناك سنة 336 م، وتوالى على هذا القبر وما بني حوله من الكنائس والمزارات تاريخ طويل.

فلما أطلقت الأفكار والأقلام في المدينة الحديثة كانت مسألة القبر من جملة ما طرح على بساط البحث. ولا يزال الاختلاف سائدًا. وحجة المنكرين أنه القبر الحقيقي أن المسيح دفن خارج أورشليم وكانت قديمًا أكبر مما هي الآن كثيرًا. والقبر الآن في أواسطها فكيف يكون هو نفسه؟ وأخذت طائفة منهم يبحثون عن مكان القبر الحقيقي فذهبوا مذاهب مختلفة، وأصحاب القول بأنه القبر الحقيقي يوالون البحث في هذا السبيل أيضًا. ولا يتسع المجال لتحقيق هذا الأمر هنا فنكتفي بوصف القبر وما يحيط به.

كنيسة القيامة بناء كبير مؤلف من القبر المقدس وعدة كنائس ومصليات ومزارات وغيرها. بعضها للروم الأرثوذكس والبعض الآخر للاتين أو الأرمن أو القبط أو غيرهم. وقد رسمنا أجزاء القيامة رسمًا هندسيًا لتتضح نسبتها بعضها إلى بعض. ونبدأ بالباب الخارجي من جهة الجنوب.

أول شيء يراه المقبل على هذه الكنيسة واجهتها الجنوبية، وبين يديها ساحة مرخمة ببلاط ضخم يظهر من بقاياها أنها كانت كالرواق العريض القائم على الأعمدة. وهي مربعة الشكل ومستطيلة. ضلعها الشمالي واجهة الكنيسة وهو يقابل القادم إليها. والجنوبي يلي الطريق، عليه بقايا أعمدة من رخام. وضلعها الشرقي إلى يمين المقبل وفيه دير إبراهيم ومصلى الأرمن وكنيسة القديس مخائيل للقبط، وضلعها الغربي من كنائس القديس يعقوب ومريم المجدلية والأربعين شهيدًا غيرها.

وأما الواجهة ففيها بــاب يُدخــل منــه إلى الكنيسة عليه نقوش رومــانية وعربية. وبعد دخول الباب إلى اليـــسار مقعد يجلس عليه خفراء مسلــمون مــن قبل الحكومة.

وأول شيء يقابل الداخل حجر مربع ومستطيل طوله سبعة أقدام وعرضه قدمان، لونه أصفر محمر يسمّى حجر الدهن أو المسح. يقال إن جسد المسيح وضع عليه وحنطه نيقوديموس. وعلى مسافة 33 قدمًا نحو الغرب حجر آخر يقال إن النساء وقفن عنده وقت التحنيط. وقد تداول امتلاك حجر المسح أو الدهن طوائفُ مختلفة من النصارى. فكان في القرن الخامس عشر خاصًا بالأقباط. وفي القرن السادس عشر صار إلى الجورجيين (الأرمن)، ودفع اللاتين 5000 غرش لنيل حق إيقاد المصابيح فوقه. ثم صار إلى اليونان، لكن الطوائف الأخرى لها حق إيقاد الشموع أو المصابيح فوقه. فتجد هناك عدة مصابيح للأرمن واللاتين والروم والأقباط.

القبر المقدس

ويمشي الزائر نحو اليسار بضع عشرة خطوة إلى بقعة مستديرة في وسطها بناء عال فوقه قبة، قطره 65 قدمًا ويحتوي على القبر المقدس. والبناء المذكور مبني من قديم الزمان لكن الموجود الآن منه تم سنة 1810، وهو قائم على 18 عمودًا متصلة من أعلاها بأقواس في أتقن ما يكون. واجهته التي فيها الباب متجهة نحو الشرق مقابل الكنيسة الخاصة بالروم الأرثوذكس.

وإذا ما تأملت تلك الواجهات أدهشك كثرة ما فيها من أدوات التكريم والتعظيم، كالقناديل والمصابيح الذهبية والشموع الضخمة والرايات المقدسة والصور عليها الحليّ من الذهب والفضة تملأ الواجهة إلى أعلاها. وفي أسفل تلك الواجهة مدخل ذلك البناء إلى الضريح، يستطرق إلى فسحة كالغرفة، طولها 26 قدمًا وعرضها 17 قدمًا مثمنة الشكل جدرانها من الرخام. تم بناؤها سنة 1810 وهي تنتهي إلى حجرة تسمّى مصلّى الملائكة، طولها 11 قدمًا وعرضها 10 أقدام مصفحة بالرخام. وقد تعلق في سقفها قناديل من ذهب عددها 15 قنديلًا، خمسة منها لليونان وخمسة للاتين وأربعة للأرمن وواحد للأقباط. وفي وسط هذا المصلى حجر يعتقدون أنه الحجر الذي دحرجه الملاك عن القبر.

ويُدخل من هذا المصلى في باب ضيق إلى حجرة الضريح وفيها القبر نفسه، طوله ستة أقدام ونصف وعرضه نحو أربعة أقدام، وسطحه من رخام جميل.

وسقف الضريح قائم على أعمدة، ويتدلى منه 43 قنديلًا من الذهب منها 4 للأقباط والباقي مقسوم بين الطوائف الأخرى على السواء. وعلى جدران تلك الحجرة نقوش تمثل بعض حركات المسيح، كل منها لطائفة من الطوائف المشتركة في تكريم هذا المكان. وفي هذه الحجرة تتلى الصلاة كل يوم، وهو أقدس مكان في كنيسة القيامة.

وفي سفر لوقا أن المسيح دفن في قبر من حجر. ويقال إن هيلانة لما بحثت عن قبر المسيح وجدت هناك كهفًا بَنَتْ فوقه مصلّى. ولما ملكَ الصليبيون بيت المقدس كان شكل المكان مستديرًا وفيه حجرتان، الخارجية منهما مصلّى الملائكة والداخلية فيها القبر. ويؤخذ من التقاليد المتوارثة أن ذلك البناء تهدم سنة 1555 حتى انكشف القبر ووجدوا فيه قطعًا من خشب الصليب، فأعيد البناء سنة 1719 ثم أصابه حريق سنة 1808 فأعيد بناؤه سنة 1810.

وحول البناء المشار إليه خلاء مرصف بالرخام تحيط به أبنية الكنيسة، ووراءه الأبواب والدهاليز المؤدية إلى سائر أجزائها. ولما كان القبر هو أقدس مكان هناك اتفقت الطوائف المسيحية على الاجتزاء من قربه أو الحصول على مكان يمكّن أبناء كل طائفة من الوقوف فيه عند الاحتفال بانبثاق النور في يوم سبت النور. والنور في ذلك اليوم يخرج للناس من كوّة في جدار القبر، فيقتبسون منه بشموع أعدوها في أيديهم. فإذا أضيئت تبركوا بلهيبها فيدنونه من وجوههم أو ثيابهم على نسبة إيمانهم وصحة اعتقادهم. والروسيون أكثر الحجاج إيمانًا فيتقدم أحدهم وبيده شمعة أو شمعات يدنيها من النور الخارج من الكوة، فإذا أضاءت أدار لهيبها حول وجهه وأدخلها تحت ثيابه وهو لا يخشى احتراقًا. وللباحثين آراء مختلفة في كيفية تكوّن ذلك النور، أما المؤمنون فيعتقدون أنه يخرج من القبر المقدس. وليس من شأننا الخوض في هذا الموضوع.

الاختصام والتنازع

والخـــــلاء المذكـــــور حـــول الـــقبر اقتـــسمته الطـــوائف الـــنصرانية بـــــينها. منه مصلى محدود بالدرابزين في قفا القبر، أي في الغرب، هو خاص بالأقباط من القرن

السادس عشر، فالأقباط يقفون في يوم سبت النور هناك. وقس على ذلك مواقف سائر الطوائف وهم الروم الأرثوذكس والأرمن والسريان، لكل منها بقعة مخصصة لها. ولا يسمح لطائفة أن تتعدى حدودها، ومن تجاسر على ذلك منعه جاره المعتدى عليه. وكثيرًا ما يحتدم الخصام ويتضاربون بالعصي والخناجر في هذا السبيل. وقد يتضاربون عند كَنْس تلك المواقف أو تنظيفها. فلا يؤذن للطائفة أن تكنس غير الجزء المختص بها. فإذا مست المكنسة جزءًا من موقف الجار نبّهه هذا، فإذا لم يذعن منعه بالقوة. كأن تنظيف المكان يجعل للمنظف حقًّا في تملكه، من قبيل وضع اليد!

وقد سمعنا حكايات من هذا القبيل ينكرها السامع لأول وهلة لغرابتها ولكن التواتر يؤيدها. وأغرب من ذلك تنازعهم على ما هو غير مقسوم من أجزاء البناء، كالجدران والأعمدة والسقوف، فهذه لا تخص طائفة دون أخرى، فإذا وقعت أيقونة كانت معلقة على أحد الجدران تخاصموا على من يعلقها في مكانها، وإذا تهدم جزء اختصموا في من يرممه من الطوائف. إذ لا يجسر أحد على أن يفعل ذلك وحده، وكثيرًا ما يبقى ذلك النقص أشهرًا أو أعوامًا حتى تعقد المجالس المشتركة أو تتداخل الحكومات في الإقرار على إصلاحه. وقد وقع خصام من هذا النوع في أواسط القرن الماضي فكان من جملة الذرائع التي جرّت الدول النصرانية إلى الاختصام في حرب القرم.

وقد شاهدنا في مغارة بيت لحم شباكًا واقعًا في كنيسة، لكل طائفة من الطوائف جزء منها فيه قد تراكم نسيج العنكبوت على زجاجه وكساه الغبار. ورأينا أرض الكنيسة نظيفة فسألنا عن سبب بقاء ذلك الشباك مهملًا، فأجابوا لأنه لا يخص طائفة دون أخرى فلا تتجاسر واحدة منهن على تنظيفه دون أن تتعرض لغضب جارتها. وقد يشتد الخصام حتى ينجلي عن الجرحى والقتلى، ولذلك فإن الحكومة أقامت الخفر من الجند يبيتون هناك منعًا لهذه الأخطار.

وقس على ذلك تنازعهم في سائر أماكن المزارات المشتركة. وقد باحثنا بعض العقلاء في سبب ذلك النزاع ولماذا لم تتفق الطوائف المشتركة في مزار على اقتسامه بخريطة تعين فيها حدود كل طائفة. ثم لا يتنازعون عند كنسه أو تنظيفه إذ

يكون حق كل منهن مبينًا في الخريطة، فاستصوبوا ذلك لكنهم قالوا إن الطوائف لا تقبل به. ويلوح لنا أن التي لا تقبل إنما هي الطوائف أصحاب الحصص الصغرى في تلك الأماكن ولا تزال ترجو أن تزيد حصتها بوضع اليد أو المغالطة، مما لا يليق البقاء عليه في هذا العصر. وقد آن لعقلاء هذه الطوائف أن يضعوا حدًّا لهذا الأمر فإنه سخرية يضحك منها النصارى أنفسهم فكيف سواهم؟

مزارات أخرى

وفي كنيسة القيامة كنائس ومصليات وتذكارات عديدة يضيق المكان عن شرحها. أهمها كنيسة الروم الأرثوذكس، مدخلها يقابل واجهة قبة القبر المقدس. فيها كثير من زخارف التحف. في وسطها مكان يعتقدون أنه مركز العالم أو نصف الدنيا. وهو اعتقاد قديم وتنوقل بالتقليد. وفيها عرشان كبيران يجلس على أحدهما البطريرك الأنطاكي وعلى الآخر البطريرك الأورشليمي.

وهناك حجرة للاتين فيها أوان، بينها تحف كنائسية قديمة أورونا [أرونا] منها سيف جودفرا دي بولون [بويون] صاحب بيت المقدس في زمن الصليبيين ومهمازه وصليبه. طول السيف قدمان و8 قراريط. غير المصليات للطوائف الأخرى وأماكن أثرية، أهمها الجلجثة [الجلجلة] وبنوا فيها كنيسة ترتفع عن أرض كنيسة الروم 14 قدمًا. ويعتقدون أن هناك جبل الجلجثة الذي صلب عليه المسيح قبل دفنه.

الحرم الشريف

هو أثر تاريخي هام، له تاريخ طويل يجدر بنا التنبيه إليه ووصف حدوده تمهيدًا لذكر ما حواه من الآثار.

يراد بالحرم الشريف في بيت المقدس بقعة من الأرض تشغل قسمًا كبيرًا من هذه المدينة. ربما بلغت سدس مساحتها كلها. شكله يشبه المربع المستطيل. تتألف منه الزاوية الشرقية الجنوبية من المدينة. طوله من الشمال إلى الجنوب 530 مترًا وعرضه 345 مترًا.

يحدّه من الشرق سور المدينة ووراءه وادي قدرون. ومن الجنوب سورها أيضًا. ومن الشمال والغرب أبنية أخرى. وفي ساحة الحرم كثير من الأبنية الأثرية أهمها قبة الصخرة والمسجد الأقصى.

والحرم الشريف - أعني الساحة المتقدم ذكرها - ما برحت مكانًا مقدسًا من أقدم أزمنة التاريخ. فيها نصب اليهود خيمة الشهادة في القرن الخامس عشر قبل الميلاد. وفيها بنى داود مذبحًا وأصعد عليه المحرقات للرب في القرن العاشر قبل الميلاد. وكانت يومئذ بيدرًا لرجل يبوسي اسمه أرونا ابتاعه داود منه بخمسين مثقالًا من الذهب وبنى المذبح عليه (صموئيل الثاني 24:18-25).

هيكل سليمان

ولما صار الملك إلى ابنه سليمان وأراد بناء هيكله الشهير اختار له هذه البقعة وبناه فيها وهو المعروف بهيكل سليمان. وقد جاء خبر بنائه وتفصيله في أماكن كثيرة من التوراة. ففي صموئيل الثاني (الأصحاح 2) «وأمر سليمان ببناء بيت لاسم الرب وبيت لملكه. وأحصى سليمان سبعين ألف رجل حمالين، وثمانين ألف رجل يقطعون الحجارة في الجبل، وثلاثة آلاف وست مائة رجل يناظرون عليهم. وأرسل إلى حيرام ملك صور قائلًا: كما فعلت مع داود أبي وأرسلت إليه أرزًا ليبني بيتًا يسكن فيه تفعل معي فإني أبني بيتًا لاسم الرب إلهي...»[2].

ثم جاء على تفصيل البناء وأجزائه وما دخل في ذلك من الذهب والفضة والنحاس والحديد والأرجوان والقرمز والسمنجوني، ومن الأرز والسرو والصندل، واستقدام النقاشين وغيرهم، إلى أن قال «وشرع سليمان في بناء بيت الرب في أورشليم في اليوم الثاني. وكانت الأسس التي وضعها ستين ذراعًا طولًا وعشرين ذراعًا عرضًا والرواق من أمام عشرين ذراعًا طولًا على محاذاة عرض البيت ومائة وعشرين سُمكًا. وغشّاه من داخل بذهب نقي، والبيت العظيم ألبسه خشب سرو، ثم ألبسه ذهبًا خالصًا، وجعل عليه نخيلًا وسلاسل، ورصّع البيت بحجارة كريمة للزينة. وكان الذهب من ذهب فروائيم. وألبس البيت روافده

(2) الصحيح أن هذا النص ورد في سفر أخبار الأيام الثاني (2:1-4) - م.

وأعتابه وجدرانه ومصاريعه ذهبًا، ونقش كروبيم على الجدران. وصنع بيت قدس الأقداس على محاذاة عرض البيت عشرين ذراعًا طولًا وعشرين ذراعًا عرضًا، وألبسه ذهبًا خالصًا ست مائة قنطار. وكان وزن المسامير خمسين مثقالًا من ذهب. وألبس العلالي ذهبًا وصنع في بيت قدس الأقداس كروبين صنعة ممثلين وغشاهما بذهب». ثم ذكر أجزاء البناء وفصل ما دخل فيه من الزينة، وذكر أيضًا البناء الذي شاده لنفسه مطولًا في التوراة المتداولة بين أيدي الناس فلا حاجة إلى ذكره.

ماذا تقلّب على الهيكل

وقد مرّ على هذا الهيكل أحوال مختلفة. نهبه شيشاق [شيشنق] سنة 971 ق.م. ورممه يوآش سنة 856 ق.م. ودنسه أحاز سنة 740 ق.م. ثم رممه حزقيا سنة 726 [ق.م.] لكنه ما زال قائمًا حتى سطا الآشوريون على بيت المقدس بقيادة نبوخذ نصر فهدموه وساقوا اليهود إلى بابل، وهو السبي المشهور في القرن السادس قبل الميلاد. فلما عادوا من السبي أخذوا في ترميمه أو تجديده. ثم سطا عليهم أنطيوخوس فنهبه، فعادوا إلى ترميمه وتجديد بنائه فجددوه على يد هيرودس سنة 18 قبل الميلاد. وأخيرًا هدمه طيتس سنة 70م وتشتت اليهود. وفي سنة 133م أعاد الإمبراطور هدريان بناء الهيكل في جملة ما أعاده من بناء المدينة. وأنشأ فيه معبدًا لجوبتير إلهه. ولما تنصر إمبراطوروا [أباطرة] الرومان خفت وطأة الضغط عن اليهود فأذنوا لهم في بناء هيكلهم لكنهم لم يستطيعوا ذلك. حتى إذا صار العرش الروماني إلى يوستنيان الشهير في القرن السادس للميلاد، وهو نصير النصرانية ومشيد الكنائس، كان في جملة مساعيه أنه رمم هذا الهيكل وبنى فيه كنيسة وحوّل هيكل جوبتير إلى معبد مسيحي. فلما فتح المسلمون بيت المقدس في صدر الإسلام بنوا فيه قبة الصخرة والمسجد الأقصى. وعرف بالحرم الشريف ولا يزال إلى الآن.

آثار هيكل سليمان

والحرم الشريف واقع في نفس البقعة التي كان فيها هيكل سليمان. ولم يبق من آثار ذلك الهيكل ما يستحق الذكر. وقد حاول النقابون درس أسس ذلك الهيكل وشكله وكيف كان وضعه، واختلفوا في ذلك اختلافًا كثيرًا حتى أتيح

للدكتور شيك درس هذا الموضوع في القدس. وتصور أجزاء الهيكل كما بناه سليمان وشكله لما بناه هيرودس ثم هدريان وشكله لما بناه المسلمون، ووضع مثالًا لكل من هذه الأشكال كما كان في زمن كل منهم. واصطنع ذلك قطعًا من خشب بالأشكال المطلوبة ورتبها كالبناء تمامًا. وفي الشكل الأول صورة مثال هيكل سليمان نفسه كما اصطنعه الدكتور شيك.

طول هذا المثال الخشبي تسعة أقدام وعرضه خمسة أقدام ونصف وعلوه عشرون قيراطًا. وقد أخذ الرسم من الزاوية الجنوبية الشرقية وهي الزاوية السفلى الظاهرة في الرسم.

تليها إلى اليسار الزاوية الجنوبية الغربية وتقابلها في الأعلى واليسار الزاوية الشمالية الغربية تليها إلى اليمن الزاوية الشمالية الشرقية. فإذا تصورت ذلك هان عليك أن تتصور الهيكل المذكور وما يحيط به من الأبنية. تأمل هذا الرسم فتجد مكان الهيكل على مرتفع يصعد إليه بسلّمين، أحدهما عند الزاوية الجنوبية الغربية والآخر عند الزاوية الشمالية الشرقية. ويشتمل هذا الشكل على صورة الهيكل وقصر سليمان وأبنيته وأسوار وشوارع.

أما الهيكل فهو المربع الواقع أسفل الزاوية الشمالية الغربية في القسم الغربي في النصف العلوي لهذا الرسم. فإنك ترى هناك بناءً مربعًا يليه من الجنوب ساحة كبيرة، ويحيط بالبناء والساحة جميعًا رواق ضخم، عليه من الجنوب والغرب أبراج هو [هي] سور الهيكل. والبناء المربع هو الهيكل. والساحة في الجنوب صحن الهيكل الخارجي. وترى داخل المربع فراغًا في شرقيه هو صحن الهيكل الأوسط. وفراغًا آخر في الغرب هو الصحن الداخلي وفيه المذبح. وبين هذين الصحنين حائط فيه باب كبير. ووراء الصحن الداخلي غربًا البناء الرئيسي للهيكل أو قدس الأقداس وفيه الكروبيم وتابوت العهد. ووراء سور الهيكل من الشرق شارعان وسوران. الخارجي منهما جزء من سور أورشليم القديم وعليه الأبراج. وأسفل سور الهيكل من الجنوب أبنية عديدة هي قصور سليمان ورجال حاشيته ونسائه.

الهيكل نفسه

وأما الهيكل نفسه فهو عبارة عن المربع الذي تقدم ذكره في النصف العلوي من الرسم نحو الغرب، يحيط به من الجنوب الصحن الخارجي ويسمى صحن الأمم (الخوارج). ومن الشرق الجانب الشرقي من الرواق. والهيكل المشار إليه بابُه الخارجي في الشرق، يصعد إليه من الرواق الشرقي في درجات، فإذا دخلت من ذلك الباب وصلت إلى الصحن الأوسط ويسمى صحن بني إسرائيل. وفي غربيه حائط في وسطه باب مرتفع يُتّصل منه بدرجات إلى الصحن الداخلي وهو صحن الكهنة. وفي هذا الصحن بناء عظيم الارتفاع هو الهيكل الرئيسي أو قدس الأقداس. وبين يديه في الصحن المذبح الذي كانت تقرب عليه الذبائح أو المحرقات. وهو في الرسم بقعة صغيرة سوداء. وأما قدس الأقداس فلا يدخله إلا رئيس الكهنة وفيه تابوت العهد والكروبيم ومذبح البخور وغير ذلك. ووراء الهيكل نحو الشمال برج مستدير.

فلما تهدم هذا الهيكل أعاد هيرودس بناءه كما كان، لكنه غيّر وبدل في قصور سليمان وفي البرج الواقع في الشمال. وأما هدريان فإنّه غيّر كثيرًا من بناء الهيكل نفسه إلى نحو ما صار إليه الآن. جعل في وسطه قبة تشبه قبة الصخرة وفي أسفله نحو الجنوب معبده الذي غيّره يوستنيان إلى كنيسة كما تقدم. فلما تملكه المسلمون بنوا فيه المسجد الأقصى والقبة كما ترى في الشكل الثاني. وقد وضعنا أرقامًا على أهم الأماكن لسهولة معرفتها.

والحرم ساحة جميلة واسعة لا يدخلها اليهود، لئلا تقع أقدامهم على مكان قدس الأقداس من هيكل سليمان ومكانه غير معروف. وللحرم سبعة أبواب يمكن الدخول منها إليه. ويشتمل على عدة أبنية أهمها المسجد الأقصى وقبة الصخرة. وقد رأينا في روايات العرب عنها أنهم يسمّون الحرم كله «المسجد الأقصى»، ويعدّون قبة الصخرة والقباب الأخرى واقعة في صحنه. وأما الآن فالساحة كلها تسمى الحرم الشريف ويعدّون المسجد الأقصى وقبة الصخرة جزءين مستقلين.

تاريخ بناء الحرم

المشهور أن باني المسجد الأقصى وقبة الصخرة هو عبد الملك بن مروان. ويذكرون في سبب بناء المسجد أن الإمام [الخليفة] عمر بن الخطاب لما جاء بيت المقدس لعقد الصلح مع أهلها على التسليم صلّى هناك. وأمر رجاله أن يتخذوا في ذلك المكان مصلى للمسلمين فاتخذوه كما سيأتي.

ولما تولى عبد الملك بن مروان بنى المسجد الأقصى. وفي ابن الأثير أن الوليد بنى المسجد المذكور، فلعله أتم بناءه.

قالوا: «والمسجد الأقصى واقع في قرنة البلد الشرقية نحو القبلة. أساسه من عمل داود. طول الحجر عشرة أذرع أو أقل. وقد بنى عليه عبد الملك بحجارة صغار حسان وشرفوه. وكان أحسن من جامع دمشق، لكن جاءت زلزلة في أيام بني العباس فطرحته إلا حول المحراب. فلما بلغ الخليفة خبره أراد رده مثلما كان، فقيل له تعي [تعيا] ولم [لا] تقدر على ذلك. فكتب إلى أمراء الأطراف والقواد يأمرهم أن يبني كل واحد منهم رواقًا. فبنوه أوثق وأغلظ صناعة مما كان، وبقيت تلك القطعة شامة فيه. وهي إلى حذاء الأعمدة الرخام، وما كان من الأساطين المشيدة فهو محدث». قالوا و«كانت وظيفته كل شهر مائة دينار وفي كل سنة ثمانمائة ألف ذراع حصراء. وخدَمُهُ مماليك له أقامهم عبد الملك من خُمس الأسارى ولذلك يسمونه الأخماس لا يخدمه غيرهم ولهم نوب يحفظونها».

وهم يريدون بالمسجد الأقصى الحرم كله. ثم اشترك الخلفاء في ترميم هذه الأبنية والزيادة فيها حسب الاقتضاء. ففي زمن المقتدر العباسي أمرت أمه (سنة 301 هـ) بصنع أبواب قبة الصخرة من خشب التنوب - وهو نوع من الخشب يشبه الصنوبر يؤتى به من الخارج.

وقد جدد في المسجد والصخرة كثير من الخلفاء والسلاطين آخرهم السلطان سليمان القانوني. وسنشير إلى ذلك في أثناء وصف تلك الآثار فيكون أوقع في النفس وأرسخ في الذهن.

فنبدأ بوصف قبة الصخرة ثم نصف المسجد الأقصى وأخيرًا سائر أبنية الحرم.

1- وصفها من الخارج

أرض الحرم مبلطة ببلاط ضخم، في وسطها نحو الغرب دكة مربعة حولها رواق كالسور على أعمدة يُصعد إليها بالسلالم. وفي وسط الدكة قبة كبيرة هي قبة الصخرة وبجانبها نحو الشرق قبة صغيرة اسمها قبة السلسلة. وقباب أخرى نحو الشمال اسمها قبة المعراج وقبة النبي وقبة الأرواح. أهمها قبة الصخرة ويسميها الإفرنج خطأ جامع عمر. ولزيادة الإيضاح في الوصف تقسم [يُقسم] هذا البناء إلى ثلاثة أقسام كما تراه في الشكل.

(1) الطبقة السفلى، (2) المنطقة المستديرة فوقها، (3) القبة نفسها. ونبدأ في وصفها من الخارج. فالطبقة السفلى بناء فخيم جدرانه مثمنة الأضلاع فيها أربعة أبواب طول الضلع الواحد 77 قدمًا وبعض القدم. أسفلها مصطفح [مصفح] بالرخام وأعلاها مغشى بالقيشاني من أيام السلطان سليمان القانوني سنة 1561م في غاية الجمال لتناسب ألوانه. ويحيط بالبناء آيات من القرآن. منقوشة كالطنف. وفي كل ضلع سبعة شبابيك إلا الجدران التي فيها الأبواب ففي كل منها ستة شبابيك. ويظهر من هندستها أنها من صنع القرن السادس عشر.

والأبواب الأربعة، يسمى الشمالي منها باب الجنة والغربي الباب الغربي والجنوبي باب القبلة، وهو الذي يؤدي إلى المسجد الأقصى، والشرقي باب السلسلة أو باب داود.

وعلى عتبات هذه الأبواب نقوش كتابية جاء فيها أن باني هذه القبة «عبد الله الإمام [الخليفة] المأمون» لكن تاريخ البناء في الداخل يدل على أنه بني سنة 72هـ في زمن عبد الملك بن مروان فالظاهر أن المأمون هو مجدد البناء أو مرممه.

والطبقة الثانية أو المنطقة حائط مستدير فوق البناء المثمن، فيه طاقات كبار من زجاج ملون ومذهّب.

وفوق المنطقة القبة وهي عالية جدًّا ملْبسة بالصّفر المذهب. إذا أشرقت

عليها الشمس تلألأت وظهرت من بعيد. وهي مؤلفة من ثلاث طبقات، الأولى البطانة التي يراها الداخل وسنأتي على وصفها، والطبقة الوسطى مصنوعة من أعمدة حديدية شبكت تشبيكًا متينًا تميلها الرياح، والطبقة الثالثة وهي الخارجة من خشب عليها الصفائح الملبسة بالصفر وفي وسطها طريق مدرّج يصعد فيه الصناع لتفقدها.

2- وصفها من الداخل

دخلنا ذلك البناء من باب السلسلة الشرقي فأدهشنا ما وقع عليه بصرنا من النقوش الجميلة على الجدران وفي باطن القبة، ولا سيما الفسيفساء بألوانها التي تأخذ بالأبصار وتستوقف الخاطر لإتقانها وجمالها، وهو يبعث على التفكير في مقدار ما أُنفق في هذا النقش من الأموال الطائلة. يدلك على ذلك أن بعض تلك النقوش تداعى إلى السقوط فأرادوا أن يتداركوه بالترميم فاستقدموا مهندسًا ماهرًا طلبوا إليه أن يقدّر النفقات اللازمة لذلك الترميم فقدرها بعشرين ألف جنيه فتأمّل. قطر البناء المثمن عند أسفله 57 مترًا، ويقسم إلى ثلاث مناطق أو أروقة الواحد داخل الآخر، يفصل بينها صفان من الأعمدة موازيان للجدار. فالرواق الأول واقع بين جدار القبة وصفّ من الأعمدة فيه ثماني عضائد تقابل زوايا البناء وتشبهها بأشكالها. بين كل عضادتين عمودان من الرخام، جملتها ستة عشرًا عمودًا، تختلف طولًا ولونًا لأنها جمعت في الأصل من أنقاض هياكل قديمة ولا سيما هيكل جوبتير المتقدم ذكره. وكذلك تيجانها فإنها مختلفة الأشكال والأقدار من الطرز البيزنطي ولا يزال على أحدها أثر صليب. علو هذا الرواق عشرون قدمًا تتحد أعمدته من أعلى التيجان بأحجار ضخمة مستقرة على جسور من الخشب مدعمة بالحديد، أسفلها مصفح بالنحاس. وعلى الجسر قطع من الرخام حافاتها بارزة مزركشة. وهناك رخامات عليها نقوش من زمن السلطان سليمان. وأما الجدار المثمن من الداخل فأعلاه مزخرف بالفسيفساء بأشكال جميلة متداخلة فيها رسوم الأزهار وغيرها. وفوق ذلك منطقة زرقاء عليها نقش كوفي قديم بأحرف ذهبية هي آيات قرآنية متفرقة، هذا نصها: ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له وليٌّ من الذلِّ وكبّره تكبيرًا﴾.

﴿له ملك السماوات والأرض يحيي ويُميت وهو على كل شيء قدير﴾.

﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرًا لكم، إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد، له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلًا﴾.

﴿والسلام عليَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أُبعث حيًّا. ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون، ما كان الله أن يتّخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون. وإن الله ربّي وربّكم فاعبدوه، هذا صراط مستقيم﴾.

وهناك نقش كوفي أن هذا البناء تم سنة 72هـ أي في زمن عبد الملك بن مروان. وعلى النوافذ من البناء المثمن اسم السلطان سليمان وتاريخ سنة 935هـ ويقال إن صلاح الدين كسا الحائط بالرخام والسلطان سليمان أعاد الكساء.

والرواق الثاني داخل الأول واقع بين صف الأعمدة المتقدم ذكره، صفّ آخر مرتب بشكل مستدير لأن القبة مستقرة عليه. وهو مؤلف من أربع عضائد ضخمة بين كل اثنتين منها ثلاثة أعمدة. الجملة 12 عمودًا من الرخام، وهي قديمة مثل تلك وقد كسيت قواعدها بالرخام في القرن السادس عشر. تتصل من أعلاها بعقود متينة. وحول هذه الأعمدة في الأسفل حاجز قصير من الحديد صنعه الإفرنج في القرن الثاني عشر للميلاد، يوم حولوا هذه القبة إلى كنيسة فوضعوا هذا الحاجز ليناسب عاداتهم في الصلاة.

وبين القبة نفسها وهذا الرواق المنطقة المستديرة المتقدم ذكرها. وهي مصفحة من الداخل بالفسيفساء على الطراز البيزنطي صنع القرن العاشر أو الحادي عشر للميلاد، يمثل زهريات فيها عناقيد العنب وسنابل القمح في أعلاها 16 نافذة عليها أغطية من ملاط فيها ثقوب مختلف [مختلفة] الشكل والحجم. فتحاتها الداخلية أوسع من الخارجية، وقد أقفلت الفتحة الخارجية بزجاج ملون تتألف منه أشكال جميلة. إذا أغلقت أبواب البناء ونفذ النور منها إلى داخل القبة ظهر بشكل بديع.

أما القبة نفسها فقد بناها الحاكم بأمر الله سنة 413هـ على أنقاض القبة الأصلية وكانت قد سقطت سنة 407هـ. علو القبة من الداخل 37 قدمًا، وعرضها 66 قدمًا. لكن علوها من الظاهر 98 قدمًا لأنها مؤلفة من طبقات كما تقدم. وفي باطن القبة نقش يدهش النظر بألوانه المتناسبة، قاعدته زرقاء، صنع في زمن السلطان صلاح الدين وأعيد صقله بعده مرارًا.

وفي أرض هذا البناء داخل الرواق الأخير صخرة كبيرة يحيط بها حاجز خشبي كالدرابزين طولها 58 قدمًا وعرضها 44 قدمًا. وعلوها معظمه ستة أقدام فوق أرض البناء المحيطة بها. واختلف الباحثون في أصلها، ويظن بعضهم أنها المذبح الذي كانت تقدم عليه المحرقات لأنهم اكتشفوا تحتها قناة تجري فيها دماء الذبائح، يُنزل إليها في 11 درجة نحو الجنوب. ولكن هذا الرأي يخالف ما تقدم عن موضع المذبح من هيكل سليمان حيث كان تابوت العهد وقدس الأقداس. فلعل القناة التي اكتشفوها تؤدي إلى صهريج. وفي التلمود حكايات كثيرة تتعلق بهذه الصخرة.

حول قبة الصخرة

وفي قبة الصخرة آثار دينية أخرى أغضينا عن ذكرها. ونكتفي بوصف ما يحيط بها من القباب. أولها قبة السلسلة وتسمى أيضًا محكمة داود. يظنون أن الملك داود كان يجلس هنا للقضاء.

وقبة المعراج، ويعتقد المسلمون أنه [أنها] المكان الذي عرج منه النبي من القدس إلى مكة [السماء]. ويؤخذ مما على هذه القبة من النقوش أنها بنيت سنة 597هـ وشكلها من النوع القوطي. ووراءها نحو الشمال الغربي قبة النبي يظهر أنها حديثة وتحتها مسجد النبي في الصخر. وهناك قبة تسمى قبة الأرواح بجانبها قبة الخضر. وفي الزاوية الشرقية الجنوبية للدكة منبر القاضي برهان الدين نسبة إلى بانيها، تتلى عندها خطبة كل جمعة في رمضان. وفي الجنوب بين قبة الصخرة والمسجد الأقصى بئر يقال لها بئر الكاس هي بالحقيقة خزان للماء وغير ذلك.

المسجد الأقصى

واقع في القسم الجنوبي من الحرم وهو بناء مربع له جناحان، أحدهما في الشمال ممتد نحو الشرق والآخر في الجنوب يمتد نحو الغرب. مشينا إليه من باب قبة الصخرة القبلي فنزلنا من الدكة بدرجات مررنا ببئر الكاس وأقبلنا على المسجد من بابه الشمالي. والمظنون أن هذا المسجد بني في مكان كنيسة بناها يوستنيان هناك على اسم السيدة مريم. ولما جاء عمر إلى القدس صلى في مكان منها هو الآن غرفة في طرف المسجد نحو الجنوب والشرق فبنى المسلمون مسجدًا هناك. ولما تولى عبد الملك صفّح أبوابه بالذهب والفضة. وفي أيام أبي جعفر المنصور تصدع جانباه الشرقي والغربي بزلزال، فاضطروا للإنفاق على ترميمه أن يضربوا ما كان عليه من الذهب والفضة نقودًا. ولما تولى المهدي (سنة 158هـ) كان المسجد قد أصابه زلزال آخر فأعاد بناءه وغيّر شكله فقلل طوله وزاد في عرضه. وسقط سقفه سنة 452هـ فأعيد [بناؤه] ولم يبق من أنقاض بناية يوستنيان إلا القليل.

طول المسجد 86 مترًا. إذا دخلته من بابه الشمالي المقابل لقبة الصخرة مشيتَ بين صفين من الأساطين الضخمة متصلة بأعلاها بسبعة عقود بناها الملك المعظم عيسى الأيوبي (625 هـ) ثم أعيد بناؤها. وسقفها الموجود الآن من بناء القرن الخامس عشر للميلاد فيه مشابهة للطراز القوطي.

وينتهي ذلك المدخل إلى بقعة فوقها قبة يظن أنها من بناء المهدي. وفيها نقش عليه كتابة أن صلاح الدين أعاد بناءها وهي مصنوعة من الخشب مصفحة بالرصاص من الخارج، وأما داخلها فإنه مزين مثل زينة قبة الصخرة. وعليها اسم السلطان محمد بن قلاوون لأنه أعاد زينتها. وفي صدر المسجد محراب تأنق صانعه في صنعه من الخشب المنزل بالعاج والصدف في أجمل ما يكون. فعل ذلك رجل حلبي بشارة [بإشارة] السلطان نور الدين سنة 564هـ. فإذا مشيت نحو اليسار انتهيت إلى مسجد عمر. وأما في اليمين فتسير في رواق طويل. وفي أفاريز المسجد نقوش كتابية أكثرها آيات من القرآن. وفي نوافذه زجاج ملون مثل ما تقدم عن زجاج قبة الصخرة.

سائر أبنية الحرم

ومما يستحق الذكر من أبنية الحرم اسطبلات سليمان. وهي عبارة عن أقبية يتألف منها معظم القسم الجنوبي الشرقي من ساحة الحرم. لأن تلك الساحة كانت في أصلها جبلًا غير متساوي السطح. فالظاهر أنهم ابتنوا تلك الأقبية لأجل تسويته. والأقبية ضخمة ويظهر من حال قواعدها وما فيها من الثقوب أو الحلقات أنها كانت مرابط للدواب. ينحدر إليها الزائر من باب الزاوية الجنوبية الشرقية من ساحة الحرم. وهناك أماكن كثيرة ينسبون إليها حوادث تاريخية بعضها يفتقر إلى إثبات، وكان لهذه الأقبية شأن في حصار اليهود فإنهم كثيرًا ما كانوا يختبئون فيها.

وسور الحرم بعضه قديم وبعضه حديث. وكذلك أبوابه، وأهمها من الوجهة التاريخية باب الذهب ويسميه العرب باب الظاهرية مؤلف من ثلاث قناطر، الشمالية منها تسمى باب التوبة والجنوبية باب الرحمة. وبعض الباب الحالي من بناء القرن السابع للميلاد، والباقي بناه العرب في أوائل القرن التاسع. وفي واجهته الشرقية أعمدة من الرخام يقول اليهود إن ملكة سبأ أهدتها إلى سليمان. والباب المذكور مغلق من زمن بعيد، ويقال إنه كان مستعملًا في زمن الصليبيين. كانوا يفتحونه في أحد الشعانين ثم أقفل ولا يزال مقفلًا.

سائر آثار القدس

إن كنيسة القيامة والحرم الشريف أهم آثار القدس وقد تقدم وصفهما. يليهما آثار عديدة قليلة الأهمية فنختصر في وصفها:

مبكى اليهود [الحائط الغربي]

واقع وراء جدار الحرم الشريف في الغرب وهو عبارة عن حائط حجارته ضخمة بسور الحرم من خارجه، أو هو جزء منه. ويعتقد اليهود أنه جزء من هيكل سليمان فيقفون عند ذلك الحائط كل يوم جمعة يبكون مجدهم ويندبون استقلالهم. طول هذا الحائط نحو خمسين مترًا. الصف السفلي من أحجاره تسعة أحجار ضخمة بينها حجر في الشمال طوله خمسة أمتار ونصف متر وعرضه ثلاثة

أمتار ونصف. وفوق هذا الصف 15 صفًّا حجارتها أصغر. وعلى هذه الأحجار كتابات بالفحم أو الحفر باللغة العبرانية أكثرها أسماء بعض الزوار.

وقفنا أمام ذلك الحائط وعنده عشرات من اليهود رجالًا ونساء بين واقف وقاعد. وقد علا ضجيجهم وارتفعت أصوات بكائهم. وفيهم من يقرأ دعاء أو يتلو آية. وسمعنا بعض النساء يندبن ويبكين بصوت عال. وواحدة منهن تشهق شهيق الثكلى من فرط البكاء وهي مولية وجهها نحو حجر من تلك الأحجار تكاد تبلله بدموعها. فأثر منظرها في نفسنا تأثيرًا عظيمًا؛ لأنها كانت تبكي بلهفة كأنها تندب فقيدًا عزيزًا. فأعملنا فكرتنا في الباعث على هذا البكاء وهل هو التأسف على مجد اليهود الزائل كما يقولون؟ فإذا صح ذلك كان لليهود شعائر جنسية لا مثيل لها في العالم لأن الوافدين إلى ذلك المبكى أكثرهم من طبقة العامة البسطاء. فإذا كان في أولئك البسطاء مثل هذا الشعور السياسي أو الاجتماعي فكيف في الطبقة الراقية المتعلمة؟ لكننا نظن الباعث على ذلك البكاء، بالأكثر، شعورًا خاصًّا في الباكي نحو فقيد أو مريض من أهله أو ذويه - إذا جاء المبكى تذكره وبكاه أو صلى من أجله أو طلب الشفاء له بحرارة. كما يفعل الثاكل إذا شهد مأتمًا وإن كان ميت ذلك المأتم لا يهمه، لكنه يتذكر مصيبته فيبكي فقيده وإن طال الأمد على موته.

ولهم أناشيد يتلونها في موقفهم هناك باللغة العبرانية يندبون فيها الهيكل وخرابه وما تهدم من جدرانه وما ضاع من عزه واحترق من جواهره وما أصاب كهانه من الذل. ويستنزلون الرحمة على صهيون ويتوسلون إلى الله أن ينجيهم من الذل ويعيد إليهم ملكهم في أورشليم.

جبل الزيتون

ليس من النصارى من لم يقرأ اسم هذا الجبل في الإنجيل. وهو واقع شرقي القدس يفصل بينهما وادي ستي مريم. ويقال له أيضًا جبل الطور وجبل النور أو هذا جزء منه. وفي الطريق من القدس إلى هذا الجبل أماكن أثرية كثيرة لكل منها حديث ووصف يضيق المقام عنه. منها قبر العذراء وكنيسة ستي مريم وبستان الجسمانية ومعهد الإمبراطورة فكتوريا وكرم الصياد وكنيسة الصعود وأديرة وكنائس مختلفة وقبور الأنبياء. وإنما يهمنا في هذا المقام الإشارة إلى مظهر القدس للواقف على

ذلك الجبل فإنه يشرف على المدينة فتبينُ له أحياؤها وقصورها وأديرتها واضحة. ولا بد لمن يزور القدس من أن يصعد إلى هذا الجبل ويشرف منه على كنيسة القيامة والحرم وغيرهما من الأبنية.

وفي وادي قدرون وما يليه قبر أبشالوم ومغارة القديس يعقوب وهرم زخرتا وجبل بطن الهواء وعين العذراء أو عين ستي مريم وبركة سلوان أو عين سلوان وحقل الدم وغيرها.

وفي القدس آثار أخرى تزار، مثل مغارة أرميا ودير الدومينكان وقبور الملوك وقبور القضاة والنبي داود وغيرها.

بيت لحم

وفي ضواحي القدس كثير من الأماكن التاريخية، أهمها بيت لحم لأن فيها المغارة التي ولد فيها المسيح، والطريق بينهما سهل في المركبات. وفي بيت لحم وحولها كثير من الأماكن التي تستحق الزيارة مثل دير مار الياس وقبة راحيل وبيت جالا ودير الفرنسيسكان ودير الكرمل ومدرسة بليوني ومستشفى أخوات الإحسان، وأديار أخرى عديدة أهمها كلها كنيسة الميلاد أو الولادة بنيت فوق المغارة التي يعتقد المسيحيون أن المسيح ولد فيها.

والكنيسة المذكورة تخص الروم واللاتين والأرمن دون سواهم من الطوائف النصرانية. ويحيط بها كثير من الكنائس والأديار يتصل إلى باب كنيسة المغارة بالنزول عدة درجات.

نزلنا إلى ذلك الباب ودخلنا الكنيسة وهي مبنية فوق المغارة، فرأينا طولها 40 قدمًا من الشرق إلى الغرب وعرضها 12 قدمًا وعلوها عشرة أقدام. وهي مرصّفة بالرخام وفيها 32 مصباحًا معلقًا. وتحت مذبحها كوة في أرضها نجم من الفضة عليه نقش باللاتينية مفاده ميلاد المسيح. وحول الكوة 15 مصباحًا، ستة منها للروم وخمسة للأرمن و4 للاتين. وفي جدار تلك الكوة آثار نقوش من الفسيفساء تدل على أن هذا المكان كان مزينًا زينة باهرة في أيام قسطنطين، وله احترام عند المسلمين.

ومقابل تلك الكوة في الجهة الأخرى من الكنيسة باب صغير ينزل منه ثلاث درجات إلى المذود الذي وُضع فيه المسيح عند ولادته. لكن المذود نفسه غير ظاهر لأنهم كسوه بالرخام الأبيض في أسفله وبالأسمر في صدره. ووضعوا فيه تمثالًا من شمع يمثل الطفل يسوع. على أن هذه الكنيسة ومغارتها تقلبتا في أثناء النصرانية على أحوال شتى. وبجانب المغارة مكان يريدون به موقف المجوس لما جاءوا ليسجدوا وهو خاص باللاتين. وقد اقتسمت الطوائف الثلاث المتقدم ذكرها أجزاء هذه الكنيسة بينها كما فعلوا في كنيسة القيامة.

وشاهدنا الحرس وقوفًا بأسلحتهم منعًا لما قد يحدث من الخصام بسبب التنازع على تلك الأجزاء.

مسجد الخليل

الخليل أو حبرون على مسافة بضع ساعات من القدس، وقد اشتهرت بقبور إبراهيم الخليل وعائلته. مسجدها طوله من الشمال إلى الجنوب 197 قدمًا وعرضه 111 قدمًا، حوله سور ضخم يشبه ما ذكرنا عن شكل هيكل سليمان في القدس. أصله من بناء اليهود وصار قبل الإسلام كنيسة ثم جعله المسلمون جامعًا وأنشأوا فيه منبرًا يشبه منبر المسجد الأقصى. وفي الزاوية الشمالية الشرقية نقش يوناني يظن أنه من زمن الإمبراطور يوستنيان فيه ذكر إبراهيم ودعاء للذين بنوه.

وتحت المسجد غار قديم فيه أضرحة الآباء الأولين إبراهيم وأبنائه. دخوله ممنوع حتى على المسلمين ولا يؤذن في رؤيته إلا بفرمان خاص من السلطان. وقد صدر مثل هذا الفرمان سنة 1862 لولي عهد إنكلترا لما جاء الخليل في تلك السنة. ولم يتمكن أحد من تصوير أضرحته إلا مصور سوري تمكن بإذن خاص من تصويرها بالفوتوغراف منذ بضع سنين وقد نشرنا صورها وأخبارها في السنة الثامنة عشرة من الهلال.

ووضعُ هذه القبور في الغار متحاذية، ولكل قبر حجرة قائمة بنفسها لها باب من قضبان الحديد مطلية بالفضة. وفي وسطها مزار كالقبة على شكل الأضرحة في المزارات الاعتيادية. وكل منها مكسو بالديباج المطرز بالآيات والكتابات والنقوش الجميلة.

ولكل ضريح وصف خاص وعليه نقش خاص وكتابة خاصة تدل على اسم المدفون فيه. فعلى ضريح يعقوب قوله «هذا قبر يعقوب النبي عليه السلام» وعلى قبر لائقة «هذا قبر سيدتنا لائقة رضي الله عنها زوجة النبي يعقوب عليه السلام».

وفي حبرون شجرة بلوط قديمة في مستشفى روسي هناك يقال إنها بلوطة ممرا أو بلوطة إبراهيم.

نابلس وما يجاورها

وفي الطريق من القدس إلى نابلس كثير من الآثار القديمة، كل منها ينسب إلى حادث من حوادث التوراة أو جاء ذكره فيها مثل البيرة وعين الحرامية واللبن وغيرها.

بير يعقوب

وأشهر الآثار في ذلك الطريق بير يعقوب على مقربة من نابلس. والمظنون أنها البئر التي التقى السيد المسيح عندها بالمرأة السامرية. وبالقرب منها دفن يوسف الصديق ثم نقل إلى حبرون. وبنى النصارى فوق البئر معبدًا تهدم وتقلبت عليه أحوال مختلفة وهو اليوم في أيدي الروم الأرثوذكس رأيناهم في الصيف الماضي [سنة 1913] يبنون فوقه كنيسة فخمة وديرًا.

وقد نزلنا إلى الغرفة القائمة فوق البئر وفيها مذبح كالمعبد. ومن شاء أن يرى قاع البئر ينزلون له الشموع المضيئة على صفيحة تتدلى بالحبل إلى أسفلها فيرى القاع وماءه، وفوهة البئر أحجار كبيرة موضوعة حوله بشكل مربع.

نابلس

هي مدينة قديمة تسمى في التوراة «شكيم» جاء ذكرها في عهد الآباء الأولين وقد خيموا مدة بجوارها وفيها اجتمع يشوع آخر اجتماع مع الشعب. ولها ذكر كثير في تاريخ الروم وهم سمّوها (Neopolis) أي البلد الجديد ومنها نابلس. ولنابلس شأن خاص بوجود طائفة السامرة فيها، وسنفرد فصلًا خاصًّا لتاريخ هذه الطائفة وتعاليمها وتوراتها وأحوالها الاجتماعية فيما يلي من هذه الرحلة.

ترتفع نابلس عن سطح البحر نحو 1870 قدمًا. وهي مركز لواء تابع لولاية بيروت. عدد سكانها نحو 27000 نسمة معظمهم مسلمون وفيها ثمانية مساجد وبضع مدارس، لا يزيد عدد المسيحيين فيها على 700 نفس، والسامريون نحو 170 نفسًا. وهي واقعة بين جبلين: جرزيم وعيبال. وأسواقها كثيرة الشبه بأسواق القدس القديمة. وقد أخذوا في بناء القصور على النمط الحديث، وسنعود إلى وصفها عند كلامنا عن أحوال فلسطين الاجتماعية. وإنما يهمنا الآن الكلام عن آثارها التاريخية، وأكثرها سامري. أكثر أبنيتها في سفح جبل جرزيم، ولهذا السفح منظر جميل لمن يشرف عليه من الجبل المقابل لكثرة حدائقه وبساتينه. ويسمى جبل جرزيم أيضًا جبل الطور والجبل القبلي وعليه أكثر الآثار السامرية. قمته مسطحة عليها آثار قلعة يظن أنها من بناء يوستنيان الروماني. أحجارها ضخمة. وهناك صهاريج وأنقاض يختص السامريون حجرًا مرتفعًا منها يزعمون أنه مذبح هيكلهم القديم من عهد موسى أو قبله. ويدلونك على نقطة في الزاوية الجنوبية الشرقية من الجبل يقولون إنها المكان الذي أوشك إبراهيم أن يذبح ابنه إسماعيل فيه. ويرى الواقف على ذلك الجبل منظرًا طبيعيًّا بديعًا لما يطل عليه من الجبال والقرى والأودية إلى بعد شاسع.

أما جبل عيبال أو الجبل الشمالي فعلوه 3077 قدمًا. على قمته أطلال قلعة قديمة وخرائب كنيسة. والمنظر منها أكثر إشراقًا من جبل جرزيم شمالًا إلى الجليل.

حيفا

وفي الطريق من نابلس إلى حيفا يمر المسافر بكثير من الأماكن الأثرية أهمها سبسطية، وهي السامرة القديمة، اشتهرت في أيام المكابيين وبها سمّيت أكثر فلسطين. لا تزال أنقاضها باقية على تل علوه 330 قدمًا فوق الطريق. وبعدها جنين وهي بلد عامر، النفوذ فيه لآل عبد الهادي مثل سائر جبال نابلس كما سيجيء في كلامنا عن الحالة الاجتماعية. وهناك سهل يزرعيل واللجون وغيرها إلى حيفا.

وحيفا مدينة تجارية جميلة ازدادت عمرانًا في هذا العصر، عدد سكانها - ولا سيما بعد أن صارت محطة للسكة الحديدية الحجازية - نحو 20000 نفس وقد كثرت فيها الأبنية على الطراز الجديد واتسعت تجارتها، وكان مكانها في زمن اليونان والرومان بلدة اسمها سيكانيوم ولها دخل في الحروب الصليبية وغيرها. وفيها مستعمرة ألمانية.

جبل الكرمل

وليس في حيفا من الآثار التاريخية ما يستحق الالتفات إلا جبل الكرمل ويسمى جبل مار الياس، وله ذكر في التوراة وهو يمتد من شاطئ بحر الروم نحو الجنوب والشرق إلى مرج ابن عامر. وقد بنيت حيفا في سفحه الغربي ولها ميناء مجوف كبير.

وعلى قمة جبل الكرمل دير مار الياس علوه 558 قدمًا عن سطح البحر، للاتين الكرمليين فيه نحو عشرين راهبًا وكنيسة مبنية على النمط الإيطالي المزخرف وفيها صور قديمة وتماثيل. وتحت المذبح مغارة يزعمون أن النبي الياس كان يقيم فيها. وللدير شرفة تطل على مسافة بعيدة من البحر والبر. ويقع بصر الواقف عندها على سهل يزرعيل ونهر كيشون وتل قسيس وجبال الناصرة وطابور وبعض جبل حرمون وسهول الأردن وعكا وزمارين وغيرها.

وعكا واقعة شمالي حيفا إلى شاطئ البحر، وهي بلد مسور تاريخه طويل يتصل بأخبار التوراة، ولها دخل في أهم المواقع الحربية البحرية في زمن اليونان والرومان والإسلام. عدد سكانها نحو 12000 نفس، وهي عبارة عن قلعة كبيرة كالرأس داخلة في البحر. واشتهرت على الخصوص في القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر بمن ظهر فيها من الولاة والأمراء مثل ظاهر العمر وأحمد باشا الجزار وعبد الله باشا، واتخذتها الدولة العثمانية سجنًا أو منفى لكبار المجرمين.

ولا يزال سورها باقيًا إلى الآن وقد تهدم بعضه وفتحت الحكومة جانبًا منه لإطلاق سبيل المدينة والتوسعة على أهلها. وكثيرًا ما كنا نسمع عن فظائع الجزار

صاحب عكا وعن تعذيبه الناس في السجون المظلمة، فلما دخلنا المدينة اتجه همنا بالأكثر إلى مشاهدة ذلك السور والإطلال على تلك السجون.

سور عكا وسجن الجزار

أما السور فإنه مزدوج ضخم جدرانه قائمة على قناطر متينة عقودها مقفلة من الخارج مفتوحة من الداخل، ولا تزال بعض المدافع القديمة مبعثرة هناك. وكان للسور باب واحد في الشرق ففتحوا بابًا آخر في الغرب أو طريقًا تقدم ذكره، وأكد لنا وجيه من وجهاء عكا أن الفعلة، وهم ينقبون في السور لفتح ذلك الطريق، عثروا على هياكل بشرية مدفونة بين جداري السور، فثبت لدينا ما كنا نسمعه عن شدة وطأة الجزار على المجرمين أنه كان يضعهم وهم أحياء في السور ويبني فوقهم.

وبحثنا عن سجن الجزار فإذا هو في القسم الجنوبي من السور تحت الأرض في أقبية مظلمة يستطرق بعضها إلى بعض وقد خيّم الإهمال عليها. وشاهدنا في خرائبها بعض آلات العذاب للصلب أو القتل وقطعًا من أدوات المدافع ونحوها. فهذه الآثار الفظيعة يجدر بالحكومة أن تنقل منها ما يستحق التذكار وتضعه في متاحفها.

وداخل المدينة شوارع تشبه شوارع سائر مدن تلك الأيام لا تزال كما كانت في زمن الجزار، وفي عكا عدة أبنية كبيرة في جملتها قصر عبد الله باشا، وهو الآن مسكن بعض الوجهاء بالأجرة.

وأهم آثار عكا التاريخية جامع الجزار وهو مسجد فخم بين يديه صحن فيه مغارس وأساطين. ويشبه في شكله شكل جامع محمد علي بالقلعة لكنه أقل فخامة منه. وعلى عتبته العليا قصيدة فيها بيت لتاريخ بنائه سنة 1196هـ.

وبجانب الجامع غرفة فيها قبر الجزار عليه ضريح فيه نقوش كتابية هذا نصها:

«هذا قبر المرحوم المحتاج إلى غفران الواحد الغفار الحاج أحمد باشا الجزار عليه رحمة العزيز الغفار سنة 1219».

ثالثًا - أحوالها الاجتماعية

نظام الاجتماع فيها

إن نظام الاجتماع في فلسطين الآن في دور الانتقال مثل نظام الاجتماع في سائر الشرق العربي، فلا يُستطاع تعيين طبقاته والتفريق بينها بوضوح. لكننا لا نعدم وسيلة لتمثيله للقارئ على قدر الإمكان.

كان نظام الاجتماع في الشرق العربي أو الإسلامي إلى أوائل القرن التاسع عشر نحو ما كان عليه في الأجيال الإسلامية الوسطى مؤلفًا من طبقتين، الخاصة والعامة. والخاصة عبارة عن الحكومة وأرباب البيوتات ومن يلحق بهم. والعامة هم التجار والصناع والفلاحون ونحوهم. وبما أن الحكومة تركية وأكابرها من الأتراك، والرعايا من العرب كانت الخاصة رجال الحكومة الأتراك ومن يلحق بهم من الأعوان، والعامة أكثرهم من العرب أبناء البلاد. وبما أن الحكومة إسلامية فالمسلمون كانوا أعز جانبًا وأقوى نفوذًا من سواهم. وإذا جمعت بين القضيتين تبيّن لك أن طبقات الاجتماع في فلسطين وسوريا ثلاث (1) رجال الحكومة الأتراك ومن يلحق بهم، (2) المسلمون أهل الأنساب والموظفين [الموظفون] وغيرهم، (3) المسيحيون واليهود أو أهل الذمة، فالسيادة أو النفوذ للمسلمين. وكانت الآداب الاجتماعية من حيث العادات والمعاملات أيضًا إسلامية، حتى الحجاب فإن استعماله كان عامًّا عند المسلمين وسواهم. وكان المسيحيون فرقًا لا تزال باقية إلى الآن، وكل فرقة مؤلفة من طبقتين: العامة وفيهم التجار والصناع وغيرهم، ترأسهم طائفة الإكليروس في أحوالهم الاجتماعية ونظاماتهم العائلية حتى في شئونهم الشخصية، وهؤلاء هم الخاصة عندهم مع رجال العشائر القديمة. على أن سيادة رجال الدين كانت ولا تزال شائعة عند الطوائف النصرانية وغيرها.

ذلك كان نظام الاجتماع لما حمل بونابرت على مصر والشام في آخر القرن الثامن عشر ومعه بذور المدنية الحديثة، لكنه لم يمكث طويلًا ولم يبقَ لحملته أثر اجتماعي يستحق الذكر. ثم دعت الأحوال السياسية وغير السياسية إلى تكاثر

الأجانب في بلادنا لأغراض مختلفة، وسلاحهم الامتيازات الأجنبية يحمون بها أرواحهم وأموالهم. وأخذت كل فئة منهم في فتح المدارس ونشر العلم لأغراض أكثرها تبشيري في سبيل نشر النصرانية، وأخذت كل طائفة تبث آدابها وتعاليمها - وانتشار آداب القوم في أمة يحبب أولئك القوم إليها - ولم يقبل على تلك المدارس التبشيرية في أول الأمر غير المسيحيين، فكانوا لذلك أسرع تناولًا للعلم الحديث وغيره من أسباب هذه المدنية.

وعكفوا على مطالعة آداب الإفرنج ولا سيما الفرنساوية، ونبغ منهم المتأدبون بالآداب الحديثة ودبت فيها روح العصر المبنية على الحرية الشخصية. وتعلموا لغات الأجانب وسائر عوامل هذه المدنية من الصحافة والطباعة ونحوهما. وسهل عليهم الاشتغال بالصنائع الإفرنجية والتجارات الحديثة. فخفّوا للأسفار في سبيل التجارة أو العلم، وأكثرهم من العامة، فاكتسبوا الأموال وظهروا في عالم السياسة والعلم في بلادهم وخارجها.

ثم رأى عقلاء المسلمين ثمار العلم في جيرانهم فعكفوا على التعلم في المدارس الإفرنجية والوطنية على النمط الحديث، وتعلموا اللغات والتجارات والصنائع، ونبغت منهم طائفة حسنة على قواعد المدنية الحديثة.

فتولد في نظام الاجتماع بسوريا وفلسطين طبقة المتعلمين من النصارى والمسلمين، وأكثرهم من العامة الذين ارتقوا بجدهم وسعيهم حتى صاروا من الخاصة في الثروة والوجاهة والعلم. وفيهم الشبان المفكرون طلاب الإصلاح يريدون مجاراة الأمم الراقية في نظام الاجتماع والاهتمام بترقية شئونهم بحيث ينال كل ذي حق حقه. فأخذوا يقلبون الدفاتر القديمة وينقبون عن الغلطات المتوارثة ويحاولون إصلاحها في سبيل المصالح العامة على اختلاف أوجهها. فتألفت الأحزاب الإصلاحية لمطالبة رجال الدين بإصلاح نظام معابدهم وضبط أوقافها. والأحزاب السياسية لمطالبة الحكومة بإصلاح إدارتها ومشاركة الأمة في أمورها. ويعبّر عن هذه الحركة بقيام العامة على رؤسائهم الدينيين والسياسيين. فشق ذلك على الرؤساء واتفقت مصالحهم في مقاومة ذلك التيار، وكلا السلطتين استبدادية، فتعب المطالبون ولا سيما طلاب الإصلاح السياسي، وما زالوا يتكتمون

أو يلجأون إلى من يحميهم من الدول الأجنبية، حتى اشتد ساعدهم وفازوا بقلب الحكومة. فلما صارت الحكومة دستورية استبشر طلاب الإصلاح من كل طائفة وجاهروا بمطالبهم الدستورية في سبيل مصالحهم الطائفية أو الدينية - وهم لا ينالونها إلا بمساعدة الحكومة.

الأرثوذكسيون وأخوية القبر المقدس

هذه قضايا عامة تصدق على معظهم [معظم] الشرق العربي وخصوصًا على فلسطين، ونعني هنا قيام الشعب الأرثوذكسي على كهنته يطالبونهم بحقوقهم المهضومة، ولهم مسوغ لذلك القيام ليس لسواهم. نعني أن هاضمي حقوقهم يختلفون عنهم جنسًا ولغة - فضلًا عن استبدادهم بالرئاسة الدينية. فقيام الأرثوذكسيين على رهبنة أخوية القبر المقدس طبيعي، لأن هذه الأخوية قديمة ولها أوقاف طائلة تتصرف بها في مرافق لا ترى الطائفة لها الحق فيها، فقامت تشكو من صرف تلك الأموال في غير ما رصدت له، وطلبت ضبط حساباتهم وإعطاء كل ذي حق حقه. يرمون من وراء ذلك إلى القبض على أوقافهم بأيديهم. فشق الإذعان لهذه المطالب على الرهبنة واحتدم الجدال منذ بضع عشرة سنة. وقد ثبت الفلسطينيون في المطالبة ثباتًا حسنًا واتخذوا كل وسيلة يمكن الوصول إليها، من تأليف الجمعيات ونشر المنشورات وكتابة المقالات وتشكيل الوفود وتقديم العرائض، فلم يجدِ ذلك نفعًا على عهد عبد الحميد. فلما أعلن الدستور استأنفوا الشكوى وبعثوا وفدًا إلى الآستانة التقينا به في رحلتنا هناك منذ بضع سنين. فأجابت الحكومة طلبهم بتأليف مجلس مختلط من العرب واليونان يقرر ما يجب عمله وأشياء أخرى. ولم يأت ذلك بنتيجة بعد لأن شروط تشكيل المجلس تغيّرت. وسعت الرهبنة في التفريق بين الناهضين بأساليب مختلفة لا محل لها هنا. فوقفت هذه الحركة مؤقتًا والنفوس لا تزال نازعة إلى مطالبها، ولا بد من أن تنالها وتنال الاستقلال الكنسي كما نالته بلغاريا والشام وغيرهما.

وهذه النهضة الاجتماعية في فلسطين غير قاصرة على النصارى فإن المسلمين أيضًا نهضوا في مثل هذه المطالب لضبط أوقافهم المرصدة للمدارس وغيرها.

رابعًا - أحوالها الاقتصادية

ونعني أحوال فلسطين من حيث مصادر الرزق وأبواب المعاش. ويقال في فلسطين نحو ما يقال في سوريا، وذلك أن أبواب المعاش تبدلت بعد النهضة الاجتماعية في هذا القرن وحدثت مهن وتجارات لم يكن يعرفها آباؤنا. وزادت أبواب النفقة وانتقلت الثروة الراقدة من الأسر القديمة إلى من يحسن استثمارها. ونبغت طائفة من الأغنياء الذين أثروا بجدهم واجتهادهم بالاتّجار أو المهاجرة أو غير ذلك. وانقرضت بيوت قديمة كان لها مجد موروث - شأن الأمم في انتقالها من طور إلى طور.

الارتزاق بالمهاجرة

فتح هذا الباب للسوريين منذ نحو أربعين سنة، يوم ضاقت أبواب الرزق على العامة وتفتحت أعينهم بالتعليم أو الاحتكاك بالأجانب وفسدت حكومتهم، وهم أهل نشاط وإقدام فلم يصبروا على الضيم والفقر، فأخذوا في المهاجرة إلى أمريكا وأوستراليا وغيرهما. وأكثرهم لا يملكون من أسباب النجاح إلا الهمة العالية والنفس الكبيرة والعزم الأكيد. فأفلحوا واكتسبوا الأموال الطائلة بالتجارة والطبابة والصحافة وغيرها وصاروا من خاصة الناس. وعاد بعضهم إلى بلده أو قريته وقد أصبح وجيهًا بعد أن كان خاملًا. وتجد بين أولئك المهاجرين أناسًا كانوا وهم في قريتهم يشتهون التقرب من أميرها أو شيخها بالخدمة في حقله، فأصبحوا بعد هجرتهم وقد ابتاعوا ذلك الحقل وابتنوا فيه قصرًا فخيمًا لم يبنِ ذلك الأمير مثله.

إن أمثلة أولئك الناجحين كثيرة في سوريا وفلسطين، وفيهم طائفة حسنة لهم المتاجر الواسعة في أوربا وأمريكا وغيرهما. وقد أشرنا إلى ما شاهدناه من ذلك في باريس ولندن ومنشستر في الصيف قبل الماضي [1911].

فلو عاد أولئك المهاجرون إلى وطنهم بأموالهم واختبارهم [خبراتهم] وأقاموا للعمل فيه لعمرت البلاد ولم يبق محل للشكوى. ولكنهم لا يفعلون ذلك لأن أحوالنا السياسية لم تستقر بعد. وبعضهم جاء ولم يطل مقامه، وآخرون ابتاعوا الأرض وابتنوا القصور ثم اضطروا إلى الرجوع. وفيهم من استقر ببلده مع بقاء

تجارته في المهجر. ومن هؤلاء كثيرون في فلسطين عرفنا منهم بيت جاسر وجهاء بيت لحم، فقد رأينا قصرًا بنوه هناك أنفقوا في بنائه 30000 جنيه ولم يتم بعد. لكن تجارتهم لا تزال في محلاتهم بباريس وغيرها من المهجر.

الثروة الطبيعية

على أننا اذا نظرنا إلى ثروة بلادنا الطبيعية كالعقار ونحوه من حيث زرعها واستخراج معادنها وسائر خيراتها لرأينا البلاد غنية بنفسها لكنها تحتاج إلى العمل.

رأينا في طريقنا من القدس إلى نابلس ومنه [منها] إلى جنين فحيفا بقاعًا كثيرة بينها سهول واسعة لم تبذل العناية في استغلالها إلا قليلًا. ولا ريب أن إصلاح الري يضاعف غلتها. وما كان منها جبالًا يمكن جعله غابات غضة يُنتفع بأخشابها وأظلالها، كما فعلوا بجبل الكرمل بجوار حيفا، فإنه مكسو بالأشجار والغابات فيصحّ أن يكون مثالًا لغرس سائر جبال فلسطين. وقد جرب الأهلون غرس بعض تلك الجبال زيتونًا فيجدر بهم أن يجعلوا غرسه عامًّا.

وقد يُعترض بأن تلك الجبال صخرية لا ينابيع فيها ولا سبيل إلى ريها، وهو اعتراض وجيه إذا طلبنا غرسها حنطة أو قطنًا. وإنما نطلب غرسها أشجارًا لا تحتاج إلى غير ما تجود به السماء في فصل الشتاء. على أننا شاهدنا في وادي اليرموك بين طبرية ودرعة [درعا] شلالات تتدفق من قمم الجبال كالسيل وتنساب بين الصخور حتى تنصبّ في نهر اليرموك وتختلط بمائه. ومن هذه الشلالات زيزون وتل شهاب ينحدر ماؤهما كالزلال بين صخور جرداء، إلا ما يمسه الماء منها فقد كسته الخضرة. وكل شلال منها يمكن استخدامه لتدوير عدة مطاحن أو آلات تولد الكهرباء أو قوة أخرى تستخدم في الحرث والغرس والحمل والنقل. إن منظرها البديع استوقف خاطرنا، ولولا اضطرارنا لسرعة الانتقال مع القطار لوقفنا عندها نتمتع بمنظرها، فتخطيناها ونحن آسفون لضياع تلك المياه هدرًا.

على أن وادي اليرموك نفسه الذي يجري القطار الحديدي بجانبه بضع ساعات بين الأردن وحوران شاهدنا على ضفتيه بقاعًا قلما يلتفت القوم إلى استغلالها، غير ما تسرح فيه الماشية للمرعى. وقد ذكّرنا منظر تلك الجبال وما فيها

من الماشية يسوقها الرعاة - وهم وهي والأرض لا تزال على الفطرة الطبيعية - ذكَّرنا ذلك بما نقرأه عن عرب الجاهلية وعاداتهم القديمة، فإن أولئك القوم أشبه شيء بما كان عليه العرب منذ بضعة عشر قرنًا.

وناهيك بأمر آخر استلفت انتباهنا ولا عذر في إهماله غير الجهل وفساد الحكومة. إن السهول الخصبة بين حيفا واليرموك مروجًا وأغوارًا [مُروجٌ وأغوار] أهمها مرج ابن عامر وغور بيسان. أما المرج فإنه سهل كثير الشبه بأرض مصر مساحته نحو 100000 فدان ومساحة الغور نحو ضعفي ذلك. وهو من الجفالك التي كانت لعبد الحميد واستولت عليها الحكومة وتعرف بالمدورة. ولما كنا في حيفا بالصيف الماضي كان هذا الغور معروضًا للبيع، وقد احتج أعيان الوطنيين على الحكومة لما بلغهم عزمها على بيعه لبعض الأجانب أو اليهود. فتوقفت الحكومة عن بيعه مؤقتًا. وسكانه نحو 20000 من الفلاحين العرب وكلهم مسلمون. على أن بعض أغنياء الوطنيين أرادوا مشترى بعض أرض الغور وبعضهم احتكر بعض مناجمه. وقد ظهر فيه منجم لزيت البترول لا يزال العمل جاريًا فيه، وبلغنا أن فيه مناجم أخرى.

وقد همّ غير واحد من أهل الثروة بمصر وغيرها لابتياع بعض تلك الأرضين لأنها رخيصة جدًّا بالنظر إلى أرض مصر، ويقدر الفدان الواحد ببضع جنيهات لو كان في مصر لبيع بستين أو سبعين جنيهًا. لكن في استغلاله مشقة لقلة الرجال وضياع الأمن بسبب العرب البدو. ولا بد من تخطي هذه العقبة يومًا من الأيام ويظهر فضل تلك الأرض. لكننا نخشى أن لا تأتي الساعة قبل فوات الفرصة بالنظر إلى الوطنيين لأن اليهود باذلون جهدهم في ابتياع أراضي فلسطين حيثما تيسر لهم ذلك بكل وسيلة ممكنة، بمساعدة الجمعية الصهيونية التي ذكرنا تاريخها في الهلال الثاني من هذه السنة فإنها وقفت الأموال الطائلة في هذا السبيل.

المستعمرات اليهودية في فلسطين

ورغم احتجاج المسلمين والمسيحيين وغيرهم من الوطنيين على بيع الأرض لليهود فإنهم يبتاعونها ويصلحونها ويغرسونها أو يبنونها. ويعولون في

استعمارها على أحدث الطرق الفنية، من حيث الغرس أو تشييد المنازل أو تنظيم الشوارع. شاهدنا في يافا محلة أو مستعمرة إسرائيلية اسمها «تل أبيب» أدهشنا ما رأينا فيها من نظام الشوارع وإتقان البيوت في بنائها على الطراز الصحي، وحول المنزل أو بين يديه حديقة يحيط بها سور من شبك الحديد، وشوارعها واسعة نظيفة. وقد شادت هذه المحلة شركة يهودية لسكنى اليهود وهي تؤجرهم إياها بطريق الاستهلاك بشروط سهلة، بحيث يصبح المنزل لساكنه بعد مدة غير طويلة. وقد ذكّرتنا منازل تل أبيب بالمقاصف (فيلا) في ضواحي مصر [القاهرة]. وكانت هذه البقعة في الأصل صحراء قاحلة، فابتاعتها تلك الشركة وبنتها وأخذت في استثمار ما وراءها بغرس الكروم وغيرها.

وفي هذه المحلة مدرسة كلية (جمناز) تعلم العلوم العالية باللغة العبرانية سنعود إليها عند كلامنا عن الأحوال العلمية. ونكتفي هنا بالإشارة إلى سعي اليهود في استعمار فلسطين، فقد أصبحت المستعمرات اليهودية فيها تعد بالعشرات بجوار يافا والقدس وحيفا وغيرها، منها ما بني قرب المدن مثل تل أبيب، ومنها ما هو من قبيل المغارس للكرم والبرتقال، غير المعامل لاستخراج الخمور أو صب الحديد، وغير المدارس للزراعة والصناعة وغيرها.

وقد أحصى بعضهم عدد هذه المستعمرات في اليهودية والجليل والسامرة والأردن وما يليها فزادت على أربعين مستعمرة يختلف سكانها بين بضع عشرات إلى بضع مئات أو بضعة آلاف. وفيهم الوطنيون والألمان والروسيون والإسبان وغيرهم تجمعهم جامعة بني إسرائيل. ومما يستحق الانتباه أن أعمال هؤلاء المستعمرين في منازلهم أو معاملهم أو مغارسهم أو مخازنهم مبنية على أحدث الطرق العلمية. فأصحاب مغارس البرتقان [البرتقال] (البيارات) يتوخون في غرس شجره أحدث الطرق الزراعية من حيث ترتيبه وترك المسافات بين شجيراته وسقيه وجنيه، ويستخدمون في ذلك الآلات التي تغنيهم عن العمال. ولذلك يستطيعون توريد غلتهم بأقل مما يستطيعه الوطني الباقي على الطراز القديم.

فحيثما رأيت بيتًا جميلًا مبنيًّا على الطراز الحديث ترجّحَ لك أنه ليهودي. وإذا رأيت حديقة منظمة أو حقلًا نظيفًا فهو ليهودي - بخلاف ما اشتهر عن اليهود

قديمًا فقد كانوا إلى أواسط القرن الماضي يقيمون في أقذر الأحياء ويُضرب المثل بقذارة حارة اليهود. إن يهود فلسطين أبدلوا تلك الشهرة بضدها. قال لنا وجيه منهم التقينا به في يافا لما رأى دهشتنا من ذلك التغيير: «ظل اليهود أدهارًا مضطهدين معتزلين لا يؤذن لهم بالإقامة مع سائر الطوائف في حي واحد وأحياؤهم مضرب الأمثال بالقذارة. ونحن الآن معتزلون عن سوانا ولكن منازلنا نظيفة ومنازل جيراننا قذرة فلا نرضى أن يساكننا أحد منهم».

حكومة يهودية ضمن حكومة عثمانية

ولليهود في مستعمراتهم هذه هيئة اجتماعية خاصة، لا يخالطون أحدًا ولا يبايعون أو يستخدمون في حاجاتهم غير أبناء جلدتهم. وفي بعض مستعمراتهم بريد خاص بهم له طوابع خيرية تنفق أثمانها في سبيل البر، ويلصقون في داخل المكتوب مثل ورق البول لهذا الغرض. ومن طرقهم الاقتصادية في الإحسان أن الجمعيات الخيرية لها أوراق تباع عدة منها بأصغر قطعة من قطع النقود المعروفة. فمن أراد الإحسان الاقتصادي ابتاع مقدارًا من هذه الأوراق وفرقها في الفقراء وهي مقبولة عندهم كالنقود. حتى القضاء فإنهم مستقلون به عن سائر الأهلين، فاليهودي إذا اختلف مع يهودي آخر تقاضيا إلى الكاهن أو الشيخ وهو ينظر في خصومتهم [خصومتهما] ويقضي لصاحب الحق. ولا يقتصر ذلك على الأحوال الشخصية كما يتبادر إلى الذهن فإنهم يتقاضون إلى الكاهن في كل مسألة تحتاج إلى مقاضاة حتى المسائل المالية. فإذا كان لأحدهم على آخر دين ماطله في دفعه اشتكاه إلى الكاهن فيسمع الشكوى والدفاع ويحكم لصاحب الحق ويأمر المحكوم عليه بالدفع. فإذا لم يرض بالحكم فليس لهم قوة تنفيذية من الحكومة تجبره، لكنهم يقاصونه قصاصًا هو أشد وطأة عليه من السجن نعني أنهم يقاطعونه، وذلك أن الكاهن يعلن الحكم في معبدهم ويقول أنه حكم على فلان الحكم الفلاني ولم يرضخ له ويوصي بمقاطعته فيصبح كالأجرب بين الأصحاء ليس من يخاطبه أو يبايعه أو يعامله. وهذا الأسلوب من القصاص أرقى ما بلغ إليه جهد المتمدنين لأنه يرقّي الإحساس الاجتماعي.

على أننا رأينا في يافا وأكثر مدائن فلسطين صبغة يهودية ظاهرة في أسواقها

ومنازلها، فتجد أسماء الصناعات أو المتاجر على الحوانيت أو المنازل في اللغة العبرانية، فضلًا عن العربية والإفرنجية. وهم يسمون غرف الفنادق بأسماء آبائهم الأولين أو مدنهم القديمة، فبدلًا من الاكتفاء بالنمرة للغرفة يسمونها بنيامين مثلًا أو يعقوب أو أريحة أو نحو ذلك.

مستقبل فلسطين لليهود

وبالجملة أن تغلب اليهود في فلسطين ظاهر ظهورًا واضحًا. فهم أصحاب الثروة ولهم أخصب المغارس وأنظف الشوارع وأفخم المنازل. والوطنيون يرون ذلك ويشتكون والحكومة لا تحرك ساكنًا لاشتغالها بنفسها أو بحروبها عن النظر في هذه الشئون. على أنها لو وجهت التفاتها إلى هذا الأمر لم يسهل عليها تبديله أو ملافاته لأن اليهود يبتاعون الأراضين بطرق قانونية شرعية لا جناح عليهم فيها حسب الظاهر. والحكومة في هذه الأيام لا تستطيع مصادرتهم أو منعهم من استثمار الأرض بأموالهم وعرق جبينهم. نعم، إن المرابين من اليهود يغتنمون ضعف الفلاح المدين لهم ويقبضون عقاره إذا قصَّر عن الدفع. وهكذا يفعل سائر المرابين بمصر وغيرها، من اليهود وغيرهم.

فيحق للعقلاء أن يشتكوا من هذه الحالة ويسعوا في ملافاتها. غير أن ملافاتها لا تكون بمجرد الشكوى، وإنما تكون بالنسج على منوال أولئك المستعمرين من حيث تعمير الأرض بالطرق العلمية وإنقاذ الفلاح من المرابي بالطرق المعقولة إما بإنشاء النقابات الزراعية أو نحو ذلك. ولو أرادت الحكومة النظر في هذا الأمر لكانت أقدر من سواها على ملافاته. ولكنها مشغولة مضطربة وأغنياء الوطنيين والطبقة الراقية منهم أكثرهم منصرفون إلى المسائل السياسية والتنازع على الوظائف أو النيابات أو المطالبة بالإصلاح. ولو صرفوا ذكاءهم وهمتهم إلى الوجهة الاقتصادية بملافاة صيرورة بلادهم ملكًا لسواهم لكان ذلك أقرب إلى الوطنية وأدنى إلى الاستقلال الحقيقي.

وقد اختلف الباحثون في مستقبل سوريا وفلسطين: هل تنالان الاستقلال الإداري أم تبقيان على حالهما أم تدخلان في حماية دولة أجنبية أم غير ذلك من الأوجه السياسية الداخلة ضمن دائرة الإمكان، وكلها تحتمل الشك وتقبل

النقض. وأما [وما] لا شك فيه من مستقبل تلك البلاد أن الحال إذا ظلت على ذلك واليهود عاملون على ابتياع الأراضين واستعمارها، وأهلها غافلون أو متجاهلون وحكومتها ساكتة أو مشغولة، فلن يمضي زمن طويل حتى تصير كلها لليهود، ولا عبرة في من يتولى شئونها السياسية، ولا فرق أن تكون يومئذ في سلطة العثمانيين أو العرب أو الفرنساويين أو الإنكليز. فإن العبرة في من يملك الأرض ويستولي على غلتها، وليس صاحب السيادة السياسية إلا وسيلة لحفظ الأمن وتأييد ذلك الملك لصاحبه، سواء كان مسلمًا أو نصرانيًا أو يهوديًا. وقد مضى الزمن الذي كان الفاتحون فيه يتملكون البلاد التي يفتحونها أو يستعبدون أهلها.

واعتبرْ نحو ذلك في المستعمرات الألمانية في يافا وغيرها، أهمها سارونا وولهلما وغيرهما. والألمان كاليهود من حيث استقلالهم بالمنافع الاقتصادية لأنفسهم فلا يبتاعون حاجاتهم إلا من الألمان، وفي أيديهم تجارة اللبن ولهم مغارس ومعامل وغيرها.

فبراير 1914

أجناس أهل فلسطين

يقسم سكان فلسطين من حيث الجنس إلى وطنيين وأجانب، فالوطنيون هم: العرب والسوريون واليهود. وإليك البيان:

1- العرب

فالعرب نريد بهم القبائل العربية التي لا تزال محافظة على أنسابها وعاداتها العربية. وهم طبقتان: البدو والحضر، فالبدو مثل سائر العرب الرحل ينتقلون بمضاربهم وأنعامهم إلى حيث يطيب لهم المرعى أو يأمنون الغزو. وأشهر هذه القبائل الآن بنو عنزة ويقسمون إلى أربع قبائل: ولد علي والحصنة والرولا وبشر. ويقدر عددهم بنحو 30000 نفس. ومن البدو في فلسطين الغزاوية والصقر في سهل مرج ابن عامر يسطون على مزارع الناس وينهبونها. ووجودهم هناك بعثَ على إهمال زراعة كثير من تلك الأراضين. ويقدر عددهم بنحو 2000 نفس.

وأما الحضر، وهم العرب المقيمون، فيشتغلون بالزرع، منهم الغوارنة نسبة إلى غور بيسان. ومن بني صخر طائفة من الحضر أيضًا يقيمون في موآب.

2- السوريون

نريد بالسوريين من تعرّب من سكان سوريا وفلسطين بعد الإسلام. وهم طبقات يصعب تمييزها والتفريق بينها وبين بقايا سكان تلك البلاد الأصليين. لكننا رغبة في الإيضاح نقسمهم إلى الأقسام الآتية:

أولًا: بقايا سكان تلك البلاد الأصليين من السريان والآراميين وغيرهم من الأمم التي توطنت سوريا وفلسطين قبل الإسلام وتعرّبوا بتوالي الأجيال تحت سلطة العرب.

ثانيًا: بقايا قبائل العرب التي نزلت فلسطين عند الفتح الإسلامي أو بعده وتناسلت فيه. وهؤلاء طبقتان: الأولى المسلمون أهل البيوتات الذين لا يزالون محافظين على أنسابهم، ومنهم الأشراف الذين ينتسبون إلى بيت النبي أو إلى بعض الصحابة. ومنهم من ينتسب إلى بعض الأمراء والحكام من حوران أو غيرها. فالأشراف في فلسطين:

1- بيت الحسيني: نسبة إلى الحسين بن علي، أشهرهم بيت الحسيني في القدس وغزة. وهم ينسبون إلى جدهم السيد بدر المشهور بالسلطان بدر المتوفى سنة 650هـ المدفون في الزاوية الواقعة بوادي النسور في ضواحي القدس. وأول من استوطن بيت المقدس من أولاد تاج الدين أبو الوفاء محمد البدري سنة 782هـ وتوفى سنة 803هـ وهو الجد الجامع للعائلة الحسينية بالقدس وبيت السادة الوفائية بمصر. وعدد الحسينية في القدس نحو 140 من الذكور، ومنهم طائفة من أصحاب الوجاهة والنفوذ والعلم.

2- بيت السعيد في يافا: يتصل نسبهم بإدريس الكبير بن عبد الله من سلالة الحسن بن علي. وأول من نزل فلسطين منهم «أبو النصر» جاءها منذ ستة قرون ونزل حجة بجوار نابلس وتكاثر نسله هناك فتفرقوا في فلسطين، واشتهر منهم «دهيس» بين أهل البادية في القرن الثامن عشر، وعُرف هذا الفرع بأسرة دهيس.

واشتهر من أحفاده سعيد بك بن مصطفى بن عثمان بن دهيس. وتولى حكومة القدس وغيرها تحت ولاية عبد الله باشا صاحب عكا وحارب باسمه مرارًا ودافع معه عن عكا لما حاصرها إبراهيم باشا وتوسط في الصلح بينهما. فولاه إبراهيم غزة فكان له عونًا في إخماد ثورة القدس وغيرها. وهو والد حافظ بك السعيد وجيه يافا ونائبها في مجلس المبعوثان السابق.

3- بيت العلمي: ينتسبون إلى الحسن بن علي، ومنهم جماعة من العلماء في القدس وغيرها.

4- بيت الخالدي: ينتسبون إلى خالد بن الوليد الصحابي الفاتح الشهير. وقد نبغ منهم طائفة من العلماء والوجهاء.

أما البيوتات أو العشائر التي تنتسب إلى الأمراء أو غيرهم من أهل الوجاهة فأشهرهم:

1- بيت عبد الهادي: أصل هذه العشيرة من القسطل في البلقاء ونزحوا منها بمن لحق بهم من أهلهم وأعوانهم إلى جبل نابلس منذ نحو ثلاثة قرون فنزلوا قرية «عرَّابة» وتفرقوا منها في نابلس وجنين والناصرة وغيرها. وهم أصحاب الكلمة العليا في تلك الجهات ولهم ثروة ووجاهة ومنزلة رفيعة.

2- بيت جرّار: هم من أقران بيت عبد الهادي، نزحوا معهم من القسطل إلى جبل نابلس فنزلوا قلعة صانور منذ ثلاثة قرون. وهم من خيرة وجهاء نابلس.

3- بيت طوقان: وهم عشيرة كبيرة في بلاد نابلس ينتسبون إلى مشرف من آل بكر بن وائل - هكذا في «الروض البسام» صفحة 21.

والطبقة الثانية من العرب المسلمين في فلسطين ضاعت أنسابهم بتوالي الأجيال، وأكثرهم من العامة، ومنهم طائفة من أهل الوجاهة والثروة والعلم.

ثالثًا: العرب النصارى الذين انتقلوا من حوران أو غيرها في أزمان مختلفة واندمجوا في أهل البلاد، وبعضهم لا يزالون إلى الآن يرجعون بأنسابهم إلى أجدادهم من غسان أو غيرهم.

رابعًا: المستعربون من جالية الإفرنج بعد الفتح الإسلامي من اليونان والإيطاليين وغيرهم. وناهيك بمن خلفهم من الصليبيين على إثر إقامتهم الطويلة فيها. ولا تزال آثار ذلك ظاهرة في ملامح الفلسطينيين وأسمائهم إلى الآن. وهذا غالب في النصارى، وخصوصًا في القدس وما يجاورها، وبنوع أخص في أهل بيت لحم فإن ملامحهم قريبة جدًّا من ملامح الإفرنج. وأردنا تحقيق ذلك فبحثنا عن أنساب العائلات الشهيرة هناك فلم نعثر على سجلات أو تقاليد تؤيد ذلك بعد، ولا نزال نوالي البحث.

خامسًا: المستعربون من الأتراك والجركس والأفغان والأرمن وغيرهم من الأمم الشرقية التي نزلت تلك البلاد وتوطنتها بعد الإسلام، وأكثرهم من المسلمين.

3- اليهود

هم أقدم الأمم الفلسطينية الباقية إلى الآن. ولهم في موضوعنا شأن خاص لما هم ساعون فيه من أمر الصهيونية واستعمار فلسطين. وعددهم الآن هناك نحو 78000 أكثرهم في القدس ويافا، وهم طبقتان: اليهود الوطنيون الذي ظلوا في بلدهم بعد السبي. واليهود الغرباء الذي عادوا إليه في العهد الأخير. وهؤلاء أكثر عددًا من أولئك وقد فصلنا سبب نزوحهم في مقالة الصهيونية في الهلال الثاني من هذه السنة.

وتقسم جالية اليهود في فلسطين إلى صفارية [سفارديم] وأشكنازية. والصفارية عددهم 4500 نفس أكثرهم يمنية ومغاربة، ومنهم جماعة من جالية كردستان وبخارى والعراق.

وأما الأشكنازية فإنهم أكثر كثيرًا، ومنهم في القدس وحدها نحو 40000 نفس. ولكل من هذه الجماعات عادات خاصة وأخلاق خاصة فضلًا عن الأخلاق اليهودية الأصلية.

وأما الأجانب في فلسطين فنريد بهم الأمم التي تقيم فيها ولا تزال محافظة على جنسياتها، وفيهم الإفرنج على اختلاف البلاد واللغات وأهل المشرق الأتراك والأرمن والأفغان والكرج وغيرهم.

أديان أهل فلسطين

في فلسطين أمثلة من أديان شتى أشهرها المسلمون والنصارى واليهود والسامريون. والمسلمون أكثر عددًا من سائر الطوائف يليهم النصارى ثم اليهود وأخيرًا السامريون.

والمسلمون يشبهون مسلمي مصر والشام من أكثر الوجوه ولا حاجة إلى الكلام عنهم من جهة الدين. وإنما نقول بالإجمال إنهم مادة البلاد ووجهاؤها وأصحاب الثروة والنفوذ فيها.

أما النصارى فيختلفون عن نصارى مصر بكثرة مذاهبهم وتعدد طوائفهم حول القبر المقدس. ففيهم اللاتين والروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك والسريان والأرمن واليعاقبة والموارنة والنساطرة والقبط والإنجيليون وغيرهم. وعددهم في متصرفية القدس نحو 50000 نفس. واليهود تقدم الكلام عليهم.

بقي أن نقول كلمة في السامريين وهم يستلفتون انتباه الباحث الاجتماعي لأنهم بقية أمة قديمة ذاهبة إلى الفناء، لم تخالف سنة الاجتماع ولا استطاعت تجديد شبابها ومغالبة الأيام كما فعل اليهود.

السامريون أو السمرة

أصلهم وتاريخهم

بين يدينا تاريخ للسامرة مخطوط دفعه إلينا الكاهن يعقوب بن هارون رئيس كهنة السامريين الآن. وقد جاء فيه أن السامريين هم اليهود الأصليون وينتسبون في أصل أرومتهم إلى يوسف الصديق إلا كاهنهم فإنه ينتسب إلى لاوي. ويعتقدون أن اليهود انشقوا عنهم وخالطوا الأمم الأخرى. ولكن أهل البحث يرون أن السامريين ليسوا يهودًا ولا من أصل يهودي. وأنهم سموا بهذا الاسم نسبة إلى أرض السامرة في فلسطين. وفي حقيقة أصلهم أقوال، أشهرها أنهم من بلاد فارس من بلدة كانت تسمى كوتا. وخلاصة ما قيل في هذا الموضوع أن أحد ملوك آشور سطا على فلسطين في أوائل القرن الثامن قبل الميلاد واكتسح السامرة واستخرج اليهود منها. وما زالت السامرة خالية من السكان حتى جاء ملك آخر منهم فملأها بقوم حملهم إليها من بلاده، وإليك ما ورد في سفر الملوك (17: 24) «وأتى ملك

آشور بقوم من بابل وكوتا وعوا وحماة وسفروائيم وأسكنهم في مدن السامرة مكان بني إسرائيل فملكوا السامرة واستوطنوا مدنها»، والمظنون أن الملك الذي نقلهم هو أسرحدون. وكانوا في أول أمرهم يعبدون الأوثان وهم خمس قبائل يعبد كل منها صنمًا حملته معها من بلادها. قال يوسيفوس: و«الكوتيون جاءوا في بادئ الرأي من أقصى بلاد مادي وفارس ثم دعوا سامريين نسبة إلى السامرة التي انتقلوا إليها». ثم قال: «وهم يسمون بالعبرانية كوتيين وباليونانية سامريين»، على أنهم كانوا يحاولون الانتساب إلى اليهود تزلفًا إليهم أو تشرفًا بأصلهم واليهود يتبرءون [يتبرأون] منهم، ويظهر تبرؤهم جليًا من مراجعة الأناجيل فإنها تدل على ذلك دلالة صريحة في أماكن كثيرة.

وللسامرة تاريخ يمكن استخراجه من ثنايا التوراة. وأما بعد زمن التوراة فتاريخهم تابع لتاريخ بلادهم. وقد لاقوا اضطهادًا كثيرًا من الرومانيين وغيرهم. ويؤخذ من رحلة بنيامين التودلي في القرن الثاني عشر للميلاد أن السامريين كان عددهم نحو ألف نفس في فلسطين. وما زالوا يتناقصون إلى الآن. فقد أخبرنا الكاهن يعقوب المشار إليه أن عددهم لا يتجاوز 175 نفسًا ويظهر أنهم صائرون إلى الفناء لأسباب اجتماعية اقتصادية كما يتضح مما يلي:

أحوال السامريين الآن

لم يبق من السامريين الآن غير المقيمين في نابلس عند سفح جبل جرزيم في حي خاص بهم. ولهم كنيسة تعرف باسمهم يظهر القدم عليها. وعددهم جميعًا 175 نفسًا منهم 98 من الذكور و77 من الإناث. ومن الذكور الآن نحو 30 شابًا في استعداد للزواج وليس بين الإناث في محل الزواج إلا ثلاث بنات. فهذا سبب طبيعي لقلة النسل. ولو أراد هؤلاء الشبان التزوج من غير السامريين لا يجدون من يزوجهم لا من اليهود ولا النصارى ولا المسلمين ولا غيرهم. ولذلك قلنا إنه قد حكم عليهم بالزوال.

ويؤيد ذلك سوء حالتهم الاقتصادية فإنهم في غاية الفقر ليس فيهم من يملك قرية أو يتعاطى تجارة. وقد غلبتهم الديون فإذا كان لأحدهم بيت كان عليه من الدين ضعف قيمته. أخبرنا كاهنهم أنه كان لهذه الطائفة نحو 400 فدان من الأرض تستغلها غرقت في الديون واستولى عليها أصحاب الدين.

وقد تولاهم الخمول الذي يستولي على الأمم في شيخوختها فلا تجد فيهم من يشتغل للمستقبل. لا مطامع ولا همة ولا إقدام أو نشاط. وليس بينهم من أهل الصناعة إلا خمسة نجارين وخمسة خياطين وبعض الباعة. وإنك ليدهشك ما تقرؤه على وجوه القوم من اليأس، ولا سيما أهل التفكير منهم فإنهم يتوقعون زوال هذه الأمة بحكم الطبع، ويتساءلون عما ينجيهم من ذلك فلا يجدون من يأخذ بيدهم.

ومع ذلك فإنهم شديدو التمسك باعتقاداتهم لا يتنازلون عن حرف منها. أهمها أن جبل جرزيم هو الجبل المقدس كما يقول اليهود عن جبل موريا، وأن خيمة الاجتماع وتابوت العهد وسائر الآنية المقدسة مدفونة في جبل جرزيم. وهم يحجون إلى ذلك الجبل في أعيادهم الثلاثة التي يحج فيها اليهود إلى القدس، وهي عيد الفصح وعيد العريش وعيد الأسابيع. ويذبحون خروف الفصح على ذلك الجبل. وهم يتوقعون مجيء المسيح متى تمت ستة آلاف سنة من الخليقة، ولهم أدلة كثيرة وأبحاث طويلة في هذا الشأن. يتكلمون اللغة العربية مثل سائر أهل نابلس. لكنهم يكتبون ويصلون باللغة السامرية، هي اللغة العبرانية نفسها تكتب بأحرف خاصة هي الأحرف السامرية المتفرعة من القلم الفينيقي وبها يكتبون توراتهم وسائر كتبهم.

وليس للسامريين آداب خاصة تستحق الذكر. وأكثر كتبهم صلوات ودعوات وأبحاث لاهوتية في مناقشة اليهود من حيث صحة اعتقادهم. وعندهم كتب تاريخية قليلة ليس بينها ما تتجاوز كتابته القرن العاشر للميلاد وقد لخصها الكاهن يعقوب هذا في تاريخ عام استنسخناه وقد أشرنا إليه في ما تقدم، لكنه محشو بالمسائل الدينية وكثير من الخرافات. وفيه نصوص من التوراة نقلها بحرفها السامري ومعناها العربي. وفي آخره نسب الكاهن المشار إليه. ولغة التاريخ سقيمة، وربما نشرنا ملخص هذا التاريخ في فرصة أخرى. وكان للسامريين أدب وشعر نحو شعر التوراة كالمزامير ونحوه، لم يبق منه إلا القليل وقد تشوهت لغته وأسلوبه وحروفه.

التوراة السامرية

هي أهم آداب لسانهم وتعرف بالتوراة الـسامرية، وهـــي عـــبارة عـــن الأسفار

الخمسة الأولى ولا يعتبرون سواها من الأسفار. وهي كالأسفار الخمسة التي لليهود في اللغة العبرانية نفسها لكنها مكتوبة بالحرف السامري - وإنما تختلف عن التوراة العبرانية في بعض النصوص من حيث أعمار الآباء ونص بعض الوصايا وغير ذلك نحو ما تختلف عنها الترجمة السبعينية وقد طبعت التوراة السامرية في لندن قديمًا.

ومن هذه التوراة نسخ قديمة في متاحف أوربا مخطوطة على رقوق أو جلود. أقدمها كلها نسخة في شكل درج محفوظة في كنيس السامريين في نابلس لا يطلعون عليه [عليها] أحدًا إلا في ظروف مخصوصة. وأما ما يذكره السياح عن التوراة السامرية القديمة فيريدون به نسخة أخرى أحدث منها عهدًا يقولون إنها كتبت منذ عشرين قرنًا، وأما تلك فإنهم شديدو الحرص عليها يتسلمها كهنتهم للمحافظة عليها. ولهم ضرائب على الشعب في سبيل هذه المحافظة، لأنهم يتبركون بها إذ لم يبق من ذخائرهم الدينية سواها. والكهنة يتوارثون الكهانة ويتوارثون معها حق المحافظة على هذه التوراة. آخرهم الكاهن يعقوب المتقدم ذكره. ويعتقدون أنها كتبت بعد موسى بقليل، كتبها أبيشع بن فنحاس بن أليعازر بن هارون الكاهن. وقد رأيناها موضوعة في صندوق عليه نقوش وهي ملفوفة بغطاء من الحرير الأخضر مطرز الحواشي. وقد تلطف الكاهن يعقوب بإخراج هذا الكنز الثمين من مخبئه وأطلعنا عليه وطلب إلينا إبداء رأينا في قدم عهده.

والتوراة المذكورة مكتوبة على رق في شكل درج ينتهي من طرفيه بعمودين يلف عليهما الدرج من الطرفين. وإذا أرادوا قراءة فصل منها أداروا العمودين حتى ينكشف المراد قراءته، غير عمود ثالث في الوسط. وقد تأملنا هذا السفر جيدًا وقرأنا تاريخ كتابته في آخره، على عادة السامريين في تاريخ ما يكتبونه. ولهم في ذلك طريقة لا يخشى معها التزوير أو التحوير.

وذلك أنهم يقتطعون حروفًا مــن عبارة التوراة نفــسها. يستفردون من كل سطر حرفًا أو حرفين، يجعلونها متناســقة في خــط واحــد فــي منتصف الصفحة، تنقسم به الصفحة إلى حقلين وبينهما عمود مؤلف مــن الأحــرف المقتطعة. يفعلون ذلك في عدة صفحات أو عدة فصول من الكتاب المراد تاريــخ كتابته بحيث يجتمع من

تلك الأحرف حسب ورودها فقرة تشتمل على اسم الكاتب وسنة الكتابة ومكانها ونحو ذلك. فهذه الطريقة لا يُخشى وقوع التزوير فيها. لأن كل حرف من الحروف المقتطعة يؤلف جزءًا من الكلمة التي اقتطع منها. فإذا أبدل بحرف آخر ظهر ذلك، بما يحدث من التشويش أو النقص في تلك الكلمة أو في سياق الكلام.

والأحرف المقتطعة لتاريخ هذه التوراة تتألف منها فقرة هذه ترجمتها العربية: «أنا أبيشع بن فنحاس بن أليعازر بن هارون الكاهن عليهم رضوان الله وإجلاله، كتبت هذا السفر المقدس في باب خباء المحضر بجبل جرزيم في سنة ثلاث عشرة لدخول بني إسرائيل أرض كنعان على حدودها دائرًا أحمد الله».

وقد تأملنا أحرف هذه الفقرة في الأصل جيدًا فلم يظهر لنا فيها بالعين المجردة كشط ولا إضافة. على أن هذا لا يمنع حدوث ذلك وظهوره تحت الميكروسكوب أو بالفحص الكيماوي - وإن كنا نرجح سلامة هذا النص من التلاعب. فإذا صح ذلك وجب أن يكون هذا السفر قد كتب منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة. فتكون هذه النسخة أقدم مخطوطات العالم على الإطلاق. إذ ليس بين مخطوطات المتاحف على الرقوق أو الجلود ما يتجاوز تاريخ الميلاد. وقد تباع لذلك بثمن يكفي للنهوض بهذه الأمة الهرمة وتجديد شبابها.

ويرى السامريون أن هذا التاريخ لا يقبل الاعتراض، وقد أكد لنا الكاهن يعقوب أن بعضهم ساومه على ابتياع هذه التوراة بعشرات الألوف من الجنيهات، فلم يبعها احتفاظًا بهذا الأثر المقدس الذي سلم إليه من أجداده فلا يريد أن يفرط فيه. وحسن اعتقاده وأمانته أبقيا هذا السفر إلى الآن. فإذا خلفه كاهن ضعيف الإيمان باعه، وهو البقية الباقية من جامعة تلك الأمة فإذا ذهبت انفرط عقدها وقضي عليها.

وفي رأينا أن هذا السفر لا يمكن أن يكون عمره ثلاثة آلاف سنة للاعتبارات الآتية:

1- أن الرق المكتوب عليه لا يصبر على البقاء هذا الدهر الطويل، وبينه وبين أقدم أثر خطي معروف بضعة عشر قرنًا.

2- أن أحرف هذا السفر في غاية الانتظام والتناسب كأنها كتبت منذ بضع مئات من السنين. والحرف السامري تفرع عن الحرف الفينيقي وتدرج في الانتظام والتناسب بمرور الأجيال عملًا بسنّة النشوء. فلا يتكامل تكوّنه إلا بعد عدة قرون. مع أن الحرف الفينيقي نفسه لم يوجد قبل ذلك التاريخ بكثير. وشأننا في ذلك شأن من يأتينا بأثر عربي مكتوب بخط فارسي جميل ويقول إنه كتب قبل الإسلام أو عند ظهور الإسلام فنحكم حالًا أنه مزور لعلمنا أن الخط العربي لم يصل إلى هذا الشكل إلا بعد أن مر عليه نحو ألف سنة، فلا نصدق القائل ولو كان صادقًا ولكننا نبحث عن سبب وقوع هذا التناقض.

فالتوراة السامرية التي نحن في صددها، إذا لم يظهر فيها بالبحث الميكروسكوبي أو الكيماوي تلاعُب، ثبتت لنا سلامتها من التزوير. فنعلل قدم هذا التاريخ فيها أنها منسوخة عن أصل قديم كتبه حفيد هارون الكاهن كما قال. فلما نسخه الناسخ حافظ على نص قوله تمامًا. وهذا كثيرًا ما يقع في نسخ الكتب ويلتبس على الباحثين أن يعينوا زمنها، ولكنهم يستعينون غالبًا بشكل الخط لأن لكل عصر شكلًا منه. وفي كل حال فإن هذه النسخة من أقدم الآثار المخطوطة في العالم.

خامسًا - أحوالها العلمية

التعليم على الإجمال ضعيف في فلسطين مثله في معظم المملكة العثمانية، بل هو في فلسطين أضعف مما في سواها، ويصدق ذلك على المدارس الوطنية الأميرية وغير الأميرية. ونخص الكلام بالقدس لأنها أرقى سائر مدائن فلسطين في التعليم. وليس فيها من المدارس الكبرى الوطنية إلا المدرسة الدستورية لخليل أفندي سكاكيني ومدرسة روضة المدارس للشيخ محمد الصالح الحسيني ومدرسة إعدادية للحكومة. وكلها تشبه المدارس الابتدائية عندنا، وقس على ذلك سائر مدارس فلسطين الوطنية. وليس في فلسطين مدرسة كلية وطنية. أما الأجانب فلهم في فلسطين مدارس كبرى لتعليم أهل تلك البلاد وتثقيف عقولهم - هاك أهمها في القدس:

1- دار الأيتام السورية: أسسها الدكتور [لودفيغ] شنيلر الألماني سنة 1860 بجده واجتهاده. قضى أهم سني حياته في هذا المشروع يدبر شئونه رغبة في عمل الخير. وقد جمع له المال من المحسنين بألمانيا وأمريكا وروسيا وسويسرا وأنفقها كلها [وأنفقه كله] في إنشاء هذا المعهد العلمي الخيري لتعليم الأيتام الذين ليس لهم من يعولهم. وقد نجح نجاحًا عظيمًا وأتى بأثمار حسنة، وتخرج في هذه المدرسة مئات من الشبان والشابات، وفيهم طائفة من العميان وقد تعلموا اللغات أو بعض الصنائع وضمنوا لأنفسهم أسباب الرزق.

وقد اتسعت هذه المدرسة وتعددت فروعها وأبنيتها وفيها معامل للخزف ومصانع الحدادة والكراسي والنجارة وغير ذلك. وفيها قسم داخلي وآخر خارجي، وعدد تلاميذها نحو 750 تلميذًا منهم 400 داخليون، ونحو خمسين فتاة. وعدد العميان فيها نحو 50 أعمى، وعدد المعلمين نيف وأربعون معلمًا، منهم 23 لتعليم العلوم واللغات و22 لتعليم الصناعات.

2- مدرسة جوار[3] للإنجليز: يديرها أسقف إنجليزي اشتهر بفضله وتفانيه في تربية الناشئة، وهي من أحسن المدارس لتعليم اللغة الإنجليزية وآدابها، وقد تخرج فيها طبقة من الأدباء بعضهم جاء مصر واشتغل فيها.

3- مدرسة صهيون وهي إنجليزية أيضًا وتخرج فيها كثيرون.

وهناك مدارس أخرى لسائر الطوائف النصرانية، لكن أكثرها صغيرة لا تستحق الذكر هنا. وبلغنا أن الآباء اليسوعيين قرروا إنشاء كلية في القدس على نسق كليتهم في بيروت.

مدارس اليهود

لليهود شأن خاص في فلسطين من حيث التعليم مثل شأنهم في الاقتصاد وأسباب المعاش. واليهود في هذا العصر ينافسون الأمم الأخرى بأقوى عوامل المدنية وأهم أسباب النجاح، نعني المال والعلم والاتحاد. أما المال فهم

---

(3) ربما كان المقصود مدرسة سان جورج أو مدرسة المطران.

مشهورون باقتدراهم على جمعه وإحرازه من قديم الزمان. وهم يبذلونه الآن في سبيل مطامعهم الاقتصادية والاجتماعية في فلسطين، ويبذلونه أيضًا في سبيل التعليم. وأما الاتحاد فإنه عماد أعمالهم كما رأيت في ما تقدم عن الجمعية الصهيونية وغيرها. ونقتصر هنا على الكلام في التعليم.

لليهود مدارس كثيرة في فلسطين ليست لسواهم. بعضها على النسق القديم تعلم [يُعلم] التوراة والتلمود والبعض الآخر يعلم العلوم الحديثة. فالمدارس القديمة، منها في القدس وحدها عشرات، عدد معلميها 200 معلم وتلاميذها نحو 4000 تلميذ وكلهم يهود. ومنها خارج القدس نحو عشرين مدرسة أكثرها في يافا، عدد معلميها كلها 51 معلمًا وتلاميذها 1400 طالب.

كلية تل أبيب

أما مدارسهم العصرية التي تعلم العلوم الحديثة فأول من أنشأها لليهود «جمعية الأليانس» في فلسطين. فيها كلها نحو 2000 تلميذ، وهناك مدارس أخرى لجمعيات أخرى أو بعض الأفراد لا محل لها هنا. نكتفي بذكر المدارس الكبرى في القدس، أشهرها مدرسة الأليانس المتقدم ذكرها، ومدرسة بيت ساليل ومدرسة لاميل وغيرها. وحسبنا وصف مدرسة تل أبيب في يافا لبيان مبلغ تقدم اليهود في فلسطين عن سائر أهلها من حيث التعليم.

زرنا هذه الكلية في محلة تل أبيب في يافا. فأدهشنا منها أمور لم نكن نتصورها ولا خطرت ببالنا من قبل. أدهشنا أولًا أنها مدرسة كلية كبرى، ويسمونها لذلك (جمناز)، تعلم العلوم العالية الطبيعية والرياضية فضلًا عن التاريخ والجغرافية والآداب. وتعلم اللغات العبرانية والفرنساوية والتركية والعربية. وفيها المعارض والمعامل للطبيعيات والكيمياء والتاريخ الطبيعي والتصوير. وليس في يافا ولا القدس ولا سائر بلاد فلسطين مدرسة كلية من هذا النوع لا في العربية ولا غيرها.

وأدهشنا ثانيًا أن هذه المدرسة تعلم العلوم باللغة العبرانية. كما تعلم المدرسة الكلية الأمريكية في بيروت بالإنجليزية ومدرسة الآباء اليسوعيين بالفرنساوية. أي إن مدرسة تل أبيب هذه تعلم الطبيعيات والكيمياء والرياضيات والتاريخ وسائر العلوم العالية باللغة العبرانية فقط. ويزيد دهشتنا أن هـذه اللغة بعد أن أوشكت تعد

من اللغات الميتة أحياها أصحابها وجعلوها أقرب إلى الحياة العلمية من اللغة العربية، إذ ليس في العالم العربي اليوم مدرسة كلية عالية تعلم العلوم والفنون باللغة العربية فقط، إلا الجامعة المصرية وهي لا تزال في أول نشأتها. وهناك كليات في بيروت ولبنان تعلم أكثر علومها بالعربية لكنها أقل درجة من هذه الكلية.

وقد تفقدنا كلية تل أبيب فأطلعنا رئيسها على ما فيها من المعارض والمعامل والألعاب الرياضية. وشاهدنا في قاعة الجغرافية الخرائط وعليها أسماء البلاد والأنهر والجبال باللغة العبرانية. وطلبنا إليه أن يطلعنا على بروغرام المدرسة فدفع إلينا بروغرامًا مطبوعًا باللغة العبرانية. وسألناه عن طريقة التعليم فيها وهل هي خاصة باليهود فأجاب مبتسمًا «إنها عمومية لا تردّ طالبًا مهما يكن دينه أو جنسه لكنها تشترط عليه أن يكون متمكنًا من اللغة العبرانية وآدابها ليتعلم العلوم بها». فأجبناه «إن هذا الشرط أدنى إلى مصلحتكم من الرفض لأن من يدخل مدرستكم على هذا الشرط من غير اليهود لا يلبث أن يكون قريبًا منكم، لأن من يتعلم آداب قوم يحسن الظن بهم»، فضحك ولسان حاله يقول «قد أصبت غرضنا».

وقد علمنا أن هذه المدرسة تحت رعاية الجمعية الصهيونية، لكنها لم تكن هي التي شرعت في إنشائها، وإنما أنشأها رجل إسرائيلي غيور على أمته. فلما نجح مشروعه كانت الجمعية الصهيونية قد أخذت بناصر اليهود، فعرضت عليه أن يجعل هذه المدرسة تحت رعايتها لتساعدها بالمال عند الحاجة فأجابها.

فكلية تل أبيب مثال لحياة الأمة اليهودية ونهضتها العلمية والاجتماعية بإحياء اللغة التي كان يتكلمها آباء التوراة في إبان مجدها. وهو درسٌ نوجّه إليه أنظار طلاب الإصلاح من العرب وغيرهم. إن الأمة لا تحيا إلا بحياة لغتها ولا تحيا اللغة إلا بكثرة ما فيها من المؤلفات العلمية الراقية، وأكبر الوسائل المؤدية إلى ذلك أن تكون هي لغة التعليم في المدارس الكبرى.

اللغة العبرانية والفنون الجميلة

ولم يقتصر سعيهم في إحياء لغتهم على جعلها قاعدة التدريس في هذه المدارس، لكنهم أحيوها بنقل الفنون الجميلة إليها، ففي تل أبيب مدرسة

للموسيقى تعلم الموسيقى الحديثة في اللغة العبرانية. وليس في العالم العربي حتى الآن مدرسة للموسيقى تعلم في اللغة العربية، غير ما عزم عليه بعض محبي الموسيقى بالإسكندرية من إحياء هذا الفن. وفي يافا جماعة من اليهود غواة التمثيل ألفوا جوقًا يمثل الروايات التاريخية ونحوها في اللغة العبرانية أيضًا. ولا يمضي زمن حتى ينبغ من الناشئة اليهودية من ينظم الشعر بلغة موسى وداود وسليمان فتتم به حياتها.

كليات يهودية أخرى

وكلية تل أبيب مثال لكليات اليهود، وليست هي الوحيدة من نوعها فإنهم أخذوا ببناء كلية مثلها في حيفا منذ سنتين بمال الجمعية الصهيونية، وستكون تحت رعاية ألمانيا وهي التي ساعدت الجمعية حتى نالت الإذن الشاهاني بإنشائها. ويقدرون النفقات اللازمة لهذه المدرسة بمائة ألف جنيه. وقد اختلفوا في لغة التدريس الرسمية لهذه المدرسة. فالجمعية الصهيونية تريد أن تكون اللغة العبرانية، وأما الألمان فيريدون أن تكون الألمانية. وقررت الجمعية الصهيونية في مؤتمرها الأخير في العام الماضي إنشاء كلية أو جامعة في القدس ستكون أعظم الكليات اليهودية في العالم. وستعلم كل فروع العلم الحديث وفنونه باللغة العبرانية. وفي عزم اليهود أن يجعلوا هذه اللغة قاعدة التدريس في أكثر مدارسهم الصهيونية وغيرها. ناهيك بما أنشئوه [أنشأوه] من المدارس الفنية في فلسطين وخصوصًا الزراعية. أهمها مدرسة الزراعة في ضاحية يافا وهي عبارة عن عدة بساتين في وسطها مدرسة ومعمل للخمور، أسسها رجل اسمه نيتر، فيها اليوم 65 طالبًا من الذكور والإناث يتعلمون الزراعة العلمية وهي تقبل غير اليهود، لكن، يندر أن يجيئها أحد من الطوائف الأخرى.

طبقات الأمة والتعليم

على أن الميل إلى التعليم ينتشر الآن في طبقات الأمة الفلسطينية، ولا سيما الطبقة الراقية. فمن لا يكتفي بتعليم أبنائه في المدارس الوطنية أو غيرها في القدس أو يافا أرسلهم إلى المدارس الكبرى في بيروت أو الآستانة أو فرنسا

أو غيرها. هكذا يفعل بيت الحسيني والخالدي في القدس وبيت السعيد في يافا وبيت عبد الهادي في نابلس. ورأينا اضطرابًا في أميال الأهلين من حيث الخطة التي يجب أن يتخذوها في تعليم أبنائهم هو تابع لاضطراب جو السياسة، ولا بد أن تستقر الأحوال. وعسى أن تستقر على ما يوافق مصلحة البلاد العربية والأمة العربية والدولة العثمانية.

المكتب الصحي المختلط

وفي القدس مكتب أو معمل للأبحاث الطبية والفحص الميكروسكوبي يندر مثله في الشرق. أسسه الأجانب واليهود. واشترك في إنشائه ثلاث جمعيات طبية:

1- الجمعية الألمانية لمحاربة الملاريا.

2- المكتب الصحي اليهودي.

3- جمعية الأطباء والعلماء اليهود لتحسين الصحة في فلسطين، وسموه المكتب الصحي المختلط.

وللمكتب المذكور لجنة تدير شئونه مؤلفة من بعض أعضاء الجمعيات الثلاث المتقدم ذكرها. وهو مؤلف من معامل للأبحاث الطبية أهمها:

1- معمل الملاريا للبحث في مقاومة هذا الداء رئيسه الأستاذ مولنس.

2- المعمل الهيجيني [الصحي] بإدارة الدكتور برين.

3- معمل الكلَب والمصل بإدارة الدكتور بيهان. الغرض منه استحضار الأمصال اللازمة والبحث في حوادث الكلَب التي تقع، وهذا نادر لا وجود لمثله في سوريا على ما نعلم. ولذلك فمن يصاب بالكلب فيها يحملونه إلى مصر أو أوربا. أما القدس فقد أنشئ فيها هذا المعمل لهذا الغرض.

4- المعمل البكتريولوجي للبحث في الميكروبات على الإجمال بإدارة الدكتور كولدبرج.

وهناك فروع طبية للأبحاث المختلفة، أهمها فرع الملاريا بإدارة الدكتور [توفيق] كنعان، وهذا الداء كثير الانتشار في القدس لأن ماءها أكثره مجموع في الصهاريج[4].

(4) توفي جرجي زيدان قبل أن ينهي كتابة رحلته إلى فلسطين.

فهرس عام

-ق-

هذا الكتاب

لم يكن جرجي زيدان مجرد رحّالة يرصد بعينيه مشاهد البلدان الثلاثة التي زارها، أي الآستانة وأوروبا وفلسطين ، بل كان رجل علم حاول أن يستكشف معالم تلك البلدان وعمرانها وحضارتها وثقافات شعوبها، ويستنطق تاريخها ليكتشف كيف تمكنت أوروبا من أن تصل إلى ما وصلت إليه من تقدم وغنى ومعارف. ولأنه رجل علم ومؤرخ، فقد رغب في نقل معالم التحضر في أوروبا إلى العرب، خصوصًا المصريين، والإشارة، في الوقت نفسه، إلى سلبيات تلك الحضارة التي لا تتلاءم وطبيعة الشرقيين بحسب ما كان يرى ويعتقد. أما في رحلتيه إلى الآستانة وفلسطين فقد لاحظ التبدلات التي بدأت تغمر الحياة السياسية والاجتماعية في عاصمة الخلافة العثمانية عشية الحرب العالمية الأولى، وكذلك صعود الصهيونية وإصرارها على تأسيس وطن لليهود في فلسطين. ويظهر جرجي زيدان في رحلاته الثلاث داعية للتفاعل الثقافي والتبادل الحضاري، وكثيرًا ما ركز مشاهداته على رصد تفصيلات الحياة اليومية كأحوال المرأة التركية علاوة على العمران والتقدم، ولا سيما المتاحف والفنون والموسيقى والمسرح، وكذلك على المسيحيين واليهود في فلسطين.

جرجي زيدان

ولد جرجي زيدان في بيروت في عام 1861 وما إن أنهى دروسه الابتدائية حتى ألحقه والده بأحد الإسكافيين ليتعلم صناعة الأحذية، لكنه انصرف عنها وانتسب إلى مدرسة ليلية ليتعلم الإنكليزية، وأجهد نفسه في الدراسة حتى تمكن من اجتياز امتحانات القبول في كلية الطب التابعة للكلية الإنجيلية السورية في بيروت (الجامعة الأميركية لاحقًا). وفي السنة الثانية من دراسته طرد من الكلية لمشاركته في إضراب طالبي احتجاجًا على إقصاء أحد الأساتذة الذي كان ينافح عن داروين ونظريته في النشوء والارتقاء. وعلى الفور غادر بيروت إلى مصر، وهناك انبسطت حياته العلمية، فأصدر مجلة **الهلال** في عام1892، ووضع مؤلفاته التاريخية المشهورة. توفي في عام 1914.



المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies



السعر: 12 دولارًا
ISBN 978-614-445-154-0